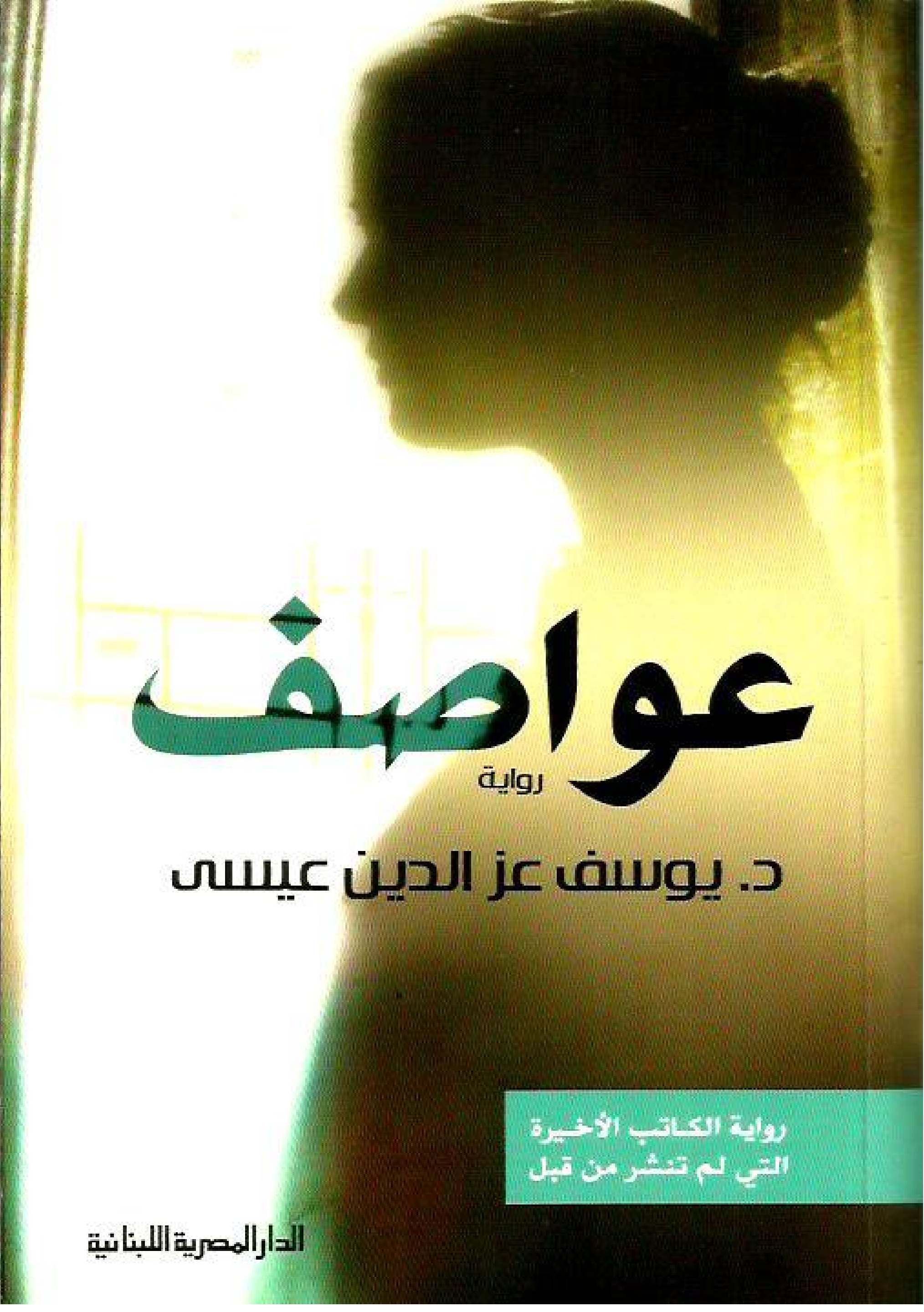

عواصف

رواية

د. يوسف عز الدين عيسى

رواية الكاتب الأخيرة
التي لم تنشر من قبل

الدار المصرية اللبنانية

عواصف

رواية

عيسى، يوسف عز الدين.
عواصف: رواية / يوسف عز الدين عيسى .- ط1.
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
480 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 914 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 11109 /2014

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: ربيع أول 1436 هـ - يناير 2015م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

عواصف

رواية

د. يوسف عز الدين عيسى

رواية الكاتب الأخيرة
التي لم تنشر من قبل

الدار المصرية اللبنانية

«إن أقسى العواصف هي تلك
التي تجيش في النفوس».

د.يوسف عز الدين عيسى

تقديم

رحلة في عالم د. يوسف عز الدين عيسى

بقلم: سناء صليحة

عندما خرج السيد أحمد عبد الجواد من بين دفتي ثلاثية نجيب محفوظ ليجسد عمالقة التمثيل شخصيته في السينما والتليفزيون والمسرح ويراه الناس بشحمه ولحمه ويسمعون ويستوعبون في لحظة ما استغرق من الكاتب صفحات لوصفه، دلف إلى عالم مختلف أكاد أجزم أنه لم يطرأ على خاطر مبدعه - نجيب محفوظ - الذي عانى الأمرَّين لنشر روايته الأطول، التي أصبحت الأشهر بعد تقسيمها لثلاثية (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية). فبعد تحويل ثلاثية أديب نوبل لدراما مرئية ومسموعة، نال السيد أحمد عبد الجواد شهرة وشعبية بين العامة والخاصة في مصر والعالم العربي وتحوَّل في نظر كثيرين لأصل ينتسب إليه مبدعه. والحقيقة أن هذه الشهرة لم تكن من نصيب السيد أحمد عبد الجواد وحده؛ إذ شاركه فيها كل شخصيات الثلاثية التي أفرد لها كُتاب السيناريو

مساحات كافية، سواء على الشاشة أو على المسرح أو عبر الأثير، فأصبحت الست أمينة وياسين وكمال عبد الجواد وزوبة العالمة بمثابة كارت تعارف نجيب محفوظ مع فئات مختلفة في المجتمع كان من المستحيل أن تدلف لعالم محفوظ أو تتعرف على شخصياته بحكم الأمية أو لأن القراءة لا تشغل حيزًا في حياتهم.

ومع توالي خروج الشخصيات من بين أغلفة الكتب عبر الدراما المرئية والمسموعة وتعرُّف الجماهير على آمنة «دعاء الكروان» لطه حسين ونفيسة «بداية ونهاية» لنجيب محفوظ و«مادي» نظارة إحسان عبد القدوس السوداء و«سناء» العيب ليوسف إدريس و«عائلة الدوغري» لنعمان عاشور و«الزيني بركات» لجمال الغيطاني و... و... أصبح حلم كل كاتب ومقياس نجاحه هو تجسيد سطور مؤلفاته عبر الفن السابع أو الإذاعة والتليفزيون ليضمن حياة جديدة وشعبية أكبر لشخصياته بين قطاعات مختلفة من الجمهور. أما كاتبنا الذي تشي سطور سيرته الذاتية بولع شديد بالسباحة عكس التيار واختيار الصعب وغير المألوف، كقراره بالانتقال من جامعة القاهرة العريقة للعمل بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية بمجرد افتتاحها في أوائل أربعينيات القرن الماضي، فقد بدأ حياته الأدبية من حيث انتهى أقرانه بعد ما يقرب من نصف قرن، فاختار كتابة الدراما الإذاعية، التي وإن لم تحتل نفس الحيز المادي في منافذ بيع الكتب، الذي شغلته مؤلفات أبناء جيله والأجيال التالية، حققت له

شـهرة ولأعماله انتشـارًا أكبر بين عموم المصريين وربما في العالم العربي.

ورغـم أن تحويل الأعمال الأدبية لدراما مرئية أو مسـموعة بات مقياسًا للنجاح في الوسط الأدبي وعلى مستوى الجمهور، فإنه طرح أكثر من قضية أدبية لم يُحسم معظمها حتى اللحظة، من بينها: قدرة الوسائط الفنية على تجسيد العمل الروائي دون إخلال بمضمونه أو تسطيح لشـخصياته. وأزعم أن د. يوسـف عز الدين عيسى استطاع أن يحقق هذه المعادلة رغم ملامح الأسى التي ارتسمت على وجهه في ظهيرة لن أنساها ما حييت..

في تلـك الظهيـرة، خلت غرفـة بمكتـب الأهرام بالإسـكندرية مـن الزمـلاء الذين خرجـوا لمتابعة الأحـداث الجاريـة في عروس البحـر، والتـي أعفانـي تخصصـي فـي الشـأن الثقافـي وتحقيقات التـراث الحضـاري مـن اللهـاث وراء خبر لا بـد من إرسـاله يوميًا للقاهـرة قبل دوران مطبعـة صحيفة الأهرام. لم أشـعر بدخوله إلى الحجـرة التي اعتاد زوار الصحيفة المرور عليها أيًا كان الغرض من الزيارة أو قبل لقائهم مدير المكتب الأسـتاذ سـامي رياض أو نائبته الأستاذة فايقة عبده - رحمها الله. لم يكن لصحفية في بداية حياتها المهنيـة أن تهـدر فرصـة الجلوس فـي حضرة واحد مـن أكبر وأهم القامات الأدبية في الثغر وإجراء حوار صحفي معه، أظنه من أجمل

وأصدق الحوارات التي أجريتها في حياتي. يومها أفضى د. يوسف عـز الديـن إلـيَّ أنا، الأَمَـة الفقيـرة، بشـعور يؤرقه بأن يكـون كل ما سـطره مـن أعمال ضاعت في الهـواء!! ثم اسـتطرد قائلًا إنه بدأ في جمـع أعماله الدراميـة لطباعتها في كتب؛ لأنه يشـعر أن كل ما كتبه من أعمال درامية مسـموعة ومرئية تبخَّر فـي الهواء ولن يذكره أحد بعـد رحيـل جمهور العـرض الأول اليتيـم وتعذر تكـرار إذاعة هذه الأعمال..

مرت سـنوات ولم أنسَ مـرارة مبررة غلفت كلمات د. يوسـف عـز الديـن عيسـى، خاصـة فـي ظـل تـردي أحـوال مكتبـة الإذاعة والتليفزيون وما تناثر من أنباء حول سـوء حفظ الشـرائط المُسـجلة ومسـح بعضهـا وتسـريب البعـض الآخر خـارج البلاد بطـرق غير مشـروعة، إلى أن أهداني د. عيسى مجلدًا مطبوعًا جمع فيه روايات «العسل المر» و«التمثال» و«عين الصقر».

ورغم أن بعض مشاهد وشخصيات مسلسل «العسل المر» ظلت عالقـة بذهنـي منذ الطفولة وأننـي كنت أدرك بصـورة مبهمة الفكرة الأساسية للمسلسل الذي أذكر أن أفراد العائلة كانوا يتحلقون حول شاشة التليفزيون الأبيض والأسود لمشاهدته، فإنني أظن أن الرواية المطبوعة كشـفت أبعادًا لعلِّي لم أسـتوعبها فـي طفولتي أو ربما لم تبرزهـا الدراما المرئية والمسـموعة رغم أنها بقلم الكاتب نفسـه.. فالسطور المطبوعة قدمت أكثر من مستوى للعمل، سواء من خلال

الإبحار في أعماق نفوس كل شخصيات العمل أو من خلال البناء والأسلوب، فخرجت به من نطاق حدوتة الأميرة النائمة أو أم الضفائر التي تفصلها عن الأمير الأهوال وجدران القصر العالي الذي أقامه الساحر الشرير - الذي تحول في «العسل المر» إلى أم تريد أن تحصِّن ابنتها ضد شرور الدنيا التي اختزلتها في صورة الرجل!! - لآفاق نفسية واجتماعية أرحب تستحق التأمل.

فإذا كان العملان الإذاعي والتليفزيوني قد جعلا من الابنة سوسن البطلة والمحور الأساسي في العمل، فإن الرواية المطبوعة بتركيباتها اللغوية ذات الدلالة العامة والمجازية وتكامل مفرداتها وتوظيف الشعر والحوار والمونولوج الداخلي والوصف والحلم والرمز، جعلت من الأم البطلة الحقيقية للعمل والمحرك الأساسي للأحداث.

فالساحر الشرير في الأساطير تحوَّل في «العسل المر» إلى أم لم تستطِع التخلص من عُقد طفولتها أو تسمو فوق مشاعر الغضب وإحباطات الحياة وشرور العالم التي اعتبرت أن مصدرها الوحيد الرجل، فحاولت أن تخلق لنفسها ولابنتها عالمًا مثاليًّا تحوطه الأسوار، متصورة بذلك أنها قادرة على تغيير مسار الطبيعية البشرية وأن تكبح جماحها. ورغم كل الأسوار والاحتياطات والأزمات النفسية، لا تنجو الأم شخصيًّا من الحب ولا تستطيع أن تخنق نداءه في نفس الابنة.

على مستوى آخر، كشفت الأوراق المقروءة عن تحوُّل حب الأم إلى نوع من الرغبة في التملك والقسوة على الابنة، لتأتي النهاية الحتمية فيتهاوى كل شيء وتتوقف نبضات قلب الأم عندما تكتشف أنها لم تستطِع أن تمنح الابنة السعادة المصفَّاة وأن عطاءها كان مجرد عسل مر.

في نفس المجلد، ومن بين سطور رواية «التمثال»، تطالعنا تيمة الولع بالمجهول وأسئلة فلسفية من قبيل حقيقة السعادة وجدوى الحياة وعدم إدراك الإنسان لقيمة ما يملكه وتطلعه لما بحوزة الآخرين ومشاعر الغيرة التي تدمر حياة الإنسان وتحوله لمجرد حطام.

وفي روايته القصيرة «عين الصقر»، يقدم د. يوسف عز الدين عيسى تركيبة ثرية يمتزج فيها الخيال بالواقع ليجسِّد الصدام بين القيم النبيلة التي نغرسها في نفوس الصغار ولحظة مواجهة عالم تحكمه قوى العدوان والمصالح وقانون المنفعة، ويكشف بأريحية شديدة ما يحدث في لحظة الاختيار وسقوط من يتشدقون بالقيم..

واليوم.. تتيح لي الصديقة الرقيقة الأستاذة فاتن، الابنة البارة للدكتور يوسف عز الدين عيسى، فرصة الإبحار في سطور مخطوط رواية «عواصف»، التي قدمها التليفزيون المصري في السنوات الأولى من ستينيات القرن الماضي (بعد أن كانت مسلسلًا إذاعيًا).

ورغم أن كثيرًا من مشاهد هذا المسلسل الذي شاهدت إعادة لبعض حلقاته كانت تتراءى لي أثناء قراءة هذا المخطوط، فإنني أعترف أن السطور المطبوعة وشت وصرَّحت بأكثر مما استطاع عمالقة الأداء: حسين رياض وليلى طاهر ويوسف شعبان ووداد حمدي ورشوان توفيق، وسهير البابلي التي قامت بدور الابنة المريضة نفسيًّا. فالمخطوط الذي بين يدي يقدم قراءة وتحليلًا لخبايا النفس البشرية بقوتها وضعفها، بتطلعها للسمو ودناياها، دون الوقوع في فخ تسطيح الشخصيات أو إدانتها أخلاقيًّا. فكل شخصية في هذا العمل تحمل على كتفها أثقال ماضٍ وأزمات نفسية، لتصبح المجرم والضحية في آنٍ واحد. الشخصيتان الوحيدتان اللتان يمكن أن تستثنيا من هذا التعميم هما شخصيتا الطبيب النفسي ومدرس الموسيقى، اللذين - وياللعجب - رغم ثانوية دوريهما وظهورهما القليل في سيناريو الدراما المرئية، كان حضورهما ظاهرًا ومؤثرًا في تنامي الحدث وحدوث الانفراجة وحل اللغز وشفاء سهير، الذي واكبه اكتشاف شقيقتها للخديعة التي عاشتها ووقوفها في نفس المكان الذي كانت تقف فيه شقيقتها في بداية الرواية. ولعل تكرار هذا المشهد وتبادل الشقيقتين لموقعيهما يشيان برؤية الكاتب وإدراكه أن كثيرًا من المواقف والسلوكيات المؤثرة في حياة البشر مرهونة بعوامل ومؤثرات البيئة المحيطة بهم، وأن النفس البشرية تحمل - كما جاء في القرآن الكريم - فجورها وتقواها.

فالقارئ يدرك، عبر سطور الرواية، مدى ضعف النفس البشرية وإن تسربلت بأردية السلطة والجاه والمال أو الشر؛ فالمحامي الشهير، الذي كان السبب في معاناة بنته الصغيرة، كانت سلوكياته وقسوته مجرد قناع يخفي وراءه إحساسًا بالذنب وحنينًا لزوجة فقدها بأنانيته. وفيما تكشف سطور الرواية عن الجانب المظلم في شخصية الأخ الشرير منصور وأسبابه، وتوضح من خلال مونولوجه الداخلي وحواره مع مساعديه أن من نطلق عليهم وصف أشرار قد يشعرون في لحظات بوميض من ضمير، يوضح النص من خلال شخصية فاتن أن حتى أولئك الذين لا يمكن نعتهم بالشر، يمكن في ظروف معينة أو تحت ضغوط ما أن يمارسوا سلوكيات غير سويَّة أو يقولوا كلمات أشد فتكًا من طلقات الرصاص. وعبر سطور الرواية تتبلور رؤية الكاتب المستمدة من حس ديني وقراءات في علم النفس والاجتماع وتأملات فلسفية، خلص فيها إلى أن النفس البشرية إن هي إلا مزيج من الخير والشر.

ورغم أن قارئ رواية «عواصف» قد يتصور بعد قراءة الصفحات الأولى أنه إزاء رواية بوليسية مثيرة، فإنه مع تتابع فصول العمل سيدرك أنه أمام عمل يمثل حالة، سواء من حيث رسم وتحليل أعماق الشخصيات أو التشخيص العلمي لبعض الأمراض النفسية وطرق العلاج أو الطرح غير المباشر للأساليب التربوية، إضافة

لرسـمه صورة لملامح المجتمع السـكندري وطبيعته الجغرافية في خمسينيات القرن الماضي.

والحقيقـة أن المخطوط الذي بين يدي والمجلد الذي سـبق أن أشـرت إليه في السـطور السـابقة وإن أكدا تميز د. يوسف عز الدين عيسـى ككاتب درامـي وتمكُّنه من أدواته وتقنيـات الدراما الإذاعية والمرئيـة وقدرتـه علـى الاسـتحواذ علـى جمهـوره ليتابع بشـغف - يوميًّا على مدار شهر كامل - إبداعًا دراميًّا ينقله لأجواء غير مألوفة ويدفعـه للتفكير بصورة مختلفة فيما قد يمر أمامه واعتاد ألا يتوقف أمامه، فإن النصوص المطبوعة التي باتت متاحة أمامنا اليوم تكشف المزيد عن عالم د. يوسـف عز الدين عيسـى؛ فالنصـوص التي بين يدي تؤكد أننا أمام كاتب ثقافته موسـوعية، قدَّم نسيجًا رقيقًا خيوطه مـن خيال مبـدع ودقة ومعرفـة رجل علـم ورؤية فيلسـوف. الأكثر مـن ذلك أنه ينقل فـي قوالب غير تقليدية أعقـد الأفكار والنظريات العلميـة لعموم الجمهور أيًّا كان مسـتواه الثقافي، ليتجاوز في وقت مبكر معضلة انفصال النخب والعلماء والفلاسـفة عن رجل الشارع العادي ويحقق مفهوم ديمقراطية الثقافة وشيوع المعرفة.

وبإطلالة سـريعة على مُجمل أعمال د. يوسـف عز الدين عيسى نكتشـف أنهـا - وإن تنوعت موضوعاتها - تعكـس أزمات الضمير والأسـئلة المحيـرة فـي عالـم ملتبـس، فكانت ومـا تزال تجسـيدًا

لـروح العصر واستشـرافًا لما قـد يأتي به الغد.. ولعـل هذه الجزئية الأخيرة تحديدًا هي التي منحت أعمال د. يوسـف عز الدين عيسـى حياة متجددة لتبدو وكأنها كُتبت للتو، وليس في خمسـينيات القرن العشـرين. ولعلّـي لا أبالـغ إذا تصـورت أن هـذه الأعمـال سـتظل تحتـل موقعًا مميـزًا في تاريخنـا الأدبي وتجتذب أجيـالًا قادمة من المشـاهدين والقُـرَّاء؛ لأنها وإن عكسـت ثراء نفـس الكاتب وعمق تجربته الإنسانية، ما تزال تبوح بالمسكوت عنه وتُبحر بنا في عوالم غامضـة ومثيرة بأسـلوب أدبي راقٍ يلمس القلـب ويُحرر العقل من أسر الجمود..

سناء صليحة

المعادي – 28 يوليو 2014

1

بدت الطبيعة في ذروة غضبها وقسوتها.. المطر ينهمر بلا توقف، والرياح تقتلع الأشجار بلا رحمة، يختلط زئيرها بهدير الرعد وكأن شيطانًا مجنونًا يعزف سيمفونية الرعب، والبرق يلمع في السماء فيضيء الأرض في ومضات تكشف ملامح الفيلا القائمة في هذا المكان شبه المنعزل، ثم يبتلعها الظلام باختفاء البرق فلا يُرى منها سوى بعض نوافذ ينبعث منها ضوء خافت مصْفرّ.

خلف إحدى تلك النوافذ المضيئة كانت سهير - ابنة الثمانية والعشرين ربيعًا - موغلةً في عالمها الخاص لا تكاد تشعر بما حولها، تدق على البيانو ألحانًا حزينة وكأنها موسيقى تصويرية تصاحب تراجيديا العاصفة. كان القلق الذي يعربد في أعماقها شديد الوطأة؛ فلم تستطِع الجلوس طويلًا أمام البيانو فتركته مفتوحًا ووقفت تتأمل وجهها أمام مرآة تشغل من الجدار مساحة كبيرة، فلم تشعر عندما فتحت أختها فاتن - التي تكبرها بعام - باب الغرفة وتسللت نحوها إلا عندما وقفت خلفها.. جعلتها المفاجأة تنتفض فزعًا، فقالت بنبرة غضب:

- ستين مرة أطلب منك ألا تقفي جنبي عندما أكون أمام المرآة، عندما أرى صورتك بجوار صورتي يُخيَّل إلـيَّ أنني قردة.. لا أحد يصدِّق أننا أختان.

- ومن قال إنك لست جميلة؟

- أبي.

- بابا لا يمكن أن يقول ذلك لأنك جميلة.. لا تكوني سخيفة! أنتِ تعلمين أن بابا يحب الضحك.

- يضحك معك أنتِ، بابا لا يضحك معي أبدًا.

ابتسمت فاتن وقالت بلطف:

- وهل هذا معقول؟

- لماذا إذًا وصفني بأنني قردة ويسميك أنت «القمورة»؟

قالت فاتن بدهشة:

- متى قال ذلك؟

- صباح اليوم، وهو يستعد للسفر، ألم يسأل عني قائلًا: «أين القردة الثانية؟»؟! كنت واقفة دون أن يدري وسمعت هذا.

ضحكت فاتن وقالت:

- لم يقل «القردة» بل «الفردة»، كان يبحث عن فردة «الجونتي»؛ أرأيتِ كيف تسمعين الكلمات مشوَّهة؟!

أطرقـت سـهير إلى الأرض ثم رفعت رأسـها ونظـرت إلى فاتن بعينين مبتلَّتين وقالت:

- بابا يكرهني، لست أدري لماذا.

قالت فاتن بدهشة:

- بابا يكرهك؟! هذا مستحيل، هل يوجد أب يكره ابنته؟

قالت سهير وهي تجفف دموعها:

- سـمعت أننـي عندما وُلدتُ أرسـلني إلى بعـض أقاربه ليتولَّوا أمر تربيتي، وظل سنةً كاملةً لا يريد رؤية وجهي، وبذلوا جهدًا كبيرًا حتى أقنعوه بقبول عودتي إلى البيت.. ليتني ما وُلدت.

- تأكدي يا سـهير أن بابا يحبك، كل ما في الأمر أنه كان شـديد الحب للمرحومة ماما؛ كان يحبها حبًّا أسطوريًّا.

قالت سهير ناظرةً إلى الأرض وكأنها تكلم نفسها:

- ما ذنبي أنا؟ هل أنا التي جعلْتُ ماما تموت بسبب ولادتي؟

- اطردي هذه الأفكار من ذهنك يا سهير؛ فكلّها مبنيَّة على أشياء وهميـة، كسـماعك كلمـة «قردة» بدلًا مـن «فـردة»، ولا يدعو ذلك لإضرابك عن الطعام.. هيا معي، لن أتعشَّى إلا إذا تَعَشَّيْتِ معي.

دخلت بدرية ووقفت صامتة في الغرفة، فقالت لها فاتن:

- ماذا تريدين يا دادة؟

- طعام العشاء برد وأعدتُ تسخينه.

أمسكت فاتن أختَها من ذراعها برفق قائلة:

- هيا نتعشى يا سهير.

استسلمت سهير لأختها في هذه المرة وهي تسحبها نحو غرفة المائدة وسارت مطرقة إلى الأرض.. جلستا متقابلتين وبدأت فاتن تتناول عشاءها وظلت سهير ساهمة ولم تمد يدها للطعام قائلة:

- لا أشعر برغبة في الأكل.

توقفت فاتن عن الطعام وقالت:

- لو لم تأكلي سأشكوك لبابا، سأعاملك كالأطفال.

قالت سهير وعيناها موجهتان نحو صورة والدتها المعلقة على الجدار:

- بابا لن يهمه أمري، سواء أكلتُ أو مِتُّ جوعًا.

توقفتْ فاتن عن تقشير البيضة التي في يدها وقالت:

- ماذا جرى لك؟ أحوالك لا تعجبني هذه الأيام.

- وهل في تصرفاتي شيء غريب؟

- أشياء كثيرة.

- مثل ماذا؟

- مثـلًا: عندما دخلتُ غرفتَكِ كنتِ تجففين دموعك، وبصراحة لاحظتُ هذا الحزن والضيق منذ خطوبتي.

- علـى العكـس؛ هـذا أمر يسـعدني، ومن الطبيعـي أن يحدث، ألسْتِ أكبرَ منِّي سنًّا؟.. لماذا لم يأتِ اليوم؟

- من هو؟

- خطيبك طبعًا.

- آه، خالـد اتصل بـي تليفونيًّا معتذرًا عن عدم الحضور بسـبب نوبة برد.

قالت سهير باهتمام لم تستطِع إخفاءه:

- هل حرارته مرتفعة؟

- لا، لا توجد حرارة، لكن الدكتور نصحه بالراحة ثلاثة أيام.

- ثلاثة أيام؟

- أجل، لماذا تسألين؟ هل تودين الاستفسار منه عن شيء؟

- لا، لا شيء.

فـي هـذه اللحظة، أضـاءت النافذة فـي ومضةٍ خاطفـة وظهرت الشـجرة الضخمة التي تكاد تلتصق بالجدار، ثم سُمع صوت الرعد

مزمجـرًا فوق البيت مباشـرة، فاهتز له زجاج النوافذ.. قالت سـهير وقد انتابها فزع شديد:

– صـوت الرعـد يرعبني، يذكِّرنـي بالغارات الجويـة.. ألا نِهاية لهذه العاصفة؟

– غدًا تنتهي.

– كلما حدثت عاصفة كهذه يُخيَّل إليَّ أنها لن تنتهي أبدًا.

– لكنها دائمًا تنتهي وتصفو السماء، وكأن لم يحدث شيء.

اشـتدَّ صفير الرياح وقصف الرعد، وبدأت سـهير تخشـى انهيار البيت، لكنها لاذت بالصمت، في حين صاحت بدرية قائلة:

– يا ساتر استر، الهواء سيخلع الشبابيك.

ثم وجَّهت الحديث إلى فاتن وسهير قائلة:

– أتنويان السهر حتى الصباح؟ ألا تنامان؟

قالت سهير:

– نعم، أحسن طريقة تريحنا من الأصوات المزعجة أن ننام.

قالت فاتن:

– هل تأكدتِ من إغلاق جميع النوافذ يا بدرية؟

– أجل يا سيدتي.

قالت فاتن مؤَكِّدة:

- وباب البيت، هل أقفلتِه بالترباس؟

- أجل، سمكرتُه بالترباس، الدبابة لا يمكنها فتحه.

قالت فاتن شاعرةً بالاطمئنان:

- هيا ننام، سأبحث عن كتاب من الكتب التي تجلب قراءتُها النعاسَ، تصبحان على خير.

أخلد للنوم كل من في البيت: سهير وفاتن، كلٌّ في غرفتها بالدور العلوي، وبدرية في غرفتها الملاصقة لغرفتيهما. لم تهدأ العاصفة، بل ازدادت عُتُوًّا، وعندما دقت الساعة المعلَّقة في بهو البيت ثلاث دقات، فوجئت فاتن بسهير منحنية على السرير توقظها وفي صوتها رعشة خوف:

- فاتن، فاتن.. قومي بسرعة!

هبَّت فاتن من نومها مرعوبة وقالت:

- ماذا تريدين يا سهير؟ كم الساعة؟

- الثالثة.

- ما الذي أيقظك الآن؟

- أنا خائفة.

- أمِنَ الرعد؟

- لا، سمعتُ صوتًا روَّعني.

أسـرعت فاتـن بحركـة شـبه انعكاسـية واسـتندت بظهرها على السرير وقد طار نومها وقالت بلهفة:

- ماذا سمعتِ؟

- باب البيت، سمعتُه يُفتح!

- غير معقول، بدرية أقفلته بالترباس.

في هذه اللحظة سمعت سهير وقع أقدام، فقالت بخوف:

- أنصتي.. هل تسمعين؟

قالت فاتن بدهشة:

- أسـمع ماذا؟ أنا لا أسـمع شيئًا، لقد ساد الصمت، حتى الرياح والرعد لم أعد أسمع لهما صوتًا.

قالت سهير بعنف غاضب:

- ماذا جرى لأذنيك؟ ألا تسمعين وقع الأقدام؟ ها هو ذا يصعد السلم!

حاولَتْ فاتن الإنصات بكامل طاقتها فلم تسمع شيئًا، قالت:

- يبدو أن أذنيَّ أغلقهما الزكام، أنا لا أسمع شيئًا.

- لقد أسرع الآن بالهبوط!

- أنا لم أسمع أي شيء، لا صعود ولا هبوط.

فـي هذه اللحظة انبعث من الدور الأرضي صوت شـيء تحطَّم.

قالت فاتن بفزع:

- هذا سمعتُه.. إنه صوتُ تحطُّم شيء!

- هل صدقتِني الآن؟

أسرعت فاتن قائلة وكأنها تنفي تهمة:

- لا، لم أصدقك؛ إذ لم أسـمع مـن جميع ما ذكرتِه من أصوات سوى هذا الصوت.

ثم أردفت قائلة بنبرة حزينة ورجفة خوف:

- أخشى أن تكون الزهرية التي في الصالون هي التي كُسِرت.

قالت سهير شاعرةً ببعض الارتياح لوجود صوت سمعتْه فاتن:

- كل شيء في البيت أصبح مُعَرَّضًا للسرقة والتلف.

قالت فاتن وقد بدأت تشعر بالخوف والحيرة:

- وما العمل؟

- اذهبي وأيقظي بدرية.

- ولماذا لا تذهبين أنت؟

همست فاتن قائلة:

- نذهب معًا، هيَّا.

اتجهتا نحو غرفة بدرية.. قالت سهير:

- ولكن ماذا تستطيع بدرية عَمَلَه؟

تجاهلت فاتن سـؤال سـهير وبدأت توقظ بدرية التي اسـتيقظت منتفضة وصاحت قائلة بفزع:

- نعم يا سيدتي؟

قالت فاتن بصوت خافت لا يكاد يُسمع:

- صه.. اخفضي صوتك، قومي بسرعة. يوجد لص في البيت.

لطمت بدرية خدها قائلة:

- لص؟ ياللمصيبة.. هل «أرقع» بالصوت يا سيدتي؟

نهرتْها فاتن قائلةً في همس:

- إياكِ أن تفتحي فمك.

ثم أردفت قائلة:

- هذه الغرفة لا مفتاح لها، هيَّا معي إلى غرفتي.

ظلت بدرية قابعة في مكانها، فصاحت فاتن بصوت خافت قائلةً لها:

- أما تزالين جالسة؟! قومي، أسرعي.

قالت بدرية في أثناء قيامها:

- صواميل ركبي مفكوكة!

وهُنَّ متجهات نحو غرفة فاتن، همست فاتن قائلة لبدرية:

- ألم تخبريني أنك أقفلت الباب بالترباس؟

قالت بدرية مؤكدة بثقة:

- أجل، قفلته بالترباس.

قالت فاتن بسخرية:

- وكيف فُتح إذًا؟ هل فُتح من تلقاء نفسه؟

قالت بدرية بذهول:

- لست أدري! هل «أرقع» بالصوت وألمّ الجيران؟

قالت سهير متهكمة:

- جيـران؟! وأين هم الجيران؟ أقرب جار لنا على بعد كيلومتر، إياكِ أن تفتحي فمك.

قالت بدرية بذعر شديد:

- ياللمصيبة.. وما العمل؟

قالت فاتن:

- لا نملك إلا أن نظل معًا في الغرفة ونقفلها علينا بالمفتاح.

قالت بدرية:

- ربما لو رأى النور يهرب.. هل أفتح النور؟

همست فاتن قائلة:

- إياكِ أن تفتحي النور، لو فتحنا النور سيرى كل شيء بوضوح، يكفينا ضوء شمعة.. اذهبي يا بدرية وأحضري لنا شمعة.

قالت بدرية بدهشة:

- شمعة؟! وهل أذهب وحدي؟!

قالت فاتن آمرة:

- اذهبي، لا وقت للميوعة.

قالت بدرية باستنكار:

- وهـل في هـذا ميوعة؟ أروح وأمري لله، ولكن من أين أحضر الشمعة؟

قالت فاتن بعد لحظة تفكير:

- انتظري، عندي شمع هنا في الصوان، شمع عيد ميلادي.

أحضرَتْ فاتن عدة شمعات أعطتها لبدرية، قالت سهير:

- والكبريت، من أين نحضره الآن؟

قالت بدرية لسهير:

- الكبريت تحت في المطبخ، اخطفي رجْلك يا سيدتي وأحضري علبة.

قالت سهير وقد استبدَّ بها الخوف:

- وهل أنا التي أحضر لكِ الكبريت؟

صاحت فاتن آمرة بحسْم وقد نفد صبرها:

- اذهبي يا بدرية أحضري علبة الكبريت.

همست بدرية بتصميم لا رجعة فيه محركة إصبعها السبابة حركة كبندول الساعة:

- لن أذهب وحدي أبدًا ولو قطعتما رقبتي.

ثم أردفت قائلة:

- تذكرتُ الآن شيئًا، توجد علبة كبريت هنا، في الحمام. هيا معي نحضرها بسرعة.

لكنها استدركت قائلة:

- وماذا نفعل بعد توليع الشمعة؟

قالت فاتن:

- نـرى مـا إذا كان الباب مفتوحًا أم مغلقًا، ونعرف الأشـياء التي كُسرت، ثم نصعد معًا بسرعة.

قالت سهير:

- ألن يرى اللص ضوء الشمعة؟

قالت بدرية:

- من يدري؟ قد يخاف من ضوء الشمعة.

قالت فاتن وكأنها تقود لواءً في ميدان القتال:

- هيا ننزل معًا باحتراس.

بدأن الهبوط خطوةً خطوة بمنتهى الحذر، وفاتن تمسك الشمعة بيد، واليد الأخرى تمسـك يد سـهير، وسـهير تمسك باليد الأخرى يد بدرية، وبغتةً التوَت رجل بدرية وسقطت على السلم وندت منها صرخـة تكاد توقظ الموتى. تحسسـت فاتن مفتـاح النور وضغطت عليه فغمر الضوء المكان. شعر الثلاث براحة اليأس وهنّ جالسات جنبًـا إلـى جنـب على إحدى درجات السـلم فـي انتظار مـا تأتي به الأقدار!

2

لـم يطُل جلوسـهن؛ فلقد انتفضـن واقفات عندمـا صفع آذانهن بغتة صوت الرعد وكأنه انفجار قنبلة رهيبة، فهبطن السـلّم وفوجئن بباب البيت مغلقًا بالترباس. قالت فاتن بلمسة غضب:

- وكيف سمعتِ صرير فتح الباب يا سهير؟!

قالت سهير وقد بدت مضطربة النظرات:

- لست أدري، ولكنني سمعته يُفتح، أنا متأكدة.

- وكيف تفسرين ذلك؟

- لست أدري.

قالت بدرية:

- قد يكونون الأسياد.. بسم الله الرحمن الرحيم.

نهرتها فاتن قائلة:

- هيا نرى نوافذ الصالون.

***

كانت غرفة الصالون شديدة البرودة وشعرن وكأنهن في عين الإعصار. وجدن إحدى النوافذ مفتوحة تصفقها الرياح وقد تحطم زجاجها وغرقت الغرفة من ماء المطر. قالت فاتن شاعرة بحزن شديد:

- ما رأيك يا بدرية؟ ألم تؤكدي لي أنك أغلقتِ جميع الشبابيك؟ اعتمدتُ عليك فلم تكوني أهلًا لثقتي.

أطرقت بدرية إلى الأرض والتزمت الصمت. قالت سهير:

- الكسر الذي سمعنا صوته لا بُدَّ أنه زجاج النافذة عندما تحطَّم.

***

ازداد حزن فاتن عندما لاحظتْ أن صوت الزجاج المكسور لم يكن مصدره الوحيد زجاج النافذة؛ إذ وجدت الزهرية الضخمة ملقاة على الأرض وقد تحطمت. قالت:

- سيحزن أبي ويتألم ألمًا شديدًا لكسر هذه الزهرية؛ فلقد كانت عزيزة عليه إلى أقصى حد.

قالت بدرية شاعرة بخجل شديد:

- ربما تكون الرياح هي التي فتحت الشبابيك.

قالت سهير:

- السـجاجيد وكل كراسـي الصالـون تلفـت، ولا بُـدَّ أن اللص دخل من هذه النافذة.

قالت فاتن:

- لـو أن أحـدًا دخـل مـن هـذه النافذة لوجدنـا آثـار الطين على السجاجيد.

قالت سهير:

- وهل من المعقول أن يدخل اللص بحذائه؟ لا بُدَّ أنه خلعه قبل أن يطأ به أرض الغرفة.

قالت فاتن وهي شاردة الذهن:

- ربما.

ثم نهرت بدرية قائلة:

- أقفلي الشباك، ماذا تنتظرين؟

أغلقـت بدرية النافذة، وطلبت منها فاتن أن تفحص جميع نوافذ الدور الأرضي فوجدتها مغلقة، وعند عودتها قالت:

- التليفـون الـذي علـى مكتب سـيدي بينـك وبينـه خطوتان يا سيدتي فاتن، لماذا لا تكلمين سيدي خالد ليحضر؟

قالت فاتن:

- فكرة لا بأس بها.

اتجه الثلاث إلى غرفة مكتب الأب ورفعت فاتن سماعة التليفون، ولكنها أعادتها إلى مكانها قائلة:

- التليفون جثة هامدة بلا حرارة.

قالت بدرية:

- على أية حال، لقد فتشنا البيت وليس من المعقول أن يظل اللص هنا حتى الآن، فلنصعد لننام.

قالت فاتن وهي تتثاءب:

- كم الساعة الآن يا ترى؟

قالت سهير ناظرة إلى الساعة المعلقة في البهو:

- أربعة إلا عشرًا.

قالت فاتن:

- هيا بنا، أنا كابس عليَّ النوم.

بحواس مرهفة وحذر شديد بدأن الصعود وذهب الثلاث إلى غرفة فاتن وأقفلن بابها بالمفتاح. صعدت سهير على السرير جنب فاتن وتكورت بدرية في ركن الغرفة وأغمض الجميع عيونهن

استعدادًا للنوم، وبعد فترة وجيزة استغرقت فاتن وبدرية في نوم عميق، أما سهير فلقد استعصى عليها النوم وطال انتظارها له بلا جدوى.

كانت العاصفة قد هدأت قليلًا وتلاشى صفير الرياح، ولكن صوتًا رنَّ في أذن سهير؛ صوتًا كان من المفروض أن يمتِّعها؛ فهي أنغام موسيقية أحبتها عندما سمعتها فيما مضى عندما كانت صبية، ولكنها في هذه المرة أثارت رعبها لأنها منبعثة من البيانو بغرفة الصالون. ارتعدت خوفًا وهمست قائلة بصوت مرتجف:

- اللص ما زال في البيت!

انتفضت بدرية وجلست مرهفة السمع وقالت:

- قلبي حاسس أن هذه الليلة لن تمر على خير.

قالت سهير ونظراتها تمسح المكان غير مستقرة على شيء معين:

- سمعته يعزف على البيانو، هنا في البيت.

قالت فاتن بدهشة:

- يعزف على البيانو؟ وهل من المعقول أن يدخل لص منزلًا ويأخذ راحته بهذا الشكل فيعزف على البيانو؟!

قالت سهير وكأنها قد أصبحت خارج الزمان والمكان، وبدت نظراتها وكأنها تتجاوز حدود الغرفة:

– كان يعزف قطعة موسيقية كنت أحبها، حاولت عزفها أمس فلم أستطع.

قالت فاتن:

– شيء غريب.

قالت بدرية:

– ترى كم الساعة الآن؟

نظرت سهير إلى ساعتها وقالت:

– خمسة إلا ربعًا. المهم، ما العمل الآن؟

قالت بدرية:

– لا شيء، نظل كما نحن هنا وباب الغرفة مغلق.

بغتة انفجرت سهير باكية بكاءً عنيفا وكأنه بخار كان مكتومًا وخرج من فتحة ضيقة. انزعجت بدرية وأسرعت فاتن باحتضانها وأخذت تربت على ظهرها في محاولة لتهدئتها قائلة:

– ما بكِ؟ ما بكِ يا سهير؟

قالت سهير من خلال بكائها:

- لست أدري، أشعر بضيق.

- لا تخافي، النهار طلع.

قالت سهير ودموعها ما زالت منهمرة:

- لست خائفة.

قالت فاتن وهي تملِّس بيدها على شعر أختها:

- فلماذا تبكين؟

- لست أدري!

في هذه اللحظة انطفأ النور دون أن يطفئه أحد من الثلاث، فازداد شعور سهير بالضيق.. قالت بدرية:

- يبدو أن اللص رفع الكُبس الكبير من لوحة الأكباس، لا بُدَّ أنه ناوٍ لنا على نية.. استر يا رب..

نهرتها فاتن، التي خشيت من ازدياد رعب سهير، قائلة:

- كفى ثرثرة.

- أنا خائفة يا سيدتي.

- ألا تستطيعين الخوف من دون كلام؟ افتحي الشباك؛ فلقد توقف المطر.

قالت بدرية:

- أبوس رجلك يا سيدتي، لا نفتح الشباك.

قالت فاتن:

- افتحي الشيش وأقفلي الزجاج، لنرى الدنيا.

أطاعت بدرية سيدتها فاتن، وبدت بشائر ضوء النهار حاملة بعض الطمأنينة إلى النفوس القلقة الخائفة، كما اتضحت معالم حديقة المنزل والسحب المتناثرة في السماء الزرقاء. قالت فاتن:

- لقد هدأت العاصفة، تعالي يا سهير لتري هذا.

نظرت فاتن لسهير وذُعرت عندما رأتها قد بدأت تتنفس بصعوبة، فاحتضنتها قائلة:

- ما بكِ يا سهير؟

قالت سهير بصوت متقطع:

- نفسي مكتوم، لا أستطيع التنفس.

- لا تخافي، لن يستطيع أحد إيذاءنا.

قالت سهير بصعوبة:

- أشعر بدوار.

أحاطتها فاتن بذراعها ووضعت رأسها على كتفها وقالت لبدرية:

- أسرعي يا دادة بإحضار كوب ماء.

قالت بدرية دون أن تبرح مكانها.

- أخشى عليكما من اللص الذي ما زال في البيت، أنا لا أستطيع ترككما وحدكما.

- أخائفة علينا أم على نفسك؟

- لست أدري على من، ولكنني خائفة.

صاحت فاتن قائلة برعب شديد:

- ماذا نفعل؟ سهير مغمى عليها!

أراحت فاتن رأس سهير على المخدة وقفزت من السرير وأحضرت قارورة عطر أخذت تشممها لها وتربت على خديها حتى بدأت تفيق، وطلبت منها أن تظل مستريحة على السرير في الوضع الأفقي، ولكن سهير جلست مستندة برأسها على ظهر السرير قائلة:

- أشعر برغبة في البكاء.

قالت بدرية:

- خذي راحتك في البكاء كما تريدين، يا رب تفوّتها على خير، أفرجها يا رب.

انتابت سهير نوبة بكاء، فتركتها فاتن تفرغ كل ما كان في أعماقها، ولما هدأت أبدت رغبتها في النوم، وما لبثت أن غاصت في نوم عميق.

***

عندما دقت الساعة ثماني دقات كانت بدرية قد انتهت من تمشيط البيت فلم تعثر على أي أثر لإنسان غريب دخل البيت ولم تلاحظ فاتن أي مسروقات. دق جرس الباب فقالت فاتن:

- ها هو ذا النور قد عاد.

قالت بدرية:

- هل أفتح الباب يا سيدتي؟

- افتحي، فهذا موعد موزّع اللبن.

أخذت بدرية زجاجة اللبن واتجهت نحو المطبخ. قالت فاتن:

- كنت أظن أن اللص هو الذي قطع النور.

ذهبت فاتن إلى غرفة مكتب والدها ورفعت سماعة التليفون فسمعت الأزيز، ثم وضعت السماعة قائلة:

- وها هو ذا التليفون دبَّت فيه الروح. كنا نظن أن اللص قطع السلك.

تمتمت بدرية قائلة:

- عجائب، وهل أصلحوه بهذه السرعة؟

- أجل؛ لأن «الكابل» المتصل بتليفوننا هو نفسه المتصل بتليفون المحافظ.

ثم أردفت قائلة لبدرية:

- لا تنسي تنظيف غرفة الصالون وإزالة الزجاج المكسور: زجاج الشباك وزجاج الزهرية.

- حاضر يا سيدتي. ولكن من الذي قطع النور وأخرس التليفون؟

- العاصفة.

- ومن الذي سمعته سيدتي سهير يدق على البيانو ويصعد السلم؟ هل هي العاصفة أيضًا؟ شيء يحير المخ.

تجاهلت فاتن تساؤل بدرية وقالت:

- أما زالت سهير نائمة؟

- أجل يا سيدتي، اتركيها تسترِح، النوم صحة، هل سيعود سيدي من السفر اليوم؟

- لا، سيعود غدًا إن شاء الله.

قالت بدرية بفزع:

- هل سنبيت وحدنا الليلة أيضًا؟

- أجل.

شعرت بدرية بخوف فقالت:

- قلبي حاسس أنني سأزور أختي في كفر الدوار وأبيت عندها الليلة.

- كذا يا بدرية؟ أتهربين منا وتتركيننا وحدنا؟

في هذه اللحظة انبعث صوت عزف سهير على البيانو، فقالت فاتن لبدرية:

- هل أعددتِ الفطور؟

- جاهز على المائدة.

***

في أثناء طعام الإفطار سألت سهير أختها:

- هل اكتشفتما سرقة شيء؟

- كل شيء في مكانه، ولم يُكسر سوى الزهرية وزجاج النافذة.

ثم أردفت قائلة:

- بابا سيحزن حزنًا شديدًا لكسر الزهرية؛ فهي عزيزة عليه؛ لأن المرحومة ماما هي التي اشترتها وأهدتها له في أول عيد ميلاد تشهده معه.

- ما زلتُ تَعِبة، سأذهب وأحاول النوم ولا توقظاني قبل الغداء.

* * *

دخلت سهير غرفتها وأغلقت بابها، وأحضرت فاتن كتابًا وجلست في البهو تقرأ، وانتهت بدرية من غسل الأطباق وصعدت لترتيب غرفة فاتن ثم ذهبت إلى غرفتها وتربعت في أحد أركانها وانشغلت بالتفكير في أحداث الليلة الماضية والخوف من أحداث الليلة المقبلة.

في نحو الثانية عشرة ظهرًا، دقَّ جرس الباب فقامت فاتن وفتحته وفوجئت بوجود خطيبها خالد، فقالت بحرارة:

- أهلًا خالد، تفضل.

دخل خالد قائلًا:

- كيف حالك؟

- الحمد لله.

لم يلاحظ الزجاج المكسور، كما لم يهتم بعدم وجود الزهرية، بادرته فاتن قائلة:

- لم نذُق طعم النوم ليلة أمس.

قال خالد بدهشة وقلق:

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- زارنا لص!

شحب وجه خالد وقال وفي صوته رعشة:

- لص؟! كيف؟

- فلتتصوّر الرعب الذي انتابنا وبابا مسافر ونحن وحدنا في البيت.

- ولماذا لم تتصلن بي بالتليفون؟

- لم تكن به حرارة.

- شيء غريب.

- الأغرب من ذلك أنه لم يسرق أي شيء.

قال بلهفة:

- هل رأيتنَّ اللص؟

- لا، لم نرَه، ولكننا كنا في منتهى الشجاعة!

ظـل خالد مطرقًـا إلى الأرض شـاحب الوجه حزيـن الملامح. قالت فاتن بدهشة:

- مـا بك يا خالد؟ لماذا كل هـذا الحزن؟ ها نحن لـم نصَب بأيٍّ سوء.

حاول خالد الابتسام ولكن ابتسامته بدت عابسة، قال:

- ألديكِ مانع من الخروج معًا بعض الوقت؟

- لا مانع، ولكن أين نذهب؟

- نذهب إلى جزيرة الشـاي، ونتغدى في أحـد المطاعم، وليت سهير تأتي معنا.

- سـهير فـي منتهـى التعب، صحت مـن النوم تناولـت فطورها واستأنفت النوم.

- أشعر بعطف شديد على هذه الإنسانة.

التفتت فاتن نحو خالد قائلة:

- لماذا؟

- يُخيَّل إليَّ أنها تحمل حزنًا ثقيلًا.

- لست أدري ما بها، إنها تفضّل الجلوس وحدها.

- لذا كنت أود أن تخرج معنا اليوم.

- ما رأيك لو تناولت غداءك عندنا ثم نخرج معًا نحن الثلاثة؟

- لا مانع لديَّ.

* * *

في أثناء تناول الطعام، قال خالد:

- وما حكاية اللص الذي أزعجكن ليلة أمس يا سهير؟ هل رأيتِهِ؟

- لم أرَه، ولكنه سهّرنا طوال الليل.

- فاتن تقول إنك سمعتِهِ يعزف على البيانو.

قالت سهير:

- أجل، شيء غريب. سمعته يعزف الموسيقى نفسها التي حاولت عزفها ظهر أمس.

نظر إليها خالد بدهشة وقال:

- هذا أعجب ما سمعته في حياتي، وما دام لم يسرق شيئًا فلماذا دخل البيت؟ أليعزف على البيانو؟!

قالت سهير:

- هذا ما يدهشني.

قال خالد:

- وكيف دخل البيت؟

قالت فاتن:

- عثرنا على نافذة مفتوحة، يبدو أنه دخل منها.

- ولكنك تقولين يا فاتن إن سهير سمعت باب البيت يُفتح.

قالت سهير:

- أجل، سمعت الباب يفتح، أنا متأكدة من ذلك، ربما يكون قد دخل من النافذة ثم فتح الباب عند خروجه وأعاد إغلاقه.

انتهت سهير من تناول الغداء فقامت مستأذنة في الصعود إلى غرفتها، ثم انتقل خالد وفاتن إلى غرفة الصالون ودار الحديث بينهما معظم الوقت عن عاصفة الأمس واعتدال الجو اليوم وعن تفاصيل ما حدث في ساعات الرعب، غير شاعرين بمرور الوقت ولم ينتبها لدقات الساعة إلا عندما دقت أربع دقات، فقال خالد:

- هيا بنا، هل ستأتي سهير معنا؟

وقفت فاتن عند سفح السلم المؤدي إلى الدور العلوي ونادت سهير وسألتها فاعتذرت عن عدم الذهاب معهما، مفضلة البقاء

مع بدرية. بعد خروجهما عادت سـهير إلى غرفتها فأسـرعت بدرية بالدخـول معها حتى لا تتركها وحدها. تمددت سـهير على السـرير ووقفت بدرية بالقرب منها وقالت:

- لماذا لم تخرجي معهما يا سيدتي؟

- لا أحـب أن أصحـب من لا يسـعد بصحبتي، وعلـى أيَّة حال تسعدني الوحدة.

- ومن أدراكِ أنهما لا يسعدان بصحبتك؟

- خطيب وخطيبته يخرجان للنزهة، ماذا يحشرني بينهما؟

لتغيير مجرى الحديث قالت بدرية:

- سأذهب أعمل لك فنجان ينسون، أنا عارفة أنك تحبينه.

انتفضت سهير وقالت بغضب:

- من هذا الذي أحبه؟

قالت بدرية ببراءة:

- الينسون يا سيدتي.

انطفأ غضب سهير على الفور وقالت بهدوء:

- نعم، أنا أحب الينسون، اعملي لي فنجانًا.

مـا كادت بدرية تهم بالخروج من الغرفة حتى اسـتوقفتها سـهير قائلة:

- اسمعي يا بدرية، سأنزل أعزف على البيانو.

هبطت سهير إلى الدور الأرضي، وبعد عزف جملتين موسيقيتين على البيانو سمعت النغمة التي سبق لها سماعها ليلة أمس وأعجبتها، ولكنهـا في هذه المرّة تُعزف بالفلوت بـدلًا من البيانو، فتوقفت عن العـزف وأخذت تنصت لتلك النغمة بلذة وانتباه فلم تشـعر بدخول بدريـة حاملـة صينيـة عليها فنجـان الينسـون، ورأتها بدرية سـاهمة وكأنها في دنيا غير الدنيا، فقالت:

- تفضلي الينسون يا سيدتي.

ظلت سـهير منصتة إلـى النغمة وكأنها لم تسـمع مـا قالته بدرية حتى انتزعتها من نشوتها عندما قالت:

- فيمَ سرحتِ يا سيدتي؟

قالت سهير التي ما زالت تحت تأثير الموسيقى:

- أسمعتِ تلك الأنغام يا بدرية؟

- التي كنتِ تعزفينها على البيانو؟ حلوة جدًّا يا سيدتي.

- لا أقصد التي عزفتها، بل أقصد نغمة الفلوت، الصفارة. يوجد شـخص بالقرب منّا كان يعزفها الآن. نغمة جميلة جدًّا، كنت أحب سماعها زمان وأنا صغيرة، هل سمعتِها؟

وضعت بدرية فنجان الينسون بالقرب من سهير قائلة:

- أنتِ تعلمين يا سيدتي أن سمعي ضعيف.

قالت سهير بلهفة:

- سأحاول عزفها على البيانو!

أخذت تعزف على البيانو، ولكن النغمة التي عزفتها لم تطابق تمامًا التي سمعتها. وبغتة سمعت النغمة مرة أخرى تعزف على الفلوت في الخارج، فقفزت نحو النافذة محاولةً رؤية عازفها فلم تجد أي مخلوق، فعادت شاعرةً بإحباط شديد. قالت بدرية:

- نسيتُ إحضار السكَّر.

خرجت بدرية لإحضار السكر وإذا بسهير تسمع النغمة مرَّة أخرى.

دخلت بدرية ووضعت السكر في الينسون وأذابته، وفي أثناء ذلك، قالت سهير لبدرية:

- ألم تسمعي تلك الأنغام في هذه المرَّة؟

- لا يا سيدتي، لم أسمع شيئًا.

- انظري يا بدرية من النافذة بسرعة، فربما ترين من يعزفها.

ظلت بدرية تنظر في جميع الزوايا المتاحة ثم قالت:

- لا أحـد يـا سـيدتي، لا يوجد سـوى الولد برهومـة المكوجي يتضاحك مع البنت نفوسـة، ولا أحد سواهما.. بنات يستأهلن قطع رقابهن.

نهضت سـهير وصعـدت إلى غرفتها وذاكرتها تعيد سـماع أنغام الفلوت. تناولت كتابًا واستلقت في سـريرها واستمرت في القراءة فترة من الزمن في انتظار سماع الفلوت، ولكنها لم تسمعها.

ظلـت تحـاول مواصلة القـراءة في الكتـاب الذي معهـا ولكنها لم تسـتطِع التركيز. وضعت الكتاب بجانبها وسـرحت أفكارها في متاهـات موحشـة تتصارع في مسـاربها مشـاعر متباينـة يختلط فيها الحب والكراهية واليأس والأمل والخوف والرغبة والزهد، وعادت تفكر في الأنغام التي سـمعتها اليوم ولم تستطِع رؤية عازفها، ومتى سـمعتها لأول مرة. ثم شـعرت برغبة في النوم، وهو شـيء يندر أن تشـعر به؛ فهي كثيرة الأرق. وضعت رأسـها على الوسادة وما لبثت أن نامت.

* * *

صحـت من نومهـا شـاعرةً بهبـوط وقشـعريرة في فروة رأسـها لا تعرف لهما سببًا. سمعت الساعة تدق ثماني دقات. لا تدري لماذا أثارت دقات الساعة في أعماقها شيئًا من الخوف، فنادت بدرية التي أسرعت بالمجيء، طلبت منها أن تجلس فقرفصت جنبها. سألتها:

- هل عادت فاتن؟

- لا، لم تعد حتى الآن.

- ليس من عادتها أن تتأخر مع خالد كل هذا التأخير.

- الغائب حجته معه يا سيدتي. لو كنتِ ذهبتِ معهما كما طلبا منك لما شعرتِ بهذا القلق. لست أدري لماذا ترفضين الخروج دائمًا وتعيشين في البيت وكأنك سجينة.

قالت سهير وهي تدير عينيها في أنحاء الغرفة:

- يُخيَّل إليَّ أن بيتي أكثر اتساعًا من كل الدنيا، إنني في بيتي أكتب قصصًا وأشعارًا وأعزف موسيقى وأرسم صورًا. لا يمكنني ممارسة هذه الأشياء التي أحبها إلا عندما أكون في بيتي، إنني على العكس، أشعر وكأنني سجينة عندما أكون خارج البيت.

تنهدت بدرية وقالت:

- ربنا يعدّلها لكِ يا بنتي ويرزقك بابن الحلال، عريس يكون لطيفًا ووسيمًا مثل سي خالد.

شعرت سهير برغبة في البكاء، ولكنها قاومت تلك الرغبة وقالت:

- هل تعتقدين أن أحدًا يرضى الزواج مني؟

شهقت بدرية وضربت صدرها بكفّها وقالت بدهشة:

- ابن السلطان يتمنى الزواج منك، من يظفر بك سعيد الحظ.

لم تستطِع سهير السيطرة على دموعها فانهمرت على خديها وقالت:

- لن أجد من يحبني، أنا أعلم أنني لست جميلة.

دهشت بدرية وقالت بغضب:

- من الذي حشا مخَّك بهذه الأوهام؟ أقسم لك إنك أجمل من رأيت ولكنك تهملين نفسك وتظلمينها. أنسيتِ أنهم اختاروك ملكة جمال الأطفال في مسابقة مجلة «الزهور»؟

- ربما كنتُ جميلةً في هذه الأيام.

- الجميل جميل طول عمره. كنتِ في ذلك الوقت في الشهادة الابتدائية، ولقد ازددتِ جمالًا

- لم أسمع كلمة طيبة من أي إنسان، لا يوجد سوى شخص واحد يُخيَّل إليَّ أنه حنون عطوف.

قالت بدرية بعاطفة صادقة:

- كلنا نحبك يا حبيبتي. من هذا الشخص الذي أشرتِ إليه؟

- لو كانت ماما موجودة لأخبرتها عن أشياء كثيرة لا أجد من أبوح له بها.

- لقد ربَّيتُكِ على كتفي؛ فأنا في حكم والدتك، ولن أفشي لك سرًّا.. من هذا الشخص؟

- إنه شخص أراه في أحلامي.

شعرت سهير برغبة عزف على البيانو، فنهضت من الفراش وذهبت إلى غرفة الصالون وبدأت العزف، وانشغلت بدرية بترتيب السرير وتنظيف زجاج النوافذ. وما لبثت سهير أن سمعت جرس باب البيت يدق، فأسرعت بفتح الباب لرؤية القادم، وإذا بها وجهًا لوجه أمام خالد! قالت بدهشة:

- أين فاتن؟

قال وهو متجه معها إلى غرفة الصالون مديرًا بصره في أنحاء المكان وكأنه يراه لأول مرة:

- فاتن؟ أجل.. إنها...

قالت سهير بلهفة:

- لماذا لم تحضر معك؟ ألم تكونا معًا في السيارة؟

- السيارة؟ نعم.. إنها...

صاحت سهير قائلة بفزع:

- ما بها السيارة؟ ماذا حدث لفاتن؟

قـال خالـد مثبتًـا بصره فـي السـجادة، محـاولًا ألَّا تلتقـي عيناه عينيها:

- الحقيقة.. الواقع.. أشعر بظمأ شديد، هل ممكن كوب ماء؟

انطلقت سـهير نحـو المطبخ وملأت الكـوب بالماء من الثلاجة ووضعتـه علـى الصينيـة، وعندمـا دخلت غرفـة الصالـون لم تجد خالـدًا. أسـرعت بفتح باب البيت عسـى أن تراه قبـل أن يبتعد، فلم تجد له أي أثر. صعدت إلى الدور العلوي بأقصى سرعتها.

كانـت بدرية منهمكـة في تنظيف زجـاج إحدى النوافـذ المطلة على حديقة البيت، ولـما حكت لها سـهير ما حدث هبطت من فوق الكرسي الذي كانت واقفة عليه قائلة:

- لقد رأيته من هذه النافذة.

قالت سهير بلهفة:

- رأيتِ من؟

- سي خالد، رأيتُهُ عندما دخل الحديقة وعندما خرج منها واتجه إلـى اليمين حتى اختفى عـن بصري، وظننت أنه حضـر وترك فاتن في السـيارة ليطلب منك الذهاب معهما إلى السـينما كما حدث في الشهر الماضي.

قالت سهير بدهشة:

- لم يطلب منِّي الذهاب إلى السينما، بل طلب كوب ماء.. هل رأيتِ السيارة؟

- لا، لم أرَها، ظننته ركنها في الناحية الأخرى.

قالت سهير وقد ازداد قلقها:

- ما معنى هذا؟

- اسمعي يا سيدتي، لقد مكثتُ في هذا البيت سنينا وأيامًا، ولكن يُخيَّل إليَّ أنني لو بقيت أسبوعًا آخر بعد الآن سيطير البرج الوحيد الباقي في دماغي.

أخذ القلق المسيطر دائمًا على مشاعر سهير يدور في ذهنها مضاعفا سرعته في أثناء الدوران، وفي محاولة للحد من تصاعده قالت:

- لكن، لو أن حادثًا أصاب السيارة، لا قدَّر الله، ألم يكن من اللازم أن يخبرنا به؟

هذه الكلمات بدلًا من أن تهَدِّئ بدرية أثارت هواجسها، فقالت:

- لست أدري، لقد توقف مخي عن التفكير. ألا يحدث كل هذا إلا وسيدي مسافر؟ لماذا سافر في هذه المرَّة؟

- للسـبب نفسـه الذي يسـافر من أجله في كل مرة، القضايا التي يترافع فيها لا تنتهي.

- استر يا رب.

انفجرت سـهير تبكـي، ففزعت بدريـة فزعًا شـديدًا وأوحى لها بكاء سهير المفاجئ بأن حادثًا رهيبًا قد وقع، فصاحت قائلة:

- اللهم اجعله خيرًا يا رب.

3

بهواجس مختلجة، ظلت سهير جالسة في الشرفة البحرية وعيناها تراقبان أضواء السيارات في انتظار السيارة التي تنحرف نحو البيت. جاءت بدرية ووقفت عند عتبة الشرفة قائلة:

- الساعة دقت التاسعة يا سيدتي والدنيا برد، لماذا لا تتركين الشرفة وتنظرين من الشباك؟

- من الشرفة أرى مساحة أكبر.

ذهبت بدرية إلى غرفة سهير وأحضرت معطفًا ألقته على كتفيها قائلة:

- ألا تتناولين عشاءك؟

- عندما تعود فاتن.

ثم أردفت قائلة:

- قد يتعشى عندنا خالد، هل عملتِ حساب ذلك؟

- سأذهب أعدُّ العشاء.

مـا كادت بدريـة تهبط أول درجة من درجات السـلم في طريقها إلى المطبخ حتى سمعت سهير تصيح قائلة بفرحة:

- السيارة وصلت!

أزاحت بدرية من أمامها واندفعت تهبط السـلم، فهرولت بدرية خلفها قائلة:

- هل رأيتِ فاتن؟

- لم أرَ أحدًا، رأيت السيارة فقط.

* * *

قبل أن يرنَّ جرس الباب كانت سـهير قد فتحته. هبطت فاتن من السـيارة ثم نزل خالد، وفوجئا بوجود سهير وبدرية عند عتبة الباب. صاحت بدرية قائلة:

- نحمد الله على سلامتكِ يا سيدتي فاتن!

ضحكت فاتن ضحكة قصيرة وقالت بسخرية:

- سلامتي؟! وهل كنت مسافرة؟

ثم أردفت قائلة لبدرية:

- خالد سيتعشى عندنا الليلة.

أسرع خالد قائلًا:

- كلا يا فاتن، أنسيتِ أنني مشغول الليلة؟

انصرفت بدرية دون أن تنطق وذهب فاتن وخالد وسهير إلى غرفة الصالون وجلس الجميع. قالت فاتن لسهير:

- ما بالك محملقة في خالد هكذا كأنك ترينه لأول مرَّة؟

قالت سهير وعيناها مثبتتان نحو خالد:

- اسأليه.

قال خالد مبتسمًا:

- وما دخلي أنا في الموضوع؟

ظلت سهير ناظرة إلى خالد فترة ثم قالت:

- أنت تعرف جيدًا علاقتك بالموضوع.

ثم نظرت إلى فاتن وقالت:

- ذهبتُ أحضر له كوب ماء وعندما عدت لم أجده في الصالون، كان قد اختفى!

نظر كلٌّ من فاتن وخالد إلى الآخر بدهشة، ثم قال خالد لسهير:

- أتقولين إنني اختفيت؟ متى حدث ذلك؟

قالت سهير:

- منذ نحو ساعتين كما تعلم جيدًا، وكنت مرتبكًا وفي حالة غير طبيعية، فقلقت على فاتن وسألتك عنها وقلت إنها بخير.

ضحكت فاتن وقالت:

- يبدو أن لخالد «دوبلير» كما يحدث في السينما.

شحب وجه خالد شحوبًا واضحًا، أطرق إلى الأرض برهة قبل أن يقول دون أن يرفع رأسه:

- يبدو أنك رأيتِ هذا في المنام يا سهير.

قالت سهير منفعلة ومؤكدة كل كلمة:

- لم أكن نائمة، بل كنت أتكلم مع بدرية، وكنت قلقة لغيابكما على غير العادة، ومن لهفتي عليكما لم أنتظر خطوات بدرية البطيئة فأسرعت بفتح الباب وتعجبت من وجودك وحدك، وأنت تعلم ما حدث، وأنني لم أكن أحلُم.

أطرق خالد إلى الأرض في صمت، وقالت فاتن وقد رسمت شفتاها ابتسامة سخرية:

- لولا وجودي طَوال هذه المدة بصحبة خالد ولم أتركه وحده لحظة واحدة لفتحتُ له محضر تحقيق.

وضحكت ضحكة قصيرة. صاحت سهير قائلة وقد بلغت ذروة الانفعال:

- لـو ظللتما حتـى الصباح تحـاولان إنكار ما رأيتـه بعيني فهل أصدقكما؟

ثم أردفت قائلة مؤكدة كل كلمة:

- لقد حضر خالد وأنا التي فتحتُ له الباب، وأنا...

ولم تستطِع إتمام حديثها فانفجرت باكية، قائلة:

- ابحثا عن أحد غيري تتسليان به.

واندفعت تقفز درجات السلم لتلوذ بغرفتها. استقبلتها بدرية بين ذراعيها عند قمة السلم وسألتها بلهفة وفزع:

- ما بكِ يا حبيبتي؟

قالت سهير وهي تشهق بالبكاء:

- إنهمـا لا يصدقان أن خالد زارنا هنا وحده بعد خروجهما، ألم تريه يا بدرية؟ يقولان إنني كنت أحلُم!

- رأيتُه يا حبيبتي عند حضوره وعند مغادرته البيت.

- انزلي قولي لهما ذلك.

أسرعت بدرية بهبوط السلم وقد عصف بها غضب جامح وحزن عميق واقتحمت غرفة الصالون قائلة:

- ليســت سيدتي سهير وحدها التي رأت سي خالد عندما حضر وحده اليوم، بل أنا أيضًا رأيته بعيني هاتين. ســيدتي سهير لم تكذب ولم تكن تحلُم.

نظرت فاتن إلى خالد بدهشة وقالت:

- ولكــن خالد كان معي طوال المــدة ولم يتركني لحظة، فكيف تفسرين ذلك؟ هل يوجد خالدان لا خالد واحد؟!

- لست أدري، ولكنني لا أكذِّب عيني.

قال خالد وهو مطرق إلى الأرض:

- فلنترك هذا الموضوع، المهم الآن أن نُطيِّب خاطر سهير؛ فلقد تألمــتُ لغضبها وقولها إننا نتســلى بها. ســأصعد لأعتذر لها، تعالَي معي يا بدرية.

صعد الســلم ببطء مســتندًا على الدرابزين شــاعرًا بإرهاق وكأنه يتسلق جبلًا.

***

كانت سهير في غرفتها. طرقت بدرية الباب فقالت سهير بفزع:

- من؟ من الطارق؟

- أنا بدرية يا سيدتي، سيدي خالد معي يريد التحدث معك.

ظل خالد واقفًا مطرقًا إلى الأرض حزين الملامح. قالت بدرية لخالد:

- هل هذا جزاؤها؟ تنكِّدان عليها وتُبكيانها بمجرد وصولكما وهي التي ظلت واقفة منذ أكثر من ساعة في الشرفة قلقة لغيابكما وملهوفة على عودتكما؟

وارَبَتْ سهير الباب بحذر شديد وأطلت برأسها. كانت الدموع ما تزال في عينيها. قال خالد:

- أنا متأسف يا سهير. أنتِ على حق. لقد حضرتُ كما تقولين ولم أخبر فاتن بذلك.

قالت بدرية بدهشة:

- ولكن سيدتي فاتن تقول إنها لم تتركك لحظة واحدة!

قال خالد وهو ناظر إلى سهير:

- بل تركتها فترة قصيرة عندما أخبرتها أنني ذاهب إلى الميكانيكي للاطمئنان على فرامل السيارة، وفي هذه الفترة أتيت.

قالت سهير بدهشة:

- ولماذا فعلت ذلك؟

- لست أدري. كل ما أتمناه الآن ألَّا تغضبي.

صافحها قائلًا:

- تصبحين على خير.

وأسرع بهبوط السلم. سألته فاتن وهو يستعد للخروج:

- ماذا قلت لسهير؟

- صالحتها بكلمتين ورويت لها حكاية من تأليفي هدَّأَت روعها، فلقد أحزنني تصورها أننا نتسلى بها.

- وما هذه الحكاية يا ترى؟

- سأقصُّها عليكِ فيما بعد، تصبحين على خير.

واتجه نحو الباب فأسرعت فاتن بفتحه له، وظلت تتابعه بعينيها وهو يستقل سيارته وينطلق بها مبتعدًا حتى خرج عن المجال البصري لفاتن.

في هذه الليلة، ظل خالد ساهرًا حتى الصباح يفكر فيما روته سهير؛ إذ إن حقيقة ما رأته شيء رهيب لا يمكن أن يخطر على بال أحد من أفراد العائلة، وهو سبب العذاب الذي يرزح خالد تحت وطأته في صمت، والرعب الذي يُلقي ظلّه على حياته بلا رحمة وبلا ذنب.

4

عقب خروج خالد، كانت سهير أول من أَوى إلى فراشه في تلك الليلة وما لبثت أن استغرقت في النوم، أما فاتن فقد استدعت بدرية ودارتـا على النوافذ والأبواب للتأكد من إغلاقها إغلاقًا محكمًا، ثم نامت كل منهما في مكانها.

بعد فترة لا تعرف مداها، صحت سهير من نومها على أثر سماعها أصواتًا تتردد في الدور الأرضي من الفيلا، كانت الأصوات في بادئ الأمـر متداخلة غير واضحة الكلمات ثم بدأت تتضح. إنها أصوات عـدة أشـخاص يتحدثـون معًا. ترامت إلى سـمعها هـذه الأصوات تتخللها بعض الضحكات:

- إنها ليست جميلة.

- أتقول قبيحة؟

- لا، بل أقول ليست جميلة، ها ها ها.

- لكنها جميلة!

- عيناها جميلتان.

- أتقول جميلة؟ ها ها ها.

- أنفها جميل.

- فمها جميل.

- جسمها جميل، ها ها ها.

وأخذت الجمل نفسها تتردد مندمجة مع بعضها، فغادرت سهير الفراش وفتحت باب غرفتها بحذر شديد، وما زالت الأصوات ترنُّ في أذنيها. فتحت باب غرفة فاتن فوجدتها تتنفس تنفسًا مريحًا، لمست كتفها برفق ففتحت عينيها ووجدت سهير ناظرة إليها فانتفضت جالسة في فزع شديد قائلة:

- مَنْ؟ ماذا تريدين يا سهير؟

- هل عاد بابا من السفر؟

- كم الساعة؟

- ثلاثة صباحًا.

- بابا لا يعود في مثل هذا الموعد، وإذا فُرض وعاد فلا يمكنه الدخول لأنني أنا بنفسي أقفلتُ باب البيت بالترباس. لماذا تسألين هذا السؤال؟

قالت سهير بصوت مرتجف:

- سمعت أصوات أشخاص يتكلمون ويضحكون في الدور الأرضي، أليس من الممكن دخولهم بكسر الباب أو إحدى النوافذ؟ وربما نكون قد نسينا أحد الشبابيك مفتوحًا، قد يكون شباك المطبخ.

- أقفلتُ شباك المطبخ بنفسي. لا يوجد خرم إبرة مفتوح في البيت، لا بُدَّ أنك كنت تحلمين. اذهبي إلى غرفتك ونامي.

نامت فاتن بعد فترة قصيرة، أما سهير فظلت مستيقظة مرهفة السمع منتظرة سماع الأصوات مرة أخرى، ولكنها لم تسمعها، بل سمعت نقرًا على باب غرفتها، وفتح الباب وأطلت منه بدرية قائلة:

- قومي يا سيدتي سهير بقينا الظهر، الفطور جاهز على مائدة الطعام.

***

قالت سهير لأختها وهما جالستان على مائدة الإفطار:

- نفسي يكون عندي كمنجة.

- لو طلبتِها من بابا سيحضرها لك.

- لا، اطلبيها أنت منه؛ فهو لا يردُّ لكِ طلبًا، وعندما تأخذينها منه أعطِها لي.

ضحكت فاتن ضحكة قصيرة وقالت:

- غير معقول، هل أنا ابنته وأنت ابنة الجيران؟ ألسنا أختين؟

قالت سهير متحدية أختها:

- سأطلب منه لأثبت لك أن ظني في محلّه.

- ولماذا تريدين الكمان؟ هل مللت العزف على البيانو؟

تجاهلت سهير الرد على هذا السؤال وقالت وهي تغادر المائدة:

- هل تصدقين أنني أَلَّفْتُ قطعة موسيقية؟

قالت فاتن بلا اكتراث:

- هكذا؟

- هل تحبين سماعها؟

- طبعًا أحب أن أسمعها، ولكن في وقت آخر؛ فرأسي يوجعني منذ أيقظتِني من النوم.

اقتحمت بدرية الغرفة كثور في حلبة مصارعة الثيران ودخلت في الخط كالمكالمة التليفونية الشاردة قائلة:

- هل سيعود سيدي من السفر اليوم؟

قالت فاتن:

- إن شاء الله يا بدرية.

قالت بدرية من صميم قلبها:

- ربنا يرجعه بالسلامة، نحن من دونه لا نساوي شيئًا.

ثم أردفت قائلة وكأنها تسأل نفسها:

- لماذا غاب في هذه المرة أكثر من أية مرَّة أخرى؟

تطوعت فاتن بالرد عليها قائلة:

- في هذه المرة سيترافع في خمس قضايا، في المرات السابقة لم تزد القضايا التي يترافع فيها على قضية أو قضيتين.

قالت بدرية:

- وقضايا إسكندرية، ألا تكفي ولا داعي للسفر؟

قالت فاتن بصبر نافد:

- هو أدرى بمصلحته.

قالت سهير بعد طول انتظار لإنهاء هذا الحوار:

- هل تحبين يا بدرية سماع القطعة الموسيقية التي أَلَّفْتُها؟

نظرت بدرية إليها ببلاهة قائلة:

- قِطعة موسيكيَّة؟!

- أعني المزيكا التي عملتها، هل أُسمعها لك؟

- لا والنبي يا سيدتي، أنا، اسم الله على مقامك، كالبهيمة لا أفهم في مثل هذه الأشياء.

غمغمت سهير قائلة:

- سأعزفها لنفسي.

جلست أمام البيانو وأخذت تعزف موسيقى عذبة، وعندما انتهت سألت:

- هل سمعتِها يا فاتن؟ ما رأيك فيها؟

- جميلة جدًّا، اعزفيها لبابا عندما يحضر، ماذا سمَّيتِها؟

- سميتُها «أشواق».

***

دق جرس التليفون فأسرعت فاتن للرد عليه في غرفة المكتب.

- ألو.. أنا فاتن.. ألا تعرف صوتي؟ طبعًا عرفتك من صوتك.. سهير بخير والحمد لله.. لا، لم نسمع شيئًا ولكن سهير تقول إنها سمعت ضحكاتٍ وكلامًا في الصالون.. أكيد.. لا بُدَّ أنها

كانت تحلُم.. بابا سيحضر اليوم.. لا، سيحضر في المساء.. متى ستحضر؟ انتظر لحظة، سأسألها.

صاحت فاتن قائلة:

- سهير، سهير.. خالد سيمر علينا لنذهب إلى جنينة المنتزه، هل تجيئين معنا؟

صاحت سهير قائلة:

- لا مانع، ولكنني لا أود مضايقتكما.

أكملت فاتن الحديث التليفوني قائلة:

- أجل يا خالد، سهير ستكون معنا.. وهو كذلك، سنكون جاهزين عندما تحضر.. الله يسلّمك.

وضعت فاتن سماعة التليفون وقالت لسهير:

- خالد سيكون هنا بعد ساعة، البسي بسرعة.

***

عندما حضر خالد وجد فاتن وسهير في انتظاره بغرفة الصالون. لم تضيِّعا وقتًا فركبتا السيارة وانطلق بهما خالد نحو حديقة المنتزه. كانت سهير في المقعد الخلفي، رآها خالد من خلال المرآة مطرقة إلى الأرض وعلى وجهها ملامح حزن، فسألها:

- كيف حالك اليوم يا سهير؟

رفعت رأسها مبتسمة وقالت:

- الحمد لله.

قالت فاتن:

- سهير عزفت على البيانو قطعة موسيقية من تأليفها سمَّتها «أشواق».

قال خالد مبديًا دهشة تغلِّفها فرحة:

- أحقيقة؟ سأحضر خصيصًا للاستماع إليها.

قالت سهير وقد احمرّ وجهها:

- متشكرة، إنها مجرد تسلية.

* * *

جلسوا حول مائدة في الحديقة، طلبت فاتن عصير برتقال وطلبت سهير مثلها وطلب خالد، كعادته، قهوة سكّر زيادة، وانصرف الجرسون لإحضار الطلبات.

قال خالد موجهًا حديثه لسهير:

- ما حكاية الناس الذين سمعتِ صوتهم في البيت ليلة أمس؟

بغتة شـحب وجه خالد وبدا مضطربًا متفـزِّزًا ونهض قائلًا بلهفة وفزع:

- هيا بنا نخرج من هنا بسرعة.

بـدت الدهشـة في ملامح فاتن وسـهير. التزمت سـهير الصمت وقالت فاتن:

- لماذا؟! الجرسون لم يُحْضر الطلبات!

قال خالد وقد أدار ظهره للمكان:

- هيا، هيا نذهب إلى مكان آخر.

* * *

عندما استقر الثلاثة في السيارة، سألت فاتن:

- ماذا جرى؟ لماذا فعلتَ ذلك؟

- لا شيء، شخص لا أحب أن يراني هنا ولا أحب أن أراه.

عـادت سـهير مطرقـة إلـى الأرض صامتة كمـا كانت، أمـا فاتن فقالت بنبرة حادة بعض الشيء:

- من هذا الشخص؟

- شخص أتجنب رؤيته.

- وإلى أين أنت ذاهب بنا؟

- كما تريدان.

قالت فاتن وفي صوتها نبرة غضب:

- اسمع يا خالد، أخائف من أحد؟ تبدو أحيانًا وكأنك خائف من شخص.

- لا، لستُ خائفًا، ولكنني لا أحب رؤية بعض الناس.

- ألهذه الدرجة؟ من هذا الإنسان؟

- واحدٌ لا تعرفينه، وأرجو ألَّا تضغطي عليَّ أكثر من اللازم.

غمغمت فاتن قائلة وكأنها تكلم نفسها:

- أشياء غريبة.

قال خالد بصبر نافد وقد طال وقوف السيارة:

- كفى يا فاتن، لماذا تدقّقين في كل شيء هكذا؟ إلى أين تريدان الذهاب؟

قالت فاتن بحسم غاضب:

- نعود إلى البيت.

* * *

ظلت سهير طوال فترة الحوار صامتة وكأن الأمر لا يعنيها، على الرغم من الحزن الذي ملأ قلبها؛ فلقد آلمها أنهما لم يعيرا وجودها معهما أي اهتمام في أول مرَّة تقبل فيها الخروج معهما لتسرِّي عن نفسها.

بعد عودة فاتن وسهير إلى البيت جلستا معًا في الصالون تنتظران عودة والدهما. بدأت العاصفة تشتد مرَّة أخرى وتجمعت السُّحب في السماء فشعرت سهير بالقلق على أبيها، ودقت الساعة تسع دقات فقالت لفاتن:

- بابا تأخر، أخشى عليه من العاصفة.

قالت فاتن بلا تفكير وذهنها مشغول بأشياء أخرى.

- سيأتي حالًا ولا تخشي عليه؛ فهو يترك السيارة في موقف محطة سيدي جابر، ولن يتأثر بالعاصفة.

ثم أردفت قائلة بعد فترة تردُّد:

- اسمعي يا سهير، أريد معرفة رأيك في مسألة تهمني.

قالت سهير باهتمام:

- ما هي؟

- أشياء بخصوص خالد لا أفهمها، لقد رأيتِ ما حدث اليوم، يُخيَّل إليَّ أنه خائف من شخص بالذات. لماذا لا يُطلعني على

أسـراره؟ ألن أصبح شريكة حياته؟ كيف نعيش معًا وهو يخفي عني مثل هذه الأشياء؟

قالت سهير محاولة التخفيف من قلق أختها:

- توجد لدى كل إنسـان منطقة شـديدة الخصوصية لا يجب أن يقتـرب منهـا أحـد، لا تجعلي مثل هـذه الأمور تشـغل بالك، خالد شخص ممتاز لا يوجد كثيرون مثله.

- أنا أحب خالد، ولكن مثل هذه الأشياء تخيفني.

- إنها أمور تافهة لا تخيف.

ثم أردفت قائلة في محاولة لتغيير مجرى الحديث:

- هيا معي أريك البلوفر الذي أواصل صنعه منذ خمسـة شـهور لأهديه لبابا، لم أنتهِ منه إلا منذ يومين.

***

صعدتا معًا السلَّم ودخلتا غرفة سهير. فتحت سهير باب الصوان وأخرجت البلوفر المطبَّق بعناية وفردته قائلة:

- ما رأيك في الألوان؟

- رائعـة، ولكـن تنفيذها على هذه الصورة فـي منتهى الصعوبة، يحتاج لمجهود خرافي، كيف تمكنتِ من صنعه؟

- بالصبر وقوة الاحتمال.

أطالت فاتن التأمل في البلوفر ثم قالت:

- إنه أجمل ما رأيتُ في حياتي، من أين حصلتِ على رسمه؟

- من كتالوج قديم عثرتُ عليه في الصوان.

- سيفرح به بابا.

غمغمت سهير قائلة وهي تعيد تطبيقه بعناية:

- أردت أن أعمل شيئًا يجعل بابا يحبني. لماذا تأخر؟

ما كادت تقفل الصوان حتى دق جرس الباب فأسرعتا بهبوط السلم مهرولتين متسابقتين لفتح الباب. فتحت فاتن الباب ووقفت سهير خلفها ودخل الأب وفي يده حقيبة متوسطة الحجم، بادرته كل من فاتن وسهير قائلتين:

- حمدًا لله على السلامة يا بابا!

قال وهو يضع الحقيبة على الأرض:

- الله يسلمكما.

احتضن فاتن وقبّلها، ثم فتح الحقيبة وأخرج لفافة ضخمة سلّمها لسهير قائلًا:

- أعطي قطعة اللحم هذه لبدرية، أحضرتُها من القاهرة، فأنا لا أحب لحوم إسكندرية!

أخذت سهير اللفافة وهمَّتْ بالذهاب إلى المطبخ، فاستدرك الأب قائلًا:

- هل أخذتِ بوستك يا سهير؟

اتجهت سهير نحو المطبخ مطأطئة الرأس قائلة بصوت خافت:

- لا يا بابا، يظهر أن حضرتك نسيت.

* * *

حملت فاتن الحقيبة وصعدت بها مع والدها إلى الدور العلوي وجلسا في حجرة الأب. اشتدت العاصفة، فقفزت في ذهن فاتن أحداث أول ليلة بعد سفر أبيها، وأخذت تقص عليه أهوال تلك الليلة، سألها:

- هل سُرق شيء؟

- لم يُسرق شيء، ولكن الزهرية الكبيرة التي في الصالون كُسرت.

في هذه اللحظة دخلت سهير مبتسمة فاردة البلوفر قائلة:

- انظر يا بابا، هل يعجبك هذا البلوفر؟ لقد صنعته لك.

لـم يكـن رد الفعل لدى والدها كما تصورتـه؛ فلقد تجهَّم وجهه وبدا غاضبًا مكفهرًّا وصاح قائلًا:

- أي شـيطان وسوس لك بعمل هذا البلوفر؟ امشي من قدامي، اخرجي من هنا!

سـقط البلوفر من يد سهير وعجزت ساقاها عن حملها فانهارت علـى الأرض، وانفجرت تبكي بكاء لـم تبكِ مثله في حياتها، كانت الدموع تهطل من عينيها بغزارة وكأنها تحويشة العُمر، فذُعرت فاتن وذُهل الأب الذي لم يكن يتصور أن كلماته سيكون لها هذا الحجم مـن رد الفعـل، وأقبلت بدرية تتعثَّـر في خطاها وهي تصعد السـلم بسرعة لم تكن في استطاعتها وهي في سن العشرين على الرغم من الروماتيزم الذي تشكو منه في ركبتيها، صائحة:

- ما بها؟ ما بها يا سيدي؟ ما بها يا سيدتي؟

***

أسرعت بالجلوس جنبها واحتضنتها، وسهير مستمرة في البكاء الذي لا يهدأ، فصاحت بدرية وهي تربت على ظهرها قائلة:

- ما بكِ يا حبيبتي؟ كفى بكاءً..

والتفتت نحو الأب وفاتن قائلة:

- ماذا فعلتما بها؟ لماذا تبكي بهذه المرارة؟ أليست في قلبيكما رحمة؟

أخذ الأب يربت على ظهرها ويملِّس على رأسها قائلًا:

- كفى يا بنتي، كفى، أنا لم أقصد إغضابك كل هذا الغضب.

ثم نظر إلى بدرية التي ما زالت محتضنة سهير صائحًا:

- أحضري كوب ماء. تحركي بسرعة.

أسرعت بدرية بإحضار الماء قائلة:

- لا حـول ولا قوة إلا بالله، لماذا تؤذيانها كل هذا الإيذاء؟ إنها مسكينة!

اختطف الأب كوب الماء من بدرية وأخذ يرش على وجه سهير، فشهقت شهقة كبيرة، وواصلت البكاء. قال الأب:

- كفى، ستقتلين نفسك من البكاء!

ثم أردف قائلًا بانفعال:

- كفى بكاءً، ألا نهاية لهذا البكاء؟!

قالت بدرية ناظرة إلى فاتن:

- ما الذي أغضبها؟

قالت فاتن بانفعال:

- اسكتي أنتِ، لا شأن لك بها.

- ها أنا ذي سكتُّ، وهل هذا شيء نسكت عليه؟ إنها ستموت في أيديكما!

قال الأب:

- والله ما قصدتُ أن أغضبها.

عادت سهير تبكي بكاءً صامتًا، ثم قامت وحاولت الخروج، فقال الأب:

- إلى أين أنت ذاهبة؟ تعالَيْ.

جلس محتضنًا سهير وأصبح بكاؤها داخليًا لا يُسمع منه سوى شهقات. قالت فاتن وهي تمسح دموعها:

- هل تتصور يا بابا أنها منذ الصباح في شوق ولهفة لعودتك لتهديك هذا البلوفر؟

قال الأب وعيناه شاخصتان لا يرى بهما سوى ذكريات:

- لا تغضبي يا سهير؛ فلقد أَثَرْتِ في نفسي ذكريات حزينة.

قالت فاتن بدهشة:

- ذكريات؟ أية ذكريات هذه؟

قال الأب:

- هذا البلوفر..

وأطرق إلى الأرض وظل صامتًا وقد دمعت عيناه.. قالت فاتن:

- ما به البلوفر؟ إنه أجمل بلوفر رأيتُه في حياتي، واستغرق عمله عدة شهور.

قال الأب بصوت متهدج:

- إنه صورة طبق الأصل من البلوفر الذي أهدته لي المرحومة والدتك، زمان، في فترة الخطوبة.

قالت بدرية:

- وما ذنبها هي؟ هل هذا جزاؤها؟ كيف حالُكِ الآن يا سيدتي سهير؟

قالت سهير بصوت خافت مرهَق:

- الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله.

وغلبها البكاء الذي حاولت كتمانه بكل طاقتها. انزعجت فاتن فقالت:

- كفى يا سهير، روّقي.

وقال الأب وهو يربت على ظهرها:

- لا تغضبي منّي يا سهير، حقَّكِ عليَّ.

وقالت بدرية:

- هل أعمل لك كوب ليمونادة يروّق دمك؟

قال الأب:

- نامي ترتاحي.

ولأول مرة حدث لسهير شيء غريب لم يحدث لها من قبل، وجدت جميع الكلمات التي قيلت ابتداء من قول فاتن: «كفى يا سهير روّقي»، حتى قول الأب: «نامي ترتاحي»، يتكرر سماعها عدة مرات وكأنها صادرة من شريط تسجيل يعاد تشغيله، فصاحت قائلة:

- كفى، كفى!

فتوقفت بغتة جميع الأصوات التي تتردد في أذنيها، وقالت:

- أشعر برأسي ثقيل لا يقوى جسمي على حمله.

وقامت ببطء قائلة:

- أريد أن أنام.

فاحتضنتها بدرية قائلة:

- اتركاها معي، نامي يا حبيبتي وسأظل معك الليل بطوله.

***

غلب النوم سهير فاستسلمت له وظلت بدرية ساهرة جنبها لا يغمض لها جفن. بعد نحو ساعة حدث ما أفزع بدرية، فهرولت إلى غرفة الأب وطرقت بابها قائلة:

- سيدي، سيدي!

- ماذا تريدين؟ تعالَيْ.

وارَبَتْ بدرية الباب وقالت:

- يبدو أن سيدتي سهير تَعِبَة تعبًا شديدًا.

قال الأب بانزعاج:

- كيف؟ أما زالت صاحية؟

- لا، جسدها يرتعش وتبكي وهي نائمة.

قفز الأب من الفراش وأسرع نحو غرفة سهير وخلفه بدرية، تأكد من صحة ما روته له، فنظرت إليه وقالت:

- ألا تستدعي الحكيم ليراها؟

- إذا لم تتحسن حتى الصباح سأطلب لها الدكتور.

قالت بدرية بدهشة وفزع:

- الصباح؟ لا، إنها لا تنتظر للصباح، لا بد من حكيم يراها الآن، إنها تبدو كالمخنوقة غير قادرة على التنفس.

شاعرًا بقلق شديد حاول الأب إيقاظها:

- سهير، سهير.

صحت من نومها قائلة بفزع:

- من؟ من؟

- أنا بابا يا سهير، هل تشعرين بتعب؟

قالت بفزع:

- لا، لا شيء.

- هـل تشـعرين بضيـق في صـدرك؟ إذا كنت شـاعرة بأي تعب أُحضر لك الدكتور.

قالت وفي صوتها نبرة غضب:

- لا، لا أريد أن أرى أحدًا، لا أريد أن أرى أحدًا، أنا بخير.

عاد قصف الرعد فقالت:

- اتركوني أنَم، لا أريد منكم غير ذلك.

قالت بدرية:

- هل أعمل لكِ فنجان ينسون؟

قالت بصبر نافد:

- لا أريد شيئًا، قلت لكم اتركوني أنَم.

قال الأب:

- اتركيها تنَم يا بدرية، سترتاح عندما تنام.

* * *

خرج الأب من الغرفة وبقيت بدرية جنب السرير، في حين جلست سهير مستندة على ظهر السرير ساهمة النظرات. ظلت على هذا الوضع نحو نصف ساعة صامتة وبدرية ملتزمة الصمت مثلها رغبة في تهيئتها للنوم، ولكن النوم استعصى عليها فقالت لبدرية:

- طيَّرتم النوم من عيني، أحضري لي الكتاب من هناك.

ما كادت تفتح الكتاب حتى سمعت رنين جرس رقيق النغمات ارتاحت لصوته، ولكن ذلك الصوت أخذ يعلو تدريجيًا، ثم بدأت

الأجراس يزداد عددها وتتداخل دقاتها حتى أصبح صوتها مزعجًا، وأصبح لرنينها صدى ضاعف من وطأتها على أذني سهير، فصاحت قائلة:

- ما هذه الأجراس التي تدق بهذا العنف في تلك الساعة؟ لم يسبق لي سماع أي أجراس في هذا المكان، فمن أين جاءت؟

نظرت إليها بدرية وقالت بدهشة:

- أجراس؟ أي أجراس يا سيدتي؟

- ألا تسمعين صوت هذه الأجراس؟

- لا يا سيدتي، لم أسمع شيئًا. سمعي ضعيف، أعرف ذلك، ولكن ليس لدرجة عدم سماع أجراس، فأنا أسمع الآن بوضوح صوت العاصفة التي تهز الشبابيك.

توقف سماع الأجراس وبدأت سهير تسمع صوت كلاكس سيارة. قالت لبدرية:

- ألم تسمعي هذا أيضًا؟

- أسمع ماذا؟

- صوت كلاكس سيارة خالد، ما الذي دفعه للمجيء الآن في هذه العاصفة وذلك الظلام؟ قومي انظري من الشباك وتأكدي ما إذا

كانـت عربة خالد أم عربة أخرى. ها هـو ذا صوت الكلاكس يعود، ألم تسمعيه في هذه المرة أيضًا؟ إن صوته أعلى من المرة السابقة.

- لا يا سيدتي، لم أسمع شيئًا.

- قلت لك قومي انظري من الشباك لأطمئن على خالد، أخشى أن يكون قد جازف بالحضور في العاصفة والظلام.

- لا يا سيدتي، لا أستطيع فتح الشبابيك، الرياح شديدة والمطر غزير والظلام لا يسمح برؤية أي شيء.

- يوجد عمود نور بالقرب من البيت.

ثم أردفت قائلة بنبرة تحدٍّ:

- سأقوم أنا أفتح الشباك.

هبطت من السرير واتجهت نحو الشباك لتفتحه. فصاحت بدرية قائلة:

- لا يا سيدتي، لا تفتحي الشباك.

ولكـن سـهير فتحـت النافـذة على الرغم مـن البرد الـذي صفع وجهها ونظرت في جميع الاتجاهات ثم أقفلتها بسرعة وعادت إلى السرير وتدثرت باللحاف.

- لا، لا توجد أية سيارة.

ثم أردفت قائلةً وكأنها تكلم نفسها:

- ربما تكون غادرت المكان قبل أن أفتح الشباك.

في هذه اللحظة سَمِعت صوتَ ترام يدق جرسه، قالت:

- شيء عجيب، وما الذي أحضر الترام هنا؟ هذا المكان لا توجد بالقرب منه أي «تراموايات».

ثم التفتت نحو بدرية وقالت:

- ألم تسمعي هذا أيضًا؟

- أتريدين الحقيقة يا سيدتي؟ أنا لم أسمع سوى صوت الريح تهز الشبابيك، ولا شيء غير ذلك.

قالت سهير وقد شعرت بالحيرة وبدأت الأفكار تختلط في ذهنها:

- وهل الرياح تدق أجراسًا؟

قالت بدرية وهي تملِّس على شعر سهير:

- نامي يا سيدتي، نامي ولو ساعة قبل طلوع النهار، وستصبحين في أحسن حال!

نامت على جانبها واتجهت بظهرها نحو بدرية وأغمضت عينيها، وبعد فترة تسللت بدرية من الغرفة وأقفلت بابها بهدوء وذهبت إلى

غرفتها محاولة النوم ولو لفترة قصيرة، ولم تستيقظ إلا على نداء سيدها بصوته الجهوري الغليظ:

- يا بدرية، بدرية!

ولما كانت بدرية شديدة الحساسية لصوت سيدها في يقظتها ونومها فلقد انتفضت قائلة:

- نعم يا سيدي؟

- أما زالت سهير نائمة؟

- سأرى يا سيدي.

هرولت نحو غرفة سهير وفتحت الباب فوجدت سهير جالسة في السرير تقرأ كتابًا، تركت الباب مُواربًا وأسرعت إلى الدرابزين المطل على البهو السفلي وصاحت قائلة:

- سهير صاحية يا سيدي.

كان الأب واقفًا عند سفح السلم مرتديًا ملابس الخروج، قال:

- أريد رؤيتها قبل خروجي.

- حاضر، سأخبرها.

أسرعت إلى غرفة سهير وحاولت فتح الباب ففوجئت به وقد أغلقته سهير بالمفتاح، فطرقته بعصبيَّة قائلة:

- افتحي الباب يا سيدتي سهير، بابا يريد رؤيتك قبل خروجه.

لم تحدث استجابة، فقالت بدرية مكلمةً نفسها كعادتها:

- لست أدري سر غرامها بإقفال باب غرفتها بالمفتاح، سآخذ هذا المفتاح وأخفيه تحت الأرض!

بعد فترة قصيرة سمعت بدرية صوت المفتاح يدور في الكالون ثم يفتح الباب ويطل منه وجه سهير الشاحب قائلة بنبرة غضب:

- ماذا تريدين؟

- انزلي كلمي بابا.

أخذت سهير ترتدي الروب استعدادًا للنزول واتجه الأب نحو غرفة مكتبه في انتظارها.

كان الأب جالسًا على أحد الكراسي في مواجهة مكتبته الضخمة التي تشغل جدارًا بأكمله من جدران الغرفة. دخلت سهير وجلست بالقرب منه في صمت وأطرقت إلى الأرض. بادرها الأب قائلًا:

- كيف حالك اليوم يا سهير؟

قالت دون أن ترفع رأسها:

- الحمد لله.

- هل نمتِ جيدًا؟

- لا

- هل تشعرين بتعب؟

- أشعر أن رأسي ثقيل.

بغتة، بدأت تسمع صوت أناس في غرفة الصالون المقابلة لغرفة المكتب يتحدثون عنها، وبدت كلماتهم متداخلة، قائلين:

- سـهير؟ أجل سهير.. هي سـهير.. ليسـت جميلة.. لكن أنفها جميل.. عيناها جميلتان.. جسمها جميل.. لكنها ليست حلوة..

ثم سمعت صوت ضحكات، فقالت بنبرة حادة غاضبة:

- من هؤلاء الذين في غرفة الصالون؟

قال الأب بهدوء:

- لا أحد في غرفة الصالون.

في هذه اللحظة، دخلت فاتن وجلسـت على أحد الكراسي دون أن تلقي تحية الصباح. سألتها سهير:

- ألا تسمعين أنتِ أيضًا يا فاتن هذه الكلمات والضحكات التي في غرفة الصالون؟ إنهم ما زالوا يتحدثون عني ويضحكون.

قالت فاتن بحزن:

- سهير، أنا لا أسمع شيئًا.

قالت سهير بصوت متهدج:

- أنتما تخفيان عني الحقيقة.

قال الأب:

- اذهبي وانظري بنفسك.

بدأت سهير تشهق بالبكاء. قال الأب شاعرًا بحزن وقلق:

- لماذا تبكين؟

- أنا خائفة، خائفة من البيت.

قام الأب وأخذ يربت على ظهرها قائلًا:

- تعالي نذهب معًا إلى غرفة الصالون لتتأكدي بنفسك.

ظلت سهير جالسة في مكانها والأب واقف جنبها باذلًا جهدًا لإخفاء قلقه واضطرابه. قالت سهير شاعرة بخوف:

- ومن هذا الذي بدأ العزف على البيانو؟

قالت فاتن:

- هيا نجلس في غرفة الصالون لتتأكدي من خلوها.

اتجه الثلاثة إلى غرفة الصالون وما كادت سهير تدخل الغرفة وتجدها خالية حتى بدأت تسمع الأصوات قادمة من غرفة المكتب، فصاحت قائلة:

- لقد عادوا يتحدثون عنِّي في غرفة المكتب.

انخرطَت في البكاء ثم ترنحت وكادت تسقط على الأرض لولا إسراعُ الأب إليها، حملها بين يديه ووضعها على ظهرها فوق كنبة بالغرفة، وأقبلت بدرية مهرولة وفي يدها كوب ماء رشت منه على وجهها، وأسرعت فاتن بإحضار قارورة كولونيا، فأفاقت نصف إفاقة وأخذت تدير بصرها في أنحاء المكان، وذهب الأب إلى التليفون بغرفة المكتب وأدار رقمًا:

- ألو، الدكتور مصطفى كامل؟ أنا زكي راتب المحامي.. أهلًا بك يا دكتور، سهير بنتي مريضة جدًّا، هل من الممكن أن تزورنا الآن؟ شكرًا، نحن في انتظارك.

* * *

قال الطبيب لسهير:

- أسمعتِ كل هذه الأصوات؟

- سمعتُها وما زلتُ أسمعها، ها هو ذا صوت الترام عاد يرنُّ في أذني، ألم تسمعه يا دكتور؟

- لا، لم أسمعه.

التفتت إلى فاتن وكأنها تستنجد بها وقالت:

- وأنتِ يا فاتن، ألم تسمعيه؟

- لم أسمع صوت «ترامو ايات».

- ولا أنت يا بابا؟

- ولا أنا.

قالت سهير بصوت خافت وكأنها تكلم نفسها وقد ازداد شعورها بالخوف:

- ليس من المعقول أن تكونوا جميعًا لا تسمعون وأنا وحدي القادرة على السمع.

قال الطبيب مثبتًا عينيه في عيني سهير:

- فعلًا، هذا غير معقول.

قالت سهير بدهشة:

- وكيف أسمعها وحدي؟!

- كل هذه الأصوات التي ذكرتِها لا وجود لها، فلا تعيريها أي اهتمام.

***

وقف الطبيب حاملًا حقيبته فوقف الأب. همس الطبيب وهو يعبر عتبة غرفة الصالون في أذن الأب قائلًا:

- أريد التحدث معك لحظة على انفراد يا أستاذ راتب.

- تفضل يا دكتور، هنا في غرفة المكتب.

***

قال الطبيب:

- سهير مريضة نفسيًّا، وما سمعَتْه نطلق عليه اسم «هَلاوِس»؛ حيث يسمع المريض أصواتًا لا وجود لها، وقد يتطور فيرى أيضًا أشياء لا وجود لها.

قال الأب بانزعاج شديد:

- هل يعني هذا أن البنت أصيبت بالجنون؟

ضحك الطبيب ضحكة قصيرة وقال:

- لا، المسألة لم تصل إلى هذا الحد، إنه مرض نفسي من الممكن علاجه على يد إخصائي في الأمراض النفسيَّة والعصبيَّة.

- هل يعني هذا أنك لن تتولى علاجها؟

- لا يمكنني علاج مرض خارج حدود تخصصي، ولكن ما فهمتُه من حواري معها أن في حياتها مأساة.

قال الأب بدهشة:

- مأساة؟! أية مأساة هذه؟

- معرفتها من اختصاص الطبيب الإخصائي الذي سيتولى علاجها، وإذا رغبتَ في أخذ رأيي في الطبيب الذي أرشحه لعلاج سهير فإنني أقترح الدكتور منير أدهم، الأستاذ بكلية الطب.

5

جلس الدكتور منير أدهم في غرفة مكتب الأب مستمعًا له وهو يحكي له عن حالة سهير، ثم أردف قائلًا:

- ما سبب مرض ابنتي في رأيك يا دكتور؟

- الأسباب تختلف. إنها مسألة أعصاب. الأعصاب يمكن تشبيهها بالقنطرة، كل قنطرة لها حمولة معينة؛ فالأعصاب تختلف من شخص إلى آخر. كل شخص له قوة احتمال معينة، وإذا زاد الحمل على ذلك تنهار الأعصاب. على العموم، أحب أن أراها أولًا قبل أن أجزم برأي مُعين.

* * *

كانت سهير في غرفتها فصعد الأب لإحضارها. طرق الباب فلم تحدث استجابة لطرقاته، أدار الأُكرة محاولًا الدخول، ولكنه وجد الباب مغلقًا بالمفتاح كما يحدث في كثير من الأحيان. أعاد الطرق آمرًا سهير بأن تفتح الباب. ردت سهير قائلة:

- لست مريضة ولا أريد أن أرى أحدًا أو يراني أحد.

استأنف الأبُ الطرْق بقوة صائحًا وفي صوته نبرة غضب:

- قلت لك: افتحي الباب حتى لا أضطر لكسره، لا تحرجيني مع الرجل.

واربت الباب وأطلت منه قائلة:

- ماذا يريد مني؟

عاد الأب إلى هدوئه وقال بصوت حنون:

- لا شيء، سيتحدث معك، مجرد حديث.

* * *

هبطت السلَّم مع أبيها، وسارت معه إلى غرفة المكتب، ثم وقفت عند باب الغرفة مترددة في الدخول، فسحبها والدها برفق من يدها ودخلا معًا قائلًا:

- ها هي ذي سهير بنتي.

وقف الطبيب مبتسمًا وصافحها بحرارة قائلًا:

- أهلًا وسهلًا يا آنسة سهير، تفضلي اجلسي.

ثم التفت إلى الأب وقال:

- أتسمح بتركنا وحدنا بضع دقائق يا أستاذ راتب؟

- وهو كذلك يا دكتور.

***

انسحب الأب وأغلق باب الغرفة وجلس في الصالون شاعرًا بقلق وعطف على سهير. طلب الطبيب من سهير الجلوس إلى مكتب أبيها فجلست على كرسي المكتب شاعرة بخجل شديد جعلها تتحاشى النظر إلى الطبيب وظلت ناظرة إلى سطح المكتب. بدأ الطبيب حديثه قائلًا:

- نحن الآن وحدنا، وكل ما تقولينه سيبقى سرًّا بيننا، لن يعرفه منِّي أي إنسان.

كان على المكتب بعض الأوراق الخالية من الكتابة وعدد من الأقلام، ولكي تداري خجلها أمسكت قلمًا وأخذت تعبث به على إحدى الأوراق بحركة تلقائية لا هدف لها سوى تلافي النظر إلى الطبيب الذي سألها:

- ألكِ إخوة أو أخوات يا سهير؟

دون أن ترفع عينيها عن الورقة قالت:

- أخت واحدة.

- ما اسمها؟

- فاتن.

- أأكبر أم أصغر منك؟

- أكبر منِّي بعام واحد.

- آنسة؟

- نعم، ولكنها مخطوبة.

- ما مهنة خطيبها؟

- ضابط بوليس في المرور.

* * *

بدأت سهير تشعر بألفة وراحة في الحديث مع الطبيب ولكنها لم تتمكن من التخلص من الشعور بالخجل. قال الطبيب:

- ذكر لي بابا أنكِ في إحدى الليالي سمعتِ حديث ناس في غرفة الصالون، أليس كذلك؟

- بلى يا دكتور، ولكن لا أحد يصدقني.

- أنا أصدقك، وماذا سمعتِ أيضًا؟

قالت وهي تعبث بالقلم على الورقة التي أمامها:

- أشياء كثيرة، أجراس «ترامورايات» وكلام وضحكات، كيف أسمع أشياء لا يسمعها غيري؟

لأول مـرة رفعـت رأسـها والتقت عيناهـا عيني الطبيـب، ولكن نظرتهـا لـم تسـتغرق أكثر مـن ثانيـة، ثم عـادت تنظر إلـى المكتب وتعبـث بالقلـم. ولقد فسَّـر الطبيب تلـك النظرة العابـرة نحوه بأنها دليل على اهتمامها بالإجابة عن تساؤلها المحيِّر الذي طرحته وهو: «كيف أسمع أشياء لا يسمعها غيري؟»، فقال:

- الإنسـان وهو نائم، ألا يرى ويسـمع أشياء لا يراها أو يسمعها سواه؟

- نعم، ولكنني لا أكون نائمة، بل أسمع كل هذه الأشياء وأنا في تمام اليقظة.

- أعـرف ذلـك، ولكن مخ الإنسـان يتصرف أحيانًـا كما لو كان صاحبه نائمًا، فيسمع أصواتًا لا وجود لها.

قالت شاعرة برعب شديد:

- هل يعني هذا أنني مجنونة؟

ضحك الطبيب قائلًا:

- لا طبعًـا، الخـوف مـن الجنـون هـو أكبـر دليـل على سـلامة العقل.

وأردف قائلًا:

- أريد أن أسـألك سـؤالًا وأرجو الإجابة عنه بمنتهى الصراحة: هل تكرهين شخصًا معينًا؟

- لا، أنا لا أكره أحدًا، هم الذين يكرهونني.

ومسحت دموعًا طفرت من عينيها. قال الطبيب مبتسمًا:

- إنسانة رقيقة ولطيفة مثلك لا يمكنني تصوُّر وجود من يكرهها، لا بد أنهم يغارون منك.

قالت بدهشة:

- أيغارون منِّي؟! هل هذا معقول؟ لا شيء عندي يستدعي غيرة أي إنسان.

- يبدو يا آنسة سهير أنك لا تعرفين قدر نفسك، ولكن أجيبيني عن سؤالي: من الذي تظنين أنه يكرهك؟

ظلت مطرقة إلى الأرض فترة ثم قالت دون أن ترفع رأسها:

- بابا.

قال بدهشة:

- بابا؟! هذا مستحيل. لو كان يكرهك كما تقولين، هل كان يهتم ويستدعيني لرؤيتك ولم يستطِع إخفاء قلقه من أجلك ولهفته عليك؟ هل نمتِ ليلة أمس نومًا مريحًا؟

- لا، بل نمت نومًا متقطعًا وأرِقتُ فتراتٍ طويلة.

- ألا تذكرين حُلمًا حلمتِه في أثناء فترات النوم؟

- حلمتُ حلمًا تتكرر رؤيتي له كثيرًا.

- تكررت رؤيتك لهذا الحلم نفسه؟ وماذا ترين في هذا الحلم؟

أطرقت للأرض ثم قالت بعد فترة تردد:

- أحلُم أنني محكوم عليَّ بالإعدام ويسير معي شخص لتوصيلي إلى المشنقة.

- هل تعرفين هذا الشخص؟

- نعم، أعرفه.

- من هو؟

قالت بعد لحظة صمت:

- بابا.

- هل حاول والدك إجبارك على الزواج من شخص لا تشعرين نحوه بعاطفة؟

- مثل هذه الأشياء لا تخطر على بال والدي. إنه لا يفكر في زواجي.

ثم انتفضت بغتة وهمَّت بالقيام، ولكنها ظلت جالسة ناظرة إلى الطبيب وكأنها تستنجده قائلة:

- أسمعتَ يا دكتور، ها هو ذا صوت الأجراس مرة أخرى!

قال الطبيب بهدوء:

- هذا الصوت لا وجود له إلا في أذنيك أنتِ.

- ألم تسمعه حضرتك؟

- لا، لم يسمعه غيرك.

- اسمعي يا سهير، أريد منك الآن أن ترجعي بذاكرتك إلى أيام الطفولة، ما أول شيء تتذكرينه في حياتك؟

- أول شيء أتذكره؟

- نعم، تذكري، تذكري جيدًا.

ثم أردف قائلًا وعلى فمه ابتسامة:

- هل تتذكرين مثلًا يوم ولادتك؟

لأول مرة في هذه الجلسة تضحك سهير قائلة:

- لا، لا أتذكر هذا اليوم.

قال الطبيب وما زال ناظرًا إلى سهير مبتسمًا:

- الحمد لله، كنت أريد أن أراك مبتسمة.

ثم أردف قائلًا وقد اكتسب وجهه ملامح جادة:

- وماذا تتذكرين إذًا؟ أول شيء تتذكرينه. أقول لك أول شيء أتذكره أنا في حياتي؟ أتذكر خادمة تحملني على كتفها وتهرول حول منضدة في وسط غرفة، تغني وتقول:

«اللوبْ اللوبْ، الهوا شق التوب.. اللوب، اللوب، اللباليب، الهوا شق الجلاليب».

ضحكت سهير وأردف الطبيب قائلًا:

- وكانت سني في ذلك الوقت حوالي سنتين أو ثلاث.

قالت سهير وما زالت تضحك:

- وما هذا اللوبْ؟

قال مبتسمًا:

- لست أدري، اسألي الخادمة. ما أول شيء تتذكرينه أنت؟

ظلت سهير فترة تعصر ذهنها وتغوص في أعماق ذاكرتها ثم قالت:

- أول شيء أتذكره.. لعبة، نعم، لعبة كان قد أحضرها أبي لفاتن أختي.

- ماذا كانت هذه اللعبة؟

- عروسة.. تتحرك بالزمبلك.. تدور وتنبعث منها موسيقى.

- هل يوجد حادث معين يذكِّرك بهذه اللعبة؟

بعد فترة تفكير قصيرة، قالت:

- لست أدري، ولكن ما أذكره هو أنني تشاجرت مع فاتن وضرب كل منا الآخر. لقد شُغفْتُ باللعبة شغفًا شديدًا وحاولتُ أخذها لألعب بها، ثم اختطفْتُها واحتضنْتُها، ولكن أبي أخذها منِّي وأعطاها لفاتن..

واختنقت سهير بالبكاء فأطرقَت إلى الأرض في صمت، فقال الطبيب بهدوء:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بكيت وشكوت لخالي الذي كان في زيارتنا، فأخذني وخرجنا ودار يبحث في المحال التجارية عن لعبة مثلها فلم يجد، فاشترى لي عروسة تقول: ماما وبابا.. فرِحْتُ بها فرحًا شديدًا، وذهبت أريها لأبي.

وبدت سهير كأنها ذابت في الذكريات.

- انظر يا بابا، العروسة تقول: بابا وماما.

- من أحضر لك هذه العروسة؟

قال الطبيب برفق:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- انتزع أبي العروسة من يدي بغضب وصفعني على أذني وألقى بالعروسة على الأرض.

ولم تستطِع مقاومة البكاء فقالت وهي تبكي:

- كانت سني في ذلك الوقت نحو خمس سنوات، وحتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا أخذ منِّي العروسة، ولا أعرف لماذا ضربني!

وانخرطت في بكاء صامت حاولت إخفاءه فأخذت تعبث بالقلم على الورقة. سألها الطبيب:

- هل رأيتِ العروسة بعد ذلك؟

- لا

نظر إليها الطبيب مبتسمًا وقال:

- ماذا ترسمين؟

- أنا لا أرسم، إنها مجرد «شَخْبَطَة».

مد الطبيب لها يده قائلًا:

- أريني الورقة لأرى هذه «الشخبطة».

أعطته الورقة دون أن تنظر إليه وقد ارتسمت على وجهها ملامح حزن، فأخذ يتأمل ما في الورقة من «شخبطة» ثم قال:

- إنها ليست «شخبطة»، فلقد رسمتِ مشنقة..

نظرت بانزعاج إلى الطبيب قائلة:

- مشنقة؟! لا، أنا لم أفكر في ذلك!

***

أخرج الطبيب دفتر الروشتات من الحقيبة وكتب العقاقير اللازمة للعلاج ومواعيد تناولها وكمياتها، شارحًا كل شيء بخط واضح أنيق، وفصل الورقة من الدفتر وأبقاها في يده، ثم نظر إلى ساعة يده وقال:

- يا! لقد قضيتُ معكِ وقتًا طويلًا، من يجلس معك لا يشعر بمرور الزمن.

وقف، فوَقفتْ هي أيضًا وصافحها وربت على ظهرها قائلًا:

- سأخلِّصك من جميع متاعبك، فاطمئني ولا تقلقي.

***

طوال هذه الفترة كان الأب جالسًا في الصالون. سلمه الطبيب الروشتة قائلًا:

- تتناول الآنسة سهير هذه العقاقير ابتداءً من اليوم، وهي محتاجة أيضًا لبعض الصدمات الكهربائية، كما يلزمها في الوقت نفسه علاج نفسي، سأتولى علاجها. ولكن قبل انصرافي أودُّ أن أسألك سؤالًا يا أستاذ راتب.

- تفضل يا دكتور.

- قل لي بصراحة، هل سبق أن حدثت جريمة في هذا البيت؟

قال الأب بدهشة:

- جريمة؟! لا يا دكتور، لقد عشنا طوال حياتنا في هدوء لم يعكّر صفوه سوى وفاة زوجتي، والدة فاتن وسهير.. ولماذا هذا السؤال؟

- لاحظت أن سهير تعاني شعورًا بالذنب شديد الوطأة، وكأنها ارتكبت جريمة.

قال الأب متعجبًا ساخرًا:

- سهير ترتكب جريمة؟! أية جريمة يا دكتور؟ إنها شديدة الحساسية مرهفة المشاعر، تحب الموسيقى!...

قاطعه الطبيب قائلًا:

- على أية حال، المسألة ما زالت في حاجة إلى مزيد من الدراسة، الزيارة التالية يُستحسن أن تكون عندي في العيادة، سأحدد موعدها بالتليفون.

- وهو كذلك يا دكتور.. هل تعتقد أن حالتها خطيرة؟

- أعتقد أن علاجها في هذه المرحلة ميسور، ولكن أوصيكم بمراعاة مشاعرها إلى أقصى حد؛ إذ إن أية إثارة أو استفزاز قد يسببان مضاعفات خطيرة.

* * *

بعد خروج الطبيب، أقبلت سهير على أبيها بلهفة تسأله لتطمئن على نفسها:

- ماذا قال لك الدكتور يا بابا؟ هل قال إنني مجنونة؟

قال الأب بلا اكتراث، وهو يحمل حقيبته ويستعد للخروج من باب البيت للذهاب إلى عمله، وكأنه يطلق نكتة بارعة:

- لا، بل قال إنك مجرمة.

وضحك ضحكة عالية، ثم أغلق الباب.

6

ظلـت سـهير قابعـة في غرفـة المكتـب سـاعات غير محسـوبة مـن عمرهـا لا تعـرف مداها، شـاعرة وكأنهـا تحت وطـأة كابوس مـروِّع. رفضـت تنـاول الغداء عندمـا نبَّهتْهـا بدرية لذلـك وأقفلت بـاب الغرفة شـاعرة بأن ذهنها قـد توقف عن التفكيـر وعن الإدراك السـليم لمرور الوقـت. عندما شـعرت بأن ظهرهـا يؤلمها حاولت القيـام، ولكن رجليها خذلتاها؛ إذ بدتا عاجزتين عن حمل جسـدها النحيل فجلست، ولكنها بعد فترة شعرت بملل وقلق شديد فوقفت متحاملة على نفسـها، وبخطوات بطيئة ومسـتعينة بالدرابزين بدأت تصعد السـلم متجهة إلى غرفتها لتلوذ بها كعادتها عندما تعصف بها أزمة نفسية يكون احتمالها فوق طاقتها.

***

لمـاذا يقـول الطبيب لوالدي إنني مجرمة؟! هـل في ملامحي ما يدل على ذلك؟ وما الجريمة التي اقترفتها؟ إنني لا أحتمل رؤية قطة تتألـم، أو أي مخلـوق يتعذب، لقد امتنعت عـن أكل الدجاج عندما رأيتهـم يذبحون دجاجة، وعافت نفسـي أكل لحـم الخروف عندما

شاهدتهم في طفولتي يذبحونه، وما زال أبي يتندَّر ويقص على أصدقائه ذهابي إليه باكية وأنا في الثامنة من عمري قائلة له: إنني لا أريد الذهاب إلى الجنّة. وعندما دُهش لذلك واستوضح منِّي السبب قلت له: إن المُدرِّسة قالت لنا: إن المذنبين سيُحرقون في النار عدة مرات، لا مرّة واحدة؛ إذ كلما احترقت جلودهم استُبْدِلَتْ بها جلود جديدة ليُحرَقوا من جديد. وقلت لأبي: إنني ليس في استطاعتي أن أعيش سعيدة وأهنأ بالجنة وبالقرب منِّي أناسٌ يُعَذَّبون هذا العذاب الرهيب. فكيف أكون مجرمة؟! لماذا يظلمني جميع الناس؟ حتى الطبيب الذي أتى ليعالجني واستبشرت به وبدأت أشعر بشيء من راحة النفس بعد فترة من الحديث معه، لماذا يقول لأبي إنني مجرمة؟! ويردد كلامه أبي الذي كرَّس حياته للدفاع عن المظلومين، كما يقول، فلماذا لم يدافع عنِّي عندما سمع ذلك من الطبيب؟ ألم يشعر بأنني مظلومة؟

***

عندما وصَلتْ إلى قمة السلم رأت أختها فاتن مهرولة لتهبط فاستوقفتها قائلة بنبرة حادة:

- فاتن..

توقفت فاتن على الفور في وضع ثابت وكأنها تحولت إلى تمثال والتفتت بدهشة إلى سهير قائلة:

- ماذا تريدين؟

- هل تصدقين أنني مجرمة؟!

- من قال ذلك؟

- الدكتور قال ذلك لبابا! هل من المعقول أن يقول الدكتور مثل هذا الكلام؟

- لست أدري، لم أكن معهما.

- ولكنك تعلمين أنني لست مجرمة، فنحن نعيش معًا في بيت واحد طوال عمري.

دق جرس الباب، فقطعت فاتن الحوار وقالت وهي تسرع بالنزول لفتح الباب:

- لا بد أنه خالد!

* * *

انسحبت سهير ودخلت غرفتها وفتحت فاتن باب البيت قائلة لخالد:

- أهلًا وسهلًا، تفضل. لقد تأخرت اليوم، وليست هذه عادتك عندما تكون في إجازة، سأخصم منك خمس درجات في المواظبة.

ضحك خالد وقال:

- أحقيقة تأخرت؟ كم الساعة الآن؟ إنها ما زالت السادسة وعشر دقائق.

- كان المفروض أن تكون هنا الساعة الخامسة تمامًا، على أية حال سماح في هذه المرة، ولكن إياك أن تتكرر فتصبح من أصحاب السوابق.

ضحك خالد وهو يجلس على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه في الصالون قائلًا:

- اطمئني، لن تتكرر ولن أصبح من أصحاب السوابق.

وما كادت تجلس فاتن حتى اتجه ببصره نحو الباب قائلًا:

- كيف حال سهير؟ أين هي؟

قالت فاتن وقد شعرت بشيء من التوتر:

- سهير، سهير، أكلما أتيتَ تسأل عن سهير؟ أجئتَ لرؤيتي أم لرؤية سهير؟ إنها فوق في غرفتها.

دهش خالد لإجابة فاتن، فالتفت إليها وقال مبتسمًا:

- أتغارين من سهير يا فاتن؟

قالت بشيء من العصبية:

- ليس من المعقول أن أغار من واحدة كهذه، ولكنني لا أفهم سر سؤالك الدائم عنها.

- لا لسبب سوى إشفاقي عليها، إنها مسكينة.

- ولماذا تعتقد أنها مسكينة؟ إنها خبيثة، ماء من تحت تِبنْ، كل ما تعمله مجرد تمثيل، تحب أن تلفت الأنظار إليها، إنها هكذا دائمًا، تلتذُّ بعطف الناس عليها.

قال خالد محاولًا تغيير مجرى الحديث:

- على أية حال لا داعي للكلام في هذا الموضوع، أريد أن أسألك سؤالًا، فكرت أن أطلب منك الإجابة عنه بالتليفون أمس.

انتبهت إليه باهتمام قائلة:

- أشيء مهم لهذه الدرجة؟

قال وهو مطرق إلى الأرض:

- شيء يحيِّرني أحيانًا.

قالت وقد أوشك أن ينفد صبرها:

- ما هو؟

قال وما زال مطرقًا إلى الأرض:

- أتحبينني يا فاتن؟

قالت بسخرية:

- أهذا ما يحيِّرك؟

- أجل؛ لأن حبي لك يتجاوز كل الحدود.

- لا توجد حدود للحب؛ فالحب ليس قطعة أرض ولا خطًّا يفصل دولتين، وإجابتي عن سؤالك هي أنني لو خُيِّرْتُ بينك وبين عيني لاخترتك أنت.

- ولكنكِ في هذه الحالة لن تستطيعي رؤيتي.

- بل سأراك، فأنا أراك ماثلًا في خيالي عندما أغمض عينيّ، كما أراك في أحلامي، أحلام اليقظة وأحلام المنام، ولم أكن أعلم أن الحب بهذه الروعة وذلك الجمال إلا بعد أن رأيتك. شعرت بأنني أصبحتُ في دنيا غير الدنيا، أظل في انتظار قدومك طوال فترة غيابك، حتى إذا أتيتَ ورأيتك أظل خائفة من لحظة فراقك.

- إنها أجمل أيام حياتنا.

- الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا نشعر ونحن في الشتاء وكأننا في الربيع. ليس في فكري سواك. لولاك لشعرت وكأن حياتي صحراء.

بغتة، أطل وجه سهير من باب الغرفة قائلة:

- فاتن..

انتفضت فاتن فزعًا وقالت محاولة السيطرة على أعصابها:

- أتريدين شيئًا يا سهير؟

- أجل، أريد أن أسأل خالد سؤالًا

قالت فاتن بسخرية:

- أعتقد أنه السؤال نفسه الذي سمعته منك عدة مرات.

قال خالد:

- تعالي يا سهير، أنا مستعد للإجابة عن أي سؤال.

اجتازت سهير عتبة الباب وقالت بصوت متهدج وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

- هل من الممكن يا خالد أن أكون مجرمة؟!

قال خالد بدهشة وانفعال:

- مجرمة؟! من قال ذلك؟

خرج صوتها مبتلًا بدموعها وهي تقول:

- الدكتور منير أدهم الذي حضر اليوم لعلاجي.

قال وقد ازدادت دهشته:

- هل قال لك ذلك؟!

- لم يقُل لي، ولكنه قال لأبي وأبي قال لي.

- من يقُل مثل هذا الكلام لمريضة جاء لعلاجها يكُن قليل الأدب.

قالت وقد بدت شاردة الذهن:

- ربما أكون مجرمة دون أن أدري.

أبدى خالد اهتمامًا شديدًا بهذا الموضوع تجسد في ملامح وجهه الذي تقلصت عضلاتُه وهو يلتفت إلى فاتن قائلًا:

- أي طبيب هذا؟ لم تذكري لي شيئًا عنه!

قالت فاتن بهدوء:

- بابا استدعى لها طبيبًا إخصائيًا في علاج الأمراض النفسية والأعصاب، وظل معها مدة طويلة يسألها ويفتش في خبايا أفكارها، وها هي ذي النتيجة.

قالت سهير شاعرة بإحباط شديد وخيبة أمل:

- كان يُخيَّل إليَّ أنه طبيب ممتاز وكنت قد استرحت له.

قالت فاتن وفي حديثها نبرة سخرية:

- يبدو أن أشياء كثيرة تخيَّلُ إليك.

تغاضت سهير عن النبرة الساخرة لأختها وقالت:

- لـم أكن أتصور أن يقول عني شـيئًا رهيبًا كهذا؛ لذا أجدني في لهفة للقائه لأستوضح الأمر.

ثم التفتت إلى أختها وقالت وهي تهم بمغادرة الغرفة:

- لا تغضبـي منِّـي يـا فاتن إذا كنـت قد عكرت صفو جلسـتكما وسببت لكما بعض الكدر، فأنا في ضيق شديد، وظللْت مدة طويلة منتظرة انتهاءكما من الحديث حتى لا أكون سـببًا في قطْعه، ولكنني لم أستطع الانتظار مدة أطول لشدة حزني وألمي.

قالت فاتن وفي حديثها نبرة تأنيب:

- إذًا فلقد سمعتِ كل ما دار بيننا من حديث.

- أجل، سمعته رغمًا عنِّي، كلمةً كلمة.

واتجهـت ببـطء مطرقـةً إلـى الأرض نحو السـلم المـؤدي إلى غرفتها باذلةً جهدًا كبيرًا لصعود درجاته.

قالت فاتن:

- أرأيتَ جُرأتها؟ كانت واقفة تنصت لحديثنا.

- إذًا لا بد أنها سمعت ما قلته عنها.

- بكل تأكيد، على أية حال، لا يهم.

- ولكن كان يهمني ألا نسبب لها حزنًا.

- هيا بنا نذهب إلى أي مكان بعيدًا عن هذا النكد.

- كما تحبين.

* * *

حانت من فاتن التفاتة نحو البيت وهي تهم بركوب السيارة، فصاحت قائلة:

- انظر!

قال خالد بفزع:

- ماذا حدث؟

- سهير تطل علينا من النافذة.

- أرعبتِني، لا تصرخي في أذني هكذا مرة أخرى.

- شيء عجيب أن تفزع من كلمة كهذه ويصفر وجهك.

- وماذا يضيرك لو نظرَت سهير إلينا من النافذة؟ هل نحن في الحمّام؟ ربما كانت ترغب في المجيء معنا.. هل أناديها؟

قالت بسخرية:

- لا أظن أنها تقبل بعد اعترافها بالاستماع لحديثنا كلمةً كلمة، هيا بنا.

ثم أردفت قائلة:

- أنا لا أحب نظراتها هذه؛ فهي تشبه من ينظر إلى شخص يتناول طعامه.

***

ظلت سهير فترة شاردة البصر لا ترى سوى أفكارها المظلمة المغلفة باليأس.

كان الطبيب ملاذي الذي لجأتُ إليه، ولكن خاب أملي فيه، فلمن ألجأ بعد أن فقدت عطف أبي؟

- *ماذا قال لك الطبيب يا بابا؟ هل قال إنني مجنونة؟*

- *لا، بل قال إنك مجرمة، ها ها ها.*

انطلقت من فمه تلك الكلمات كرصاصة أصابت قلبي، وشعرت بضحكاته كسكاكين تمزِّق صدري، فبمن ألوذ الآن؟ هل ألقي بنفسي من النافذة؟ لن يحزن لموتي أحد. كانت والدتي ستحزن لمصرعي لو ظللت على قيد الحياة، ولكنها لو عاشت لما

تعذبْتُ؛ فأبي يكرهني لأن ولادتي كانت سبب موتها. ليتها عاشت ومتُّ أنا.

اقتحمت بدرية الغرفة فتوقفت في ذهن سهير دوامة التفكير وأخذت تجفف دموعها. كانت بدرية، التي لم تعرف الزواج والأمومة، تشعر نحو سهير بمشاعر الأم؛ فلقد حملتها على كتفها واعتنت بها طوال فترة الطفولة، ولكن سهير لم تشعر نحوها بشعور الطفلة نحو أمها؛ إذ لم تستطِع التخلص من سيطرة الإحساس بوفاة أمها، وأن مجيئها إلى الحياة هو الذي سلب الحياة من أمها.

قالت بدرية بفزع يغلِّفه الحنان:

- كفى الله الشر، لماذا تبكين يا سيدتي؟

- أشعر بضيق شديد وحزن فوق احتمالي.

- أقفلي الشباك، الدنيا برد. يبدو أنها ستمطر والعاصفة ستعود.

- سألقي بنفسي من الشباك لأرتاح من العذاب.

هجمت بدرية على النافذة وأخذت تغلقها قائلة:

- اسم الله عليك، سلامتك، بَعُد الشر عنك.

جلست سهير على الكرسي وقالت وقد أخذت دموعها تسيل بغزارة:

- أريد أن أموت.

انتهت بدرية من إغلاق النافذة قائلة:

- اللهم اخزِك يا شيطان. خذي كتابًا اقرئي فيه، أو انزلي دقّي على البيانو، اطرحي همك عليه، فهو حمَّال الأسى.

غمغمت سهير قائلة:

- لا أحد حمَّال الأسى مثلي.

- سأذهب أعمل لك فنجان ينسون يروّق دمك.

***

عادت بدرية إلى الغرفة ومعها فنجان الينسون فلم تجد سهير، سارت تبحث عنها في أنحاء البيت بلا جدوى. صاحت منادية:

- يا سيدتي سهير، يا سيدتي سهير.

فلم تسمع ردًّا.

- غير معقول أن تكون خرجت في مثل هذا الجو؛ فالمطر يهطل والعاصفة اشتدت.. أين ذهبت؟! هل يحدث ذلك في المدة القصيرة التي صنعتُ فيها فنجان الينسون؟

أخذت تجول في أنحاء البيت وفي يدها فنجان الينسون، ثم وضعت الفنجان في المطبخ شاعرة بقلق شديد. صعدت إلى الدور العلوي ووقفت تنظر من خلال زجاج نافذة تطل على واجهة البيت

متمنيـة رؤية سـهير قادمة، ولكن طـال انتظارها فهبطـت إلى الدور الأرضي وجلست في ركن المطبخ مسندة رأسها على كفها.

دق جـرس البـاب فأسـرعت بفتحه آملـة أن ترى سـهير ولكنها فوجئت بعودة سيدها الذي بادرها قائلًا:

- أهنا فاتن أم خرجت؟

قالت بنبرة حزينة:

- لا أحد هنا سواي.

قال بدهشة:

- لا أحد هنا سواكِ؟! ما معنى هذا؟

- يعني ألَّا أحد بالبيت سواي.

- لماذا؟ أليست سهير هنا؟

- لا

- وأين ذهبت؟

- لا أعرف.

قال بغضب، شاعرًا بقلق شديد:

- كيف لا تعرفين؟

- وكيف أعرف؟ كنت أتكلم معها ثم ذهبت أعمل لها فنجان ينسون وعدت فلم أجدها.

صاح قائلًا:

- إنها لا تميل لمغادرة البيت، فما الذي دفعها للخروج في هذا الجو المرعب؟ أمتأكدة أنها خرجت؟

- ما دامت غير موجودة في البيت فلا بد أنها خرجت.

- إنها لا تزور أحدًا، فأين ذهبت في هذه الساعة المتأخرة؟ شيء غريب.

* * *

ذهب الأب إلى غرفة المكتب وجلس إلى مكتبه. رفع سماعة التليفون، ولكنه أعادها إلى مكانها عندما دق جرس الباب آملًا أن يرى سهيرا، أسرعت بدرية بفتح الباب فرأت فاتن وخالد مبتلَّين. دخلا وأسرعت بدرية بإغلاق الباب. قال خالد وهو يخلع معطفه يسلمه لبدرية:

- الجو فظيع.

همست بدرية في أذنه قائلة:

- سيدي هنا، في غرفة المكتب.

* * *

أسرع خالد إلى غرفة المكتب، في حين أسرعت فاتن إلى غرفتها لتغيير ملابسها. رأى الأستاذ راتب واقفًا يستعد لمغادرة الغرفة.

ذهبا معًا إلى الصالون، وبعد دقائق أقبلت فاتن وجلست بالقرب من خالد. قالت بدهشة:

- أين سهير؟ لم أجدها في غرفتها.

دُهشت عندما علمَتْ أنها خرجت في هذه العاصفة وشعرت بقلق شديد على أختها، وازداد قلقها عندما اتضح لها أنها تسللت دون أن يراها أو يعرف وجهتها أحد. قالت فاتن:

- ربما تكون عند منيرة صاحبتها.

قال الأب لفاتن:

- هل تعرفين رقم تليفونها؟

- أعرفه، سأتصل بها.

ذهبت فاتن إلى غرفة المكتب ثم عادت بعد فترة قصيرة وقالت إن سهير لم تذهب إلى منيرة.

غمغم الأب قائلًا:

- وأين ذهبت؟

ظلت بدرية واقفة معهم في الصالون لا تريد الابتعاد عنهم حتى تطمئن على سهير. سألها الأب:

- كيف كانت حالتها يا بدرية قبل خروجها؟ أمسرورة أم حزينة؟

- لم تكن مسرورة، بل حزينة ومقهورة، وقالت إنها، ربنا يحفظها ويحميها ويبعد الشر عنها...

قال الأب بلهفة:

- ماذا قالت؟

- قالت إنها تفكر... اسم الله عليها، تقتل نفسها.

وانخرطت بدرية في بكاء عنيف وامتقع وجه فاتن واضطرب ذهن خالد وفزع الأب لورود هذا الخاطر على ذهن سهير، قال:

- أخشى أن تعملها هذه البنت!

وقالت فاتن:

- ربما تكون عند بطَّة.

قال الأب وهو شارد الذهن:

- بطة؟! أية بطة هذه؟

- صديقتها.

- كلميها في التليفون.

- لا يوجد عندهم تليفون.

قال الأب بغضب، شاعرًا بإحباط:

- ولماذا لا يوجد عندهم تليفون؟!

- طلبوا تركيب تليفون منذ ست سنوات وحتى الآن لم يصلهم الدور.

قال الأب شاعرًا بالأسى والحيرة:

- وماذا نصنع الآن؟ وأين تسكن بطة هذه؟

- في كليوباترا.

قال الأب يائسًا:

- بيتها بعيد عنا، ومن يستطيع الذهاب إلى كليوباترا الآن في هذه العاصفة؟

قال خالد:

- إذا كانت العاصفة لم تمنع سهير من الخروج فمن الواجب ألا تمنعنا من البحث عنها. أنا مستعد للذهاب يا عمي وتأتي معي فاتن تدلني على البيت. لن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا، هيا بنا يا فاتن.

7

كان موعـد العيادة عند الدكتور منير أدهـم قد انتهى وأغلق بابها ولم يعد معه سـوى صالح، الذي يـؤدي للطبيب عدة خدمات؛ فهو التمورجي وسائق السيارة والطباخ، ويستخدم الطبيب الشقة كمنزل وعيـادة، ولا يجد حرجًا في ذلك؛ فهو غير متزوج. ومن التعليمات التي تلقاها صالح من الدكتور ألَّا يفتح الباب لأي شخص بعد انتهاء موعد العيادة إلا بإذن منه.

كان الطبيب قد اسـتبدل بالقميص والسروال والمعطف الأبيض ملابس النوم وفوقها الروب المنزلي وجلس إلى مكتبه يراجع رسالة ماجستير لأحد تلاميذه عندما أخذ جرس الباب يدق بإصرار. أسرع صالح إلى الاستفسار من الطبيب:

- هل أفتح الباب؟

- انظـر من خلال العين السـحرية أولًا لترى ما إذا كان شـخصًا نعرفه.

نظر صالح وأسرع إلى الطبيب قائلًا:

- إنها فتاة.

قال الطبيب مكلمًا نفسه:

- وماذا تريد الآن؟

ثم أردف قائلًا:

- أدخلها ودعها تنتظر في الصالون، فقد تكون في محنة.

* * *

دُهش الطبيب وشعر برجفة عندما رأى سهير. كانت شاحبة الوجه، تبدو منهارة وكأن سنينَ عديدة مرَّت عليها منذ رآها في صباح اليوم. صافحها بحرارة قائلًا:

- خيرًا يا سهير، ما بك؟ هل جئتِ وحدك في هذه العاصفة أم مع والدك؟

بكلمات مرتعشة كجسدها، قالت:

- حضرت وحدي، والدي لا يعلم أنني هنا.

قال بدهشة:

- ولماذا كل هذا العناء؟!

لم ينتظر إجابتها، بل طلب منها الجلوس وأسرع بإحضار مدفأة كهربائية وضعها في مكان مناسب، ثم ذهب إلى المطبخ وأحضر كوبًا من اللبن الدافئ قدمه إليها قائلًا:

- اشربي هذا اللبن، سيدفئك ويريح أعصابك المتوترة.

أخذت كوب اللبن وبدأت تحتسيه وقد طفرت الدموع من عينيها فأخرجت منديلها ومسحت دموعها ثم أكملت شرب اللبن.

تُرى ما الذي دفع هذه الفتاة المسكينة إلى اقتحام هذه العاصفة الملعونة والحضور إلى بيتي في هذا الزمهرير؟ كيف احتملَتْ البرد طوال الطريق؟

- أما زلتِ بردانة؟

- النار المشتعلة في صدري تدفئني.

أية نار هذه التي في صدرها؟ أتعشم ألَّا تكون نار الغرام؛ فمثل هذه المشاعر تحدث كثيرًا بين ضحايا الأمراض النفسية والأطباء الذين يعالجونهن. استُر يا رب حتى لا تتعقد الأمور.

تشجَّع وقال:

- ما الذي أشعل هذه النار؟

- أنت أدرى بذلك.

يبدو أن ما توقعتُه قد حدث، في هذه الحالة سيتطلَّب الأمر علاجًا إضافيًّا كنت أتمنى أن نكون في غنى عنه.

- وما علاقتي بالموضوع؟

انهمرت دموعها، فانشغلت بتجفيف عينيها وأنفها، ثم قالت:

- ألسْتَ خائفًا مني؟

قال بدهشة:

- ولماذا أخاف منك؟ هل يخاف الإنسان من فتاة رقيقة وجميلة؟

- نعم، يخاف منها إذا كانت مجرمة!

لم يفهم الطبيب ما ترمي إليه فقال مدهوشًا:

- مَن المجرمة؟! لا تؤاخذيني إذا كنت لا أفهم شيئًا.

- ألم تقُل ذلك لأبي؟

بدأت تساور الطبيب شكوك في تدهور الحالة النفسية للمريضة خوفًا من أن تكون قد انزلقت إلى متاهة الشيزوفرينيا وبدأت تهذي.

- ماذا قلتُ لوالدك؟

- قلت له عني إنني مجرمة.

أخذ الطبيب يسترجع من ذاكرته كل كلمة قالها لأبيها فلم يعثر على هذا الاتهام المروِّع، وأخيرًا تذكَّر، فقال:

- أنا لم أقل أبدًا إنك مجرمة، لا قدَّر الله، فأنتِ أبعد الناس عن الإجرام، ولكنني قلت لوالدك إنك ترزحين تحت وطأة شعور بعقدة الذنب، وفرق شاسع بين شعور الإنسان بعقدة الذنب وارتكاب الجريمة، ولذا قلت: «كأنها ارتكبت جريمة». هل حضرتِ الآن خصيصًا لهذا السبب؟

- أجل، لم أجد من أشكو إليه حزني فحضرت أشكو إليك.

ثم اختنقت بالبكاء وهي تقول:

- لو كانت ماما على قيد الحياة لشكوت لها عذابي، ولكنني لم أجد من يهتم بأمري سواك؛ إذ من المفروض أنك تحاول شفائي ولم تحضر لتَزيد شقائي.

مسَّت هذه الكلمات شغاف قلب الطبيب. في هذه اللحظة سَمِعتْ سهير صوت قطار يبدأ الحركة ببطء ثم يسرع تدريجيًّا مطلقًا صفارة، فهمست قائلة وكأنها تكلم نفسها:

- سمعت الآن صوت القطار، وأعلم جيدًا أن القطارات لا تمر بالقرب من هذا المكان، فكيف يسمع الإنسان شيئًا لا وجود له؟!

- كل هذا سيُشفى بمشيئة الله. منذ متى حُرِمْتِ من حنان والدتك؟

- لم أرَ والدتي.

- كيف؟

- كانت ولادتي سببًا في وفاتها، سمعتهم جميعًا يقولون ذلك.

في هذه اللحظة أضاء ذهن الطبيب، فعرف شيئًا على جانب عظيم من الأهمية كان يجهله فسَّر له سبب شعور سهير بعقدة الذنب، ولكنه أسرَّه في نفسه وقال:

- هل يعلم والدك أنك عندي؟

- لا أحد يعرف.

- لا بد أنهم الآن في قلق شديد وانزعاج لغيابك المفاجئ.

***

رنَّ جرس التليفون في منزل الأستاذ زكي راتب فأسرع بالتقاط السماعة:

- ألـو.. أهـلًا وسـهلًا يا دكتـور.. شـكرًا يا دكتور وآسـف على الإزعاج.

***

عندما دق جرس باب البيت تسابق الجميع لفتحه، ولكن الأستاذ راتب كان أسبقهم. دخلت سـهير وخلفها الطبيـب، واتجهت نحو السلم للصعود إلى غرفتها، ولكن الدكتور استوقفها قائلًا:

- تعالي يا سهير، أريدك معنا بعض الوقت.

تـرددت قليلًا، ثم عادت ووقفت مطأطئة الرأس دون أن تصافح أحدًا أو تنظر إلى أحد.

استأذن خالد للخروج لارتباطه بأعمال لا بُدَّ من إنجازها وذهبت فاتـن لوداعه عند الباب، في حين اتجه الأب والطبيب وسـهير نحو غرفة الصالون، ولحقت بهم فاتن مدفوعة بحب الاستطلاع.

أخـذ الطبيـب فـي أثناء ارتشـاف الشـاي يتحـدث عن أسـباب التقلبـات المناخيَّـة ومـدى صحة التنبـؤات الجويـة، وعلاقة القمر واختلاف الفصول بالحالة النفسـية، وعندما انتهى من شرب الشاي ووضَـع الفنجـان على المنضـدة، فوجئ الجالسـون بسـماع جملة انطلقت من فم الطبيـب وكأنها صاروخٌ موجَّه، وذلك عندما التفت إلى الأب وقال بهدوء خالٍ من أي انفعال:

- يؤسفني يا أستاذ راتب، قبل خروجي من هنا، إحاطة علمك بأنك لا تصلح لأن تكون أبًا.

أذهلت المفاجأة الأب فظل برهة ناظرًا إلى الطبيب لا يدري ما يقول، ثم قال بانفعال حاول أن يكبح جماحه على قدر طاقته:

- هل جئت لتشتمني وتهينني في بيتي يا دكتور؟

ثم اتجه بحديثه إلى ابنتيه قائلًا:

- قومي يا فاتن أنتِ وسهير اذهبا إلى غرفتيكما.

همَّتا بالقيام ولكن الطبيب قال بنبرة آمرة حاسمة:

- ابقي معنا أنتِ يا سهير.

انطلقت فاتن نحو غرفتها قافزة درجات السلم وبقيت سهير جالسة على حافة الكرسي شاعرة بالخجل والإحراج. التفت الطبيب إلى الأستاذ راتب قائلًا:

- أنت تذكر يا أستاذ راتب أنني قلت لك عند خروجي من بيتكم صباح اليوم إن في أعماق سهير إحساسًا بالذنب يعذبها، ومن شأنه الإيحاء لها بأنها ارتكبت جريمة، ولكن اتضح لي الآن أن سهير لم ترتكب هذه الجريمة. الذي ارتكب الجريمة شخص آخر.

قال الأب بسخرية:

- من هو يا تُرى؟

- أنت، أنت يا أستاذ راتب.

- أنا لا أفهم شيئًا، هل تقصد بكلامك هذا أنني أنا المجرم؟ هل جئت إلى بيتي لتقذف في وجهي بهذه الكلمة؟

- لا، بل جئت إلى بيتك لأشفي ابنتك، ولكنني بكل أسف اكتشفت إحدى الجرائم التي لا يعاقِب القانون مرتكبَها فيظل حرًّا، في حين يصطلي بلهيب عذاب الضمير إنسان بريء، وهو عذابٌ أشد قسوة من القتل؛ فالقتل يحدث في لحظة، أما هذا العذاب فيظل ممتدًّا حتى نهاية العمر. أنت من رجال القانون وربما تكون أدرى منّي بمثل هذه الأمور. لماذا قلت لسهير إنها مجرمة؟!

- ألم تقل لي أنت ذلك يا أخي؟

- لم أقل ذلك، بل قلت لك بالنص: «إن سهير ترزح تحت وطأة شعور بالذنب وكأنها ارتكبت جريمة»، وفرق بين قولنا: «إن فلانًا ارتكب جريمة» وقولنا: «إنه يشعر وكأنه ارتكب جريمة»، كالفرق بين قولنا: «إن فلانًا يتسلق هرم خوفو»، وقولنا: «إن فلانًا لفرط إرهاقه يشعر وكأنه يتسلق الهرم الأكبر»، أليس كذلك؟ ومن المفروض أن يراعي الأب مشاعر ابنته.

قال الأب وهو مطرق إلى الأرض:

- لم أكن أتصور أن كلمة تافهة كهذه تسبب لسهير كل هذا الانزعاج.

- لقد حذرتكم وطلبت منكم تجنب كل ما قد يثير أعصابها؛ فحالتها النفسية لا تحتمل أي إرهاق أو استفزاز.

- لقد قلتُها دون أن أشعر.

- يبدو يا أستاذ راتب أنك تعامل سهير منذ ولادتها نوعًا من المعاملة، دون أن تشعر، يختلف عن معاملتك لأختها فاتن.

- مستحيل.. إنني لا أفرق في تعاملي معهما على الإطلاق.

قال الطبيب بنبرة سخرية:

- لو كنتَ فعلتَ ذلك لما كان هناك ما يدعو لاستدعائي لعلاج سهير.

- معاملتي لا علاقة لها بمرضها، من المحتمل أن يكون سبب مرضها شعورها، خطأً، بأنها أقل جمالًا من أختها.

- أنتم الذين أوحيتم لها بذلك؛ فهي لا تقل جمالًا عن فاتن، وما اكتشفته في حديثي معها، على الرغم من عدم ذكر ذلك على الإطلاق، أنك يا أستاذ راتب سبب الشقاء الذي يعصف بحياة هذه

البنت. إنها ضحية بريئة، فلطول ما رأت وسمعت في هذا البيت أصبحت تعتقد أنها السبب في وفاة والدتها، ولكن مَن الذي أوجدها في الحياة؟ ومَن السبب في ولادتها؟ أنت الذي أوجدتها في الحياة بإرادتك يا أستاذ راتب، إذًا فأنت المسئول عن وفاة والدتها وليست هذه مسئوليتها. أنت المسئول.

بدأت ترن في أذني سهير أصوات متداخلة تردد كلمة: «أنت المسئول».. «أنت المسئول»... وكأنها صدى قادم من بعيد يرتفع شيئًا فشيئًا ليصبح دويًّا لا تقوى على سماعه أذُناها، فانتفضت واقفة وصاحت بأعلى صوتها قائلة:

- كفى، كفى.

وانخرطت في بكاء عنيف، وفي أثناء بكائها ارتفع صوت هدير الرعد فاستبدَّ بها الرعب وانطلقت تعدو صاعدة السلم لتلوذ بغرفتها. همَّ الأب باللحاق بابنته ولكن الطبيب جذبه من ذراعه وأجلسه جنبه وهمَّ بالتحدث معه ولكن بدرية لم تمكِّنه من ذلك؛ إذ في هذه اللحظة اندفعَت من المطبخ في ذعر شديد قائلة:

- ما بها؟ ما بها سهير يا دكتور؟ ماذا حدث لها؟

نهرها الأب قائلًا:

- اسكتي أنتِ، اذهبي حيث كنتِ والزمي الصمت.

اتجهت نحو السلم وأخذت تصعد درجاته مغمغمة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لماذا تعذبونها كل هذا العذاب؟

قال الأب ساخرًا:

- أمسرورٌ لهذه النتيجة؟ مَن السبب فيما حدث الآن، أنا أم أنت يا دكتور؟

- لا خوف عليها على الإطلاق، ستهدأ بعد قليل.

وكتب شيئًا في روشتَّة سلمها للأب قائلًا:

- تأخذ قرصًا من هذا الدواء قبيل النوم مع كوب من اللبن الدافئ لمدة أسبوع. وكل ما أرجوه الالتزام بالحرص الشديد على تجنب كل ما قد يسبب لها أية إثارة أو أي انفعال. سهير محتاجة للشعور بالحنان.

ثم أردف قائلًا وهو يغلق حقيبته:

- وقبل خروجي لي كلمة معك يا أستاذ راتب.

- وهل بقيت كلمات أخرى؟

- أرجو ألا تغضب من كلامي؛ فأنا مسئول عن علاج سهير، وما سمعته منِّي الآن هو أول خطوة من خطوات العلاج.

قال الأب معاتبًا:

- هل تعتبر إهانتي أمام ابنتي يا دكتور خطوة من خطوات العلاج؟ أي علاج هذا؟ إن كلامك هو سبب إثارة البنت بهذا الشكل العنيف.

قال الطبيب بهدوء:

- كلا، لقد أفاد هذا الكلام سهير فائدة كبرى. كان بمثابة عملية جراحية لاستئصال نسيج مريض؛ العملية ربما تسبب بعض الألم للمريض ولكن حياته تتوقف عليها. سهير كانت في مسيس الحاجة لسماع هذا الكلام منِّي لتشعر، ولو لمرة واحدة في حياتها، بوجود شخص يدافع عنها. لقد تعوَّدت سهير سماع كلمات الناس بالاتهام بصفة مستمرة وتُعامَل على أنها مجرمة؛ تصور حالة متهم بريء واقف في قفص الاتهام، والنيابة تكيل له الاتهامات دون وجود محامٍ يدافع عنه ويثبت براءته. سهير الليلة، لأول مرة في حياتها، تسمع إنسانًا يدافع عنها بحرارة وإخلاص؛ وفي الوقت نفسه كان من الضروري أن أفعل ذلك لأكسب ثقتها؛ فلو انعدمت هذه الثقة لن يكون للعلاج النفسي أي أثر. العلاج النفسي أصعب بكثير من غيره من الأمراض، ولكني أعتقد أن نظرتها للحياة ستبدأ في التحسن بسبب هذه المشادة التي حدثت الليلة. أوصيكم أن تلاحظوها

بهدوء وتتجنبوا إثارة أعصابها؛ فقد كانت شبه منهارة عندما جاءتني الليلة وقد اعترفت لي بأنها كانت تنوي الانتحار.

- نعم يا دكتور، لقد كانت في حالة ذهول؛ تصوَّر أن شخصًا وجد حقيبة يدها على دكة بجوار الكورنيش، وأحضرها منذ فترة.

- هل تبيت مع أختها أم في غرفة بمفردها؟

- لها غرفتها الخاصة.

- هل من الممكن أن أحضر في أثناء غيابها وأطَّلع على بعض محتويات غرفتها؟

- أعتقد أن من الممكن ترتيب ذلك.

- الزيارة المقبلة أحب أن تكون غدًا الساعة الخامسة عندي في العيادة، وأرجو أن تكون معها يا أستاذ راتب.

- طبعًا، طبعًا.

***

في صباح ذلك اليوم، لم يتسع وقت الأستاذ راتب لتناول فطوره واكتفى بفنجان شاي ارتشفه على عجل لئلا يتأخر عن المرافعة في قضية مهمة. كانت بدرية في غرفة المائدة ترفع بقايا الطعام عندما اندفعت سهير إلى الغرفة شاحبة الوجه قائلة:

- أنا لا أجد حقيبة اليد التي كانت معي أمس، ألم تريها؟

قالت بدرية وهي مستمرة في عملها دون أن تنظر إلى سهير:

- حقيبة يدك؟ لا، لم أرَها.

قالت سهير بلهفة:

- ألم تلاحظي ما إذا كانت معي عند عودتي ليلة أمس مع الدكتور أم حضرت من دونها؟

- لم ألاحظ ذلك. لم أكن مهتمة بحقيبتك، بل بعودتك أنت.

- هل من المعقول أن أكون نسيتها عند الدكتور؟

- إذا كانت عند الدكتور فستجدينها في الحفظ والصون، هل كانت فيها فلوس كثيرة؟

- الفلوس لا تهم، فيها أشياء أهم من الفلوس.

اقتحمت فاتن الغرفة قائلة بسخرية:

- نعم، كان فيها شيء مهم.

بوغتت سهير فانتفضت قائلة:

- فاتن؟!

- أجـل، كان فـي حقيبتك شـيء على جانب عظيـم من الأهمية بالنسـبة لـي؛ فهـو يخصنـي أنا ولا شـأن لـك بـه، ألا تقصدين هذه الصورة؟ ما الذي يجعلك تحتفظين بصورة خالد في حقيبتك؟

- إذًا كانـت معك الحقيبة وأنا أبحث عنها في كل مكان! وكيف تجرُئين على فتحها والتفتيش فيها كما يفعل اللصوص؟

- بل اللصة هي التي سرقت الصورة ووضعتْها في حقيبتها.

- وأين الحقيبة؟

- رميتها فوق سريرك.

بغتة دقت الأجراس في أذنَي سهير مختلطة بصوت صفير القطار وشـعرت بـدوار، فتملَّكت نفسـها وصعدت إلـى غرفتها مسـتعينة بالدرابزين وأغلقت بابها وانخرطت في البكاء.

8

عندما عاد الأب، كانت فاتن في غرفتها تحاول الانتهاء من قراءة رواية، وكانت سهير تحاول التخلص بلا جدوى من صوت العروسة التي اشتراها لها خالها وهي طفلة، ثم بدأ يختلط صوت العروسة وهي تقول «بابا» و«ماما» بصوت صفير القطار وبدء تحرُّكه. حاولت وضع سدادة من القطن في أذنيها للتخلص من هذه الأصوات بلا جدوى؛ إذ كانت تزداد ارتفاعًا، وأخيرًا نامت على جانبها ووضعت المخدة على رأسها، ولكن الأصوات استمرت تزعجها، وازداد عليها صوت آلة تنبيه سيارة خالد. فكّرت في احتمال حضوره فأسرعت بالنظر من خلال النافذة عسى أن ترى سيارته فلم تجد لها أثرًا، وبغتة تلاشت جميع الأصوات عندما سمعت أباها ينادي:

- فاتن.

أدركت سهير أن أباها حضر، فشعرت بقشعريرة في فروة رأسها. ظهرت بدرية بغتة أمام الأب وهو لا يزال في بهو البيت ولا يدري من أين أتت، فبادرها قائلًا:

- أين فاتن؟ هل خرجت؟

- لا يا سيدي، لم تخرج، إنها في غرفتها.

- ولماذا لم تستجِب لندائي؟

- يُهَيَّأ لي يا سيدي أنها غضبى.

قال بدهشة:

- غضبى؟! مِمَّ؟

- سيدتي سهير أغضبتها عن غير قصد.

دون أن يدري السبب انتقل إليه الغضب فتجهَّم وجهه واتجه نحو السلّم قائلًا:

- ولماذا تُغضبها سهير؟ سأذهب أستوضح الأمر.

* * *

عندما دخل غرفة فاتن ظلّتْ مضطجعة على السرير ولم تقفز للقائه كعادتها، وأخذت تمسح بمنديلها دموعًا لا وجود لها. رسم الأب على شفتيه ابتسامة وقال:

- ما بكِ يا فاتن؟ لماذا هذا العبوس؟

دون أن ترفع بصرها عن ملاءة السرير قالت:

- لا شيء.

- لا، بـل يوجـد شـيء. بدريـة تقـول إن سـهير كدّرتْـك، مـاذا حدث؟

قالت فاتن دون أن توجِّه بصرها نحو أبيها:

- أتذكـر يـا بابا صورة خالد التي كانـت موضوعة هنا في غرفتي واختفت وظللنا نبحث عنها في كل مكان فلم نجدها؟

- أجل، ما بها؟

- وجدتها اليوم.

- هذا يدعو للفرح، فلماذا الحزن إذًا؟

- وجدتها في حقيبة يد سهير

قال الأب بدهشة:

- ولماذا تضعها سهير في حقيبتها؟

- لا تسألني، اسألها هي.

- سأسألها؛ فهذا شيء يجب استيضاحه، لا تحزني، أنا لا أحتمل رؤيتك حزينة.

* * *

خرج من غرفتها عابس الوجه وطرق باب غرفة سهير فلم يسمع استجابة لطرقاته. حرّك أُكرة الباب استعدادًا لفتحه، ولكنه وجد الغرفة مغلقة بالمفتاح، كالعادة، فأعاد الطرق بقوة أشعرته بألم في مفصل إصبع السبّابة قائلًا بنبرة غاضبة:

- افتحي الباب يا سهير!

ترامى إلى سمعه من الجانب الآخر للباب صوت ضعيف يقول:

- نعم يا بابا؟

ثم سمع حركة المفتاح وفُتح الباب، ودخل الغرفة.

انتظرت سهير جلوس أبيها ولكنه لم يجلس فظلت واقفة. قال الأب مقطبًا حاجبيه:

- لماذا أغضبتِ أختك فاتن؟ كيف تجرُئين على أخذ صورة خطيبها دون إذن منها؟

ظلت سهير واقفة مطرقة إلى الأرض في صمت، فصاح الأب قائلًا:

- تكلمي.. لماذا أخذتِ الصورة من دون علمها؟

- هل تعرف لماذا؟ تعالَ معي لتعرف السبب.

سـارت بخطى بطيئة وفتحت الصوان، فدُهش الأب عندما رأى صورة مكبرة لخالد، قال:

- وما هذه أيضًا؟

- الصورة نفسها، صورة خالد.

وتهدج صوتها عندما قالت:

- كنت أكبر الصورة، أخذت الصورة الصغيرة لأرسـمها في هذا الحجم لكي...

ولـم تسـتطِع إتمـام الحديـث فأجهشـت بالبـكاء. قـال الأب بخشونة:

- ولماذا تفعلين ذلك؟

قالت سهير وقد اختلط صوتها بدموعها:

- لأهديها لفاتن، وأردت أن تكون مفاجأةً منِّي لأفرحها وأكسب حبها لي، وكنت أنوي رسـم صورتها هي أيضًا بهذا الحجم. ظللت شـهرًا أرسم هذه الصورة، فلقد سمعتها تقول إنها تفكر في الذهاب إلـى المصـوِّر لتكبيرهـا، وكانـت النتيجـة عكـس مـا كنـت أنتظر، فبـدلًا من أن تشـكرني على المجهود الذي بذلته أهانتني وشـتمتني واتهمتني بأنني لصّة.

وأجهشت بالبكاء قائلة:

- كلما عملتُ شيئًا لأي إنسان لأفرحه وأجعله يحبني تكون النتيجة أن يهينني ويشتمني.

شعَرَتْ بدوار فأسرعت إلى سريرها، استلقت عليه مديرة ظهرها نحو أبيها وجسدها ينتفض من البكاء.

غادر الأبُ غرْفة ابنته مطأطئ الرأس وقد شعر بقطرات الخجل تتفصَّد من جبهته.

عندما قصَّ الأب هذه القصة على فاتن شعرت بعطف شديد على سهير وأسرعت إليها لتعتذر عن الكلمات الجارحة التي رجمتها بها بلا رحمة.

***

- اعذريني يا سهير، لم أكن أعرف. أين الصورة الكبيرة التي رسمتِها؟ هل يمكنني رؤيتها؟

- لم تكتمل.

- لا يهم، أريد رؤيتها كما هي الآن.

- إنها في الصوان.

انبهرت فاتن بروعة الصورة، فظلت ناظرة إليها مشدوهة لا تقوى على تحويل بصرها عنها وغمغمت قائلة:

- لا يصنع مثل هذه الصورة سوى فنان عظيم، لم أكن أعلم أنك تملكين هذه الموهبة، ليتني أستطيع مكافأتك على هذا العمل الرائع.

- أنا لا أنتظر أية مكافأة.

- سأحضر لك الصورة للاحتفاظ بها حتى يكتمل الرسم.

- الرسم لن يتم.

قالت فاتن بدهشة:

- ولماذا لا يتم؟ أما زلتِ غضبى؟

قالت بصوت متهدج:

- لن أعيش حتى أكملها.

***

في اليوم التالي، عندما اقترب موعد الذهاب إلى الطبيب، خشيت سهير أن ينسى والدها الموعد، فسألت بدرية:

- هل خرج بابا أم لا يزال هنا؟

- إنه في غرفة المكتب وأمامه أوراق كثيرة.

***

هبطت سهير من الدور العلوي ببطء، شاعرةً بأنها مُقْدِمة على عمل شيء كانت تتمنى ألا تجد نفسها مضطرة لأدائه. كانت تتمنى أن يتذكر والدها ذلك الموعد من تلقاء نفسه. ما كادت تطل من خلال باب غرفة المكتب حتى وجدت منظرًا لم تكن تتصور رؤيته، فأجفلت وارتدَّت نحو السلَّم وأخذت تقفز درجاته. قالت لفاتن وهي تلهث:

- انزلي لرؤية أبي في غرفة المكتب.

قالت فاتن بفزع:

- ما به؟

- لست أدري، عندما هممت بدخول غرفة المكتب سمعته وكأنه... لست أدري، اذهبي أنت لتريه بنفسك.

***

لم يرَها عندما وقفت عند باب الغرفة ورأته يجفف دموعه، فقالت:

- بابا..

ندت منها هذه الكلمة وكأنها صرخة لا إرادية، فقال بفزع:

- فاتن؟

ثم أردف قائلًا، محاولًا أن يبدو هادئًا:

- ماذا تريدين يا فاتن؟

- هل تشعر بألم في عينيك؟

- عيناي؟ أجل، أشعر بالتهاب في عينيَّ.

- أم هناك ما يحزنك؟

- يحزنني؟ لا، لا يوجد ما يحزنني، ولكنني لم أنَل كفايتي من النوم منذ عدة ليالٍ فغلبني النوم ورأيت والدتك في المنام، وعندما فتحت عيني ورأيت صورتها هذه، وجدت عينيها مثبتتين في عينيَّ، فتأثرت وشعرت كأن تيارًا كهربائيًّا هزَّ كياني.

قالت فاتن وهي ناظرة إلى صورة والدتها:

- ليتني أراها في المنام أنا أيضًا.

- أنت لا ترينها في المنام لأنك لم تريها في اليقظة؛ فلقد توفيت وسنك سنة واحدة.

- هل تراها كثيرًا في أحلامك؟

- نعم، أراها كثيرًا.

- ولماذا تأثرت بشكل غير عادي عندما شاهدتها هذه المرة؟

قال وقد تهدج صوته:

- سمعت منها في هذه المرَّة كلامًا لم أسمعه في أي حلم آخر، فلقد قالت لي...

قالت فاتن بلهفة:

- ماذا قالت؟

لم يستطِع السيطرة على مشاعره فانهمرت الدموع من عينيه، فقالت فاتن بفزع:

- هذه أول مرة في حياتي أرى فيها دموعك، ما بك يا بابا؟

- لا شيء، لقد استرحتُ الآن. لم أكن أحب أن يرى أحد دموعي، وعلى الأخص أنت، لا أحب أن أسبب لك أي ألم.

- هل ترغب في فنجان قهوة أو أي شيء آخر؟

- لا مانع، فلتحضر لي بدرية فنجان قهوة.

- سأعملها بنفسي.

***

قالت وهي تضع أمامه فنجان القهوة:

- لم تقُل لي يا بابا، ماذا قالت لك ماما في الحلم؟

- لا تذكِّريني بهذا الموضوع مرَّة أخرى، أريد أن أنسى.

ثم تهدَّج صوته وهو يردف قائلًا:

- من السهل أن يتذكر الإنسان ما ينساه، ولكن من الصعب نسيان شيء لا يفارق خياله.

في هذه اللحظة، وهو يحاول مسح دموعه بطرف إصبعه محاولًا إخفاءها عن فاتن، دق جرس التليفون، وإذا بصوت الدكتور يرن في أذنه:

- أنسيتم موعد الزيارة يا أستاذ راتب؟ ألم نتفق على الموعد اليوم الساعة الخامسة في العيادة، أنت وسهير؟

- أنا متأسف يا دكتور، سنحضر فورًا.

طلب من فاتن سرعة إرسال سهير للذهاب إلى الطبيب.

- ولكنك تَعِب اليوم، ألا يمكن تأجيل الزيارة إلى الغد؟

- لا، لا بُدَّ من الذهاب اليوم لننتهي من هذه المهمة.

***

أسرعت فاتن بصعود السلم وأخطرت سهير التي بادرتها قائلة:

- كيف وجدتِ بابا؟ لقد رأيته يبكي.

قالت فاتن:

- لا شـيء، مجرد إرهاق، ومع ذلك مصمم على الذهاب معك للدكتور لتعرفي أنه مهتم بكِ، ولكنك دائمًا تسيئين الظن به.

قالت سهير وكأنها تكلم نفسها:

- لقد ظلمته، ظننت أنه نسي موعد الزيارة.

* * *

أطلَّت من باب غرفة المكتب قائلة:

- أنا جاهزة يا بابا.

كانـت الأفـكارُ قد سـبحت بالأب في مسـارب مظلمـة فبوغت بصوت سهير الذي جعله يقف بحركة شبه لا إرادية قائلًا:

- هيـا بسـرعة، كنت ناسـيًا موعد الزيـارة وذكَّرني بهـا الدكتور بالتليفون.

قالت سهير بصوت خافت وقد شعرت بخيبة أمل:

- أكنت ناسيًا؟

قال وقد نسي ما نطق به لسانه منذ لحظة:

- ناسيًا ماذا؟

قالت وهي مطرقة إلى الأرض:

- لا شيء يا بابا، لا شيء.

***

عندما ضغط الأب على زر جرس الباب فُتح على الفور، فتحه الطبيب بنفسه وكأنه كان منتظرًا خلف الباب، ابتدره الأب قائلًا:

- لا تؤاخذني يا دكتور على التأخير بعض الوقت؛ فلقد سهوت عن الموعد.

قال الطبيب مبتسمًا:

- هل يعني هذا أنني لو لم أتصل بك تليفونيًا لما أتيتما؟ وأنتِ يا سهير، هل نسيتِ الموعد؟

- لا يا دكتور، يبدو أنني كنت الوحيدة التي لم يغِب عن ذاكرتي.

- ولماذا لم تذكِّري والدك؟

قالت وهي تحاول الابتسام:

- الحقيقة.. خجلت.

- على أية حال، لا أحب أن أضيِّع الوقت، ألديك مانع يا أستاذ راتب من الجلوس بعض الوقت هنا في البهو حتى أستفهم من الآنسة سهير عن بعض الأشياء؟

- تفضل يا دكتور، سأنتظر هنا.

ونادى الطبيب قائلًا:

- يا صالح.

فظهر صالح مرتديًا معطفًا أبيضَ كالشمعة، قائلًا:

- أفندم.

- هات بعض المجلات يتسلى بتصفحها الأستاذ راتب.

ثـم اتجه الطبيب نحو خزانة الكتب التي تحتل جدارًا بأكمله من جدران البهو أخذ منها كتابًا وقدمه إلى الأب قائلًا:

- وهذا أيضًا كتاب قد تجد فيه متعة.

- شكرًا يا دكتور.

***

جلس الطبيب إلى مكتبه في غرفة الكشـف وجلست سهير على كرسـي مريح بالقرب منه وانبعثت في أنحاء المكان موسيقى خافتة عذبة. قال الطبيب:

- كل مـا يهمني الآن يا سـهير أن أجمع أكبـر قدر يمكنك تذكره مـن أحداث الطفولة اسـتكمالًا لحديثنا السـابق. ألا تتذكرين حادثًا أثَّر في نفسك تأثيرًا عميقًا؟

أطرقت سهير إلى الأرض وغاصت في أعماق ذاكرتها ثم رفعت رأسها وقالت:

- أذكر يوم الحريق، كانت سنِّي نحو سبع سنوات أو ست سنوات.

- وأين كان الحريق؟

- في البيت نفسه الذي نعيش فيه الآن، في إحدى الليالي صحوت على ضجة، ثم سمعت جرس عربة المطافئ، وأنقذني من الحريق ناس لا أعرفهم، عرفت فيما بعد أن ساعة اشتعال النيران حمل أبي فاتن وهربا معًا، حتى بدرية هربت، وتركوني وحدي في الدور العلوي.

- هل تذكرين أي حادث آخر؟ أي شيء مهما بدا لك تافهًا اذكريه.

- أذكر كلمة قالها بابا.

ترقرقت الدموع في عيني سهير فأطرقت إلى الأرض وساد الصمت فترة، ثم قال الطبيب:

- ما هذه الكلمة؟

- كنت مريضة وكنت صغيرة، في نحو الرابعة، وسمعت بدرية تقول لبابا: «البنت جسمها ساخن كالولعة، ألا تحضر لها حكيمًا؟!».

فقال أبي: «إنها تمرض كثيرًا ويبدو أنها لن تعيش، لست أدري لماذا وُلِدَتْ». قالت بدرية: «أستغفر الله العظيم، وهل هذا كلام يقال؟ إن لم تحضر لها حكيمًا فسأذهب أنا وأحضره، أليست ابنتك مثل فاتن التي تخاف عليها من النسيم؟». فقال أبي: «ولادتها كانت شؤمًا».

عند ذلك وجدتُ نفسي أبكي في صمت، فقالت بدرية: «ها أنت قد أبكيتها، لقد سَمِعَتْ ما قلتَه عنها»! فقال أبي: «كنت أظنها نائمة، على أية حال إنها صغيرة ولا تفهم شيئًا».

واستمرت سهير في حديثها مع الطبيب قائلة:

- ولكنني وعَيْتُ كل كلمة، ولو أنني لم أدرك ما تعني كلمة «شؤم»، فكنت أسأل عن معناها كلَّ من يصادفني، ثم عرفت معناها فيما بعد، وعلمت أن ولادتي كانت سببًا في وفاة ماما.

ثم تهدَّج صوتها وهي تقول:

- سمعت هذا الاتهام من والدي كثيرًا، حتى اعتقدت أنني أنا التي قتلتها دون أن أراها!

- إنك تحمِّلين نفسك وِزْرَ جريمة لم تقترفيها؛ فالمسئول عنها والدك، وهو في أعماق نفسه مدرك لذلك، ومن الطبيعي أن مرتكب أية جريمة من هذا النوع يحاول، دون أن يدري، تبرئة نفسه وإلقاء

وإرها على شـخص آخر، ولكنني أعتقد بعد ما دار بيننا أنا ووالدك من حوار أنه قد بدأ يخفف الحِمْل الذي ألقاه عليكِ وسوف يتحسَّن شعوره نحوك.

- هل تتصور يا دكتور أن بابا...

لم تستطِع استكمال الجملة فأجهشت بالبكاء.

- أكملي حديثك، ماذا حدث؟

- لا شيء.

- بـل يوجد شـيء كنتِ على وشـك الإفصاح عنـه. لا تحاولي إخفاء أي شيء ولا تخشي شيئًا؛ فهذا يساعد في شفائك.

جفَّفت سهير دموعها وقالت بعد فترة تردد:

- بابـا.. أنـا لا أذكر، أبـدًا، أنه قبَّلني.. ولا حتـى داعبني أو ربت علـى ظهري منذ وُلِدْتُ حتى الآن.. كنـت أراه يُقبِّل فاتن ويداعبها. وذات مـرة وأنا طفلة صغيرة ذهبت إليه وقَبَّلْتُـه، فنهرني قائلًا: «هل غسلتِ فمك بعد الأكل؟ اذهبي واغسلي فمك»!

ثم انخرطت في بكاء عميق.

بعد نحو ساعة من الحوار، اكتفى الطبيب بهذه الحصيلة، وكتب بعـض العقاقير في تذكرة الـدواء، طالبًا من سـهير تناولها ابتداءً من اليوم، وقام قائلًا:

- لقد تركْنَا والدك وحده مدة طويلة، هيا بنا.

كان الأب مستسلمًا لنوم عميق وقد تدلَّى رأسه على صدره، ولكنه استيقظ عندما سمع صوت فتح الباب، فقال الطبيب ضاحكًا:

- والدك لم يضيِّع الوقت، لقد أخذ كفايته من النوم.

قال الأب:

- ليتني ما نمتُ، لقد رأيتُ حلمًا مؤلمًا للمرة الثانية في اليوم نفسه.

* * *

شرع الأب في القيام استعدادًا للانصراف، ولكن الطبيب أسرع بالجلوس بالقرب منه وطلب من سهير أن تجلس، فجلست على حافة الكرسي، وقال الطبيب:

- وما هذا الحلم يا تُرى؟

قال الأب وقد تهدج صوته وكأنه يرى الحلم أمام عينيه:

- رأيت المرحومة زوجتي.. كانت غاضبةً منِّي وقد أشاحت بوجهها عني قائلة: «لن أغفر لك». لست أدري ما هو الشيء الذي لن تغفره لي.

قال الطبيب بعد تفكير:

- هذا الحلم له قيمة بالنسبة لي.

سكت قليلًا ثم أردف قائلًا:

- يُخيَّل إليَّ أنك كنت تحب زوجتك حبًّا جمًّا يا أستاذ راتب.

- وما زلت أحبها وكأنها تعيش معي.

- ترى هل من الممكن أن أرى صورة من صورها؟

قال الأب وكأنه يحدث نفسه:

- لقد رأيتها هي نفسها يا دكتور.

قال الطبيب بدهشة:

- كيف؟ متى حدث ذلك؟

- ألم ترَ ابنتي فاتن؟

- بلى، رأيت فاتن.

- فاتن صورة طبق الأصل من أمها.

- ألهذه الدرجة؟ هل تأذن لي أن أسأل سؤالًا؟

- تفضل.

- هل كنت تتمنى أن يكون لك أبناء ذكور؟

أطرق الأب إلى الأرض قائلًا وقد تهدج صوته:

- ولماذا تسألني هذا السؤال يا دكتور؟

- أنا متأسِّف، لم أكن أتوقع أن يضايقك إلى هذا الحد.

قال الأب وما زال مطرقًا إلى الأرض:

- أجل، بعد مولد فاتن كنت أتمنى أن يكون لها أخ، ولكن المرحومة والدتها أصيبت بمرض في القلب، وعندما فحصها الطبيب نصحها بعدم الإنجاب حتى لا تتعرَّض حياتُها للخطر، والتَزَمَتْ بنصيحة الطبيب، ولكنني أقنعتها بالولادة مرة واحدة فانصاعت لإرادتي، وكانت النتيجة أن توفيت بعد ولادة سهير مباشرة، فلا جاء الولد ولا بقيت هي على قيد الحياة.

ثم وقف الأب قائلًا:

- هل تسمح لنا بالانصراف يا دكتور؟ هيا يا سهير.

قال الطبيب وهو يصافح الأب عند انصرافه:

- لحديثنا بقية يا أستاذ راتب، هل من الممكن أن تكون الزيارة المقبلة يوم الاثنين في مثل هذا الوقت؟

- وهو كذلك يا دكتور.

9

عندما كان الأستاذ راتب وسهير في طريقهما إلى البيت بعد خروجهما من عيادة الطبيب، كانت فاتن جالسة مع خطيبها خالد في الصالون وقد بدا شارد النظرات مضطرب الفكر، وهي حالة تعتريه من آنٍ لآخر تدركها فاتن عندما يطيل النظر إلى النافذة؛ حيث يكون على وشك الإفضاء بأمر خطير، فقالت:

- ما بك؟ يُخيَّل إليَّ أن شيئًا سجينًا في صدرك كنت على وشك إطلاق سراحه لتستريح، ماذا تريد أن تقول؟ قل ولا تخَف.

قال بنبرة حادة:

- أجل يا فاتن، إنها مسألة في غاية الأهمية.

قالت فاتن وقد رجف قلبها واستعدت لسماع شيء خطير:

- ما هذه المسألة التي في غاية الأهمية؟

قال وقد تغيرت نبرة صوته:

- أريد أن أحيط علمك بأنك...

ثم توقف عن الكلام ليستعد لإلقاء القنبلة، قالت فاتن بلهفة:

- بأنني ماذا؟

وأخيرًا ألقى القنبلة التي اتضح أنها «فِشِنْك».

- أريد أن أقول إنك أجمل وأظرف وألطف فتاة رأيتها في حياتي.

قالت بلا حماس:

- سمعت هذا منك مرارًا..

وأضافت بنبرة قاطعة غير قابلة للجدل:

- لا، بل كنت على وشك الاعتراف بشيء آخر، يبدو أنه خطير، لم تجد لديك الشجاعة الكافية للنطق به، وليست هذه أول مرة تفعل ذلك.

شعر بالاضطراب الذي يشعر به الكاذب عندما يجد محدثه قد اكتشف كذبه، فقال من دون تركيز.

- شيء آخر؟ وما هذا الشيء الخطير؟

- أنت أدرى به. من المفروض أن أوجِّه أنا إليك هذا السؤال.

نظر خالد إلى الأرض ملتزمًا الصمت، فأردفت فاتن قائلة:

- خالد.. يوجد شخص تحاول تجنب رؤيته، من هذا الشخص؟

لم يعد أمامه ركن آمن يلوذ به فلم يجد مفرًّا من الانتقال من كرسي الصالون إلى كرسي الاعتراف حين قال:

- اسمعي يا فاتن، حياتي معك في خطر مستمر..

هزت هذه الكلمات القليلة كل حياة فاتن، تلك الحياة التي كانت تبدو لها حتى هذه اللحظة هادئة كصفحة مياه بحيرة عذبة لا تعرف العواصف والأنواء، فقالت بدهشة وصوتٍ أقرب إلى الهمس شاعرة بخَوَرٍ أشبه بخدَر يسري في جسدها كسريان النار في مادة بطيئة الاشتعال:

- أحياتك في خطر؟! كيف؟

في هذه اللحظة دق جرس الباب فانتفض خالد فزعًا وخجل من شعور فاتن بالرجفة التي أصابته عندما قالت باذلة جهدًا لتبدو هادئة:

- لماذا فزعت هكذا؟ إنه جرس الباب وليس جرس المطافئ، لا بُدَّ أنهما بابا وسهير.. سأفتح لهما.

***

بـدا الأب مرهقًا شـاحب الوجه وسـهير مقطبـة الحاجبين، قال الأب بصوت خافت:

- مساء الخير يا فاتن.

- أهلًا وسهلًا يا بابا.

ثم تنبهت للمظهر غير الطبيعي لأبيها وسهير فقالت:

- مـا بكمـا؟ من يراكما يظن أنكما عائـدان من معركة وليس من عيادة طبيب نفسي.

غمغمت سهير قائلة:

- بابا كسر إشارة المرور، وكاد يحدث حادث مريع.

انبعث صوت خالد وهو قادم من الصالون قائلًا:

- من هذا الذي كسر إشارة المرور لأحرر له مخالفة؟

ثم تقدم إلى الأب وصافحه قائلًا:

- نحمد الله على سلامتك يا عمي.

غمغم الأب قائلًا وقد بدا شارد الفكر:

- الله يسلمك يا خالد.

قال خالد وهو يستعد للخروج:

- عن إذنكم.

صاحت فاتن قائلة بلهفة:

- إلى أين تذهب؟

- إلى مقر عملي، لا بُدَّ من وجودي هناك الليلة.

قالت فاتن بدهشة:

- انتظر قليلًا يا خالد، لم نكمل حديثنا.

- نُكْمله في فرصة أخرى إن شاء الله.

قال الأب لخالد:

- كنت أحب أن نتعشى معًا الليلة.

- الليالي المقبلة كثيرة.

لم تحتمل فاتن الانتظار فأسرعت إلى خالد وهمست في أذنه:

- ما الشيء الذي يهدد حياتك بالخطر؟ ألديْك أسرار تخفيها عنِّي؟

قال خالد بصبر نافد:

- فيما بعد، فيما بعد.. تَمَسّوا بالخير.

ما كاد يخرج ويغلق الباب خلفه حتى حضرت بدرية وأعلنت أن العشاء جاهز.

بعد انتهاء العشـاء، صعدت سـهير إلى غرفتها وذهب الأب إلى غرفة المكتب لمراجعة بعض الأوراق وظلت فاتن في مكانها ناظرة إلى النافذة المفتوحة بعينين لا تريان ما أمامهما بل ما يدور في ذهنها مـن هواجس لـم تكن تود أن يعرفهـا أحد، ولكنَّهـا رأت أن الحِمْل أثقل من أن تحمله وحدها، فاقتحمت غرفة المكتب التي أغلق أبوها بابهـا كعادته عندما يجلـس إلى مكتبه لفحـص أوراق مهمة، وعلى الرغم من حرص فاتن على فتح الباب دون إحداث أي صوت فلقد شـعر بدخولها عندما سرى تيار من الهواء في تلك اللحظة، فالتفت نحوها بدهشة ولم تمهله ليعبِّر عن دهشته بكلمات، بل ابتدرته قائلة والدموع تلمع في عينيها:

- بابا.. أنا حزينة!

قال الأب وقد ازدادت دهشته:

- ولماذا هذا الحزن؟

جلست على كرسي قريب من المكتب وقالت:

- هل تلاحظ أن خالد في هذه الأيام في حالة طبيعية؟

- ما به؟ إنه كما هو لم يتغير فيه شـيء، وعلى أية حال أنا لا أراه كثيرًا كما ترينه، أنتِ أدرى به، ما ملاحظاتك؟

- يبدو وكأنه خائف من شيء.

- ألديكِ فكرة عن هذا الشيء؟

- يُخيَّل إليَّ أن شخصًا يهدد حياته.

وضع الأبُ القلمَ الذي كان في يده وقد بدا أكثر اهتمامًا وقال:

- ما الذي جعلك تتخيلين ذلك؟

- اعترف لي، وأراه أحيانًا مضطربًا بشكل واضح.

نظر إليها الأبُ مثبتًا عينيه في عينيها وقال:

- الإنسان الذي ترتبط حياتك به مدى العمر لا ينبغي أن تشعري نحوه بذَرَّة من الشك، شريطة ألَّا يكون ذلك الشك مجرد أوهام.. اسأليه؛ فهو أقدر منِّي على الإجابة عن أسئلتك.

- كلما سألتُه يتهرب من الإجابة.

- حاصريه بالأسئلة حتى تحصلي منه على إجابة مُقْنعة.

- يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنه على وشك الاعتراف بشيء رهيب ولكنه يعدل عن ذلك في آخر لحظة ويتكلم كلامًا فارغًا لمجرد تغيير مجرى الحديث.

- إنكما تتقابلان كل يوم تقريبًا وتمكثان معًا فترات طويلة ولا أحد يعكِّر عليكما صفو الوحدة، ولقد سمحت لكما بذلك لتتاح

لكل منكما فرصة معرفة كل شيء عن الآخر، وأعتقد أنه بشيء من الذكاء واللباقة من الممكن أن تعرفي عنه كل شيء، ولا ينبغي أن يُخفي عنك شيئًا، وإذا كان هناك من يهدد حياته فليبلِّغ البوليس.

وأطلق تلك الضحكة المدوية كعادته، وأردف قائلًا:

- وهو نفسه بوليس! وإذا كان البوليس خائفًا فماذا نصنع نحن؟!

وعاد يقهقه من جديد. لم تنتقل إلى فاتن عدوى الضحك، بل ظلت مقطِّبة الحاجبين عابسة الملامح.

قالت فاتن بملامح جادة ونبرة حزينة:

- لا أرى ما يدعو للضحك، هذه المسألة تقلقني وتعذبني.

- لا تفكري كثيرًا في هذه الأشياء وأنت ذاهبة للنوم. فقد تكون مجرد أوهام. مثلك ينبغي أن يكون من أسعد خلق الله.

- كنت سعيدة، ولكن بعض تصرفات خالد تحيِّرني.

ثم أردفت قائلة وقد تهدَّج صوتها:

- قد تكون هناك امرأة أخرى ويريد الانفصال عني.

- وأين يجد من هي أفضل منك؟ أنتِ بالنسبة له كنز يحرص عليه كل الحرص، أنا عن نفسي أراه لا يطيق البعد عنك أبدًا. قومي

نامي يا حبيبتي؛ فالهواجس والأفكار الحزينة تتراكم في رؤوسنا في المساء، وتتلاشى في الصباح عندما نحصل على كفايتنا من النوم.

***

في صباح اليوم التالي، لم يتصل خالد تليفونيًّا بفاتن في الموعد الذي اعتادت سماع صوته فيه. صممت على عدم البدء بالاتصال وظلت تقاوم هذه الرغبة الجامحة حتى وجدت نفسها تدير قرص التليفون وقد استسلم آخر معاقل مقاومتها، ولكنها لم تسمع صوته؛ فلقد كان الخط مشغولًا ظلت تُعيد محاولة الاتصال عدة مرات ولكن الخط ظلَّ مشغولًا

تُرى مع من يتحدث طوال هذه المدة؟ الخط تفوح منه رائحة أنثى، أكاد أشم العطر الذي نثرته على جسدها وملابسها. لم تستطِع احتمال هذه التصورات فوضعت السماعة، ولكن حالة التَفَزُّز العصبي التي أصابتها جعلتها ترفع السماعة بعد ثوانٍ قلائل. سمِعَتْ أزيز التليفون، فأسرعت بوضعها في مكانها متوقعةً اتصالَه بها، ودق الجرس، فامتدت يدها بسرعة لرفع السماعة، ولكنها تمهلت في رفعها حتى لا يظن أنها قابعة جنب التليفون في انتظار ذلك الاتصال، وبعد فترة رفعت السماعة، ولكن المتحدث لم يكن خالد بل الدكتور منير، فأصيبت بإحباط. سألها الطبيب عن صحتها وصحة أفراد العائلة، ثم طلب الحديث مع والدها.

كان الأستاذ راتب، كعادته في ذلك الوقت من اليوم، إذا سمح الجو، جالسًا في الشرفة الملحقة بغرفته يحتسي فنجان القهوة التي يشربها سادة منذ إصابته بمرض السكَّر عقب وفاة زوجته. كان من عادة الزوجة أن تصنع القهوة بنفسها وتجلس مع زوجها في هذه الشرفة يحتسيانها معًا. ولقد صمم الأستاذ راتب على بقاء الكرسي، الذي كانت تجلس عليه زوجته، شاغرًا في المكان نفسه، وذات يوم حضر إلى الشرفة فلم يجده فغضب وزمجر ولم يهدأ ويجلس إلا عندما أعادوه إلى مكانه. يقولون: إنه بعد وفاة زوجته عندما يجلس في هذا المكان يسمعها تتكلم ويتبادل معها الأحاديث أحيانًا، وعلى الرغم من أن أحدًا في البيت لا يصدق ذلك فإن فاتن تخاف من الجلوس وحدها ليلًا في هذه الشرفة.

قال الطبيب:

- هل تسمح لي يا أستاذ راتب بزيارتكم في البيت زيارة قصيرة؟

- بكل سرور، أهلًا وسهلًا.

- هل سهير موجودة؟

- أجل، موجودة.

- سأكون عندكم بعد ربع ساعة.

- أهلًا وسهلًا، نحن في انتظارك يا دكتور.

وضع السماعة والتفت إلى فاتن وطلب منها أن تخبر سهير أن تكون على استعداد لمقابلة الطبيب الآن.

* * *

جلست سهير جنب الطبيب في غرفة المكتب، وقام الأب استعدادًا للخروج ليتركهما وحدهما كما يحدث دائمًا، ولكن الطبيب في هذه المرَّة طلب منه البقاء معهما فجلس. قال الطبيب:

- كيف صحتك اليوم يا سهير؟

قالت وهي مطرقة إلى الأرض:

- الحمد لله، ولو أن أعصابي ما زالت متوترة بسبب ما حدث بالأمس.

- وماذا حدث بالأمس؟

أطرقت سهير إلى الأرض والتزمت الصمت، فقال الأب بعد ضحكة قصيرة:

- ونحن عائدان من عندك كنت على وشك التصادم مع لوري ضخم.

قالت سهير وما زالت مطرقة إلى الأرض:

- كان بابا، على غير عادته، يقود السيارة بسرعة فكسر إشارة المرور ولم يلاحظ اندفاع اللوري نحوه إلا عندما صِحْتُ لتنبيهه فأسرع بالضغط على الفرامل فنجا بأعجوبة.

قال الأب:

- لولا صرختُها في أذني لتنبيهي لكنت الآن قد ارتحتُ من الدنيا وهمومها.

قال الطبيب بدهشة:

- أتقول: «ارتحت من الدنيا»؟

- أجل، لكنت الآن في العالم الآخر.

وأطلق ضحكته الرنانة التي لم يستجِب لها الطبيب الذي قال بنبرة جادة:

- لا أعتقد أنك معذب في الدنيا إلى هذا الحد يا أستاذ راتب.

ثم أردف قائلًا لسهير:

- هل من الممكن أن تطلبي لي كوب ماء يا سهير؟

انتفضت سهير واقفة وأسرعت بالخروج في صمت. همس الطبيب في أذن الأب قائلًا:

- هـل مـن المعقول يا أسـتاذ راتـب أن إنقاذ سـهير لحياتك لم يكـن أمرًا ترحب به؟ هل يوجد ما هو أغلى من حياة الإنسـان؟ لقد سـعِدَتْ سـهير سـعادةً كبرى عندما أتيحت لها فرصة إنقاذ حياتك، وهـذا واضـح في نبرة صوتها وهـي تروي الحـادث، فلماذا تحاول الظهـور بمظهر من أُسـيء إليه؟ عندما توفيـت والدتها عند ولادتها حمَّلتَها مسئولية وفـاة الأم، وعندما أنقَذَتْ حياتك تحاول تحميلها مسئولية بقائك على قيد حياة لا رغبة لك فيها! حيَّرتَها يا أخي!

دخلت سهير وفي يدها صينية صغيرة من الفضة عليها كوب ماء وفنجان قهوة، وضعَتْها على منضدة أمام الطبيب قائلة:

- تفضل يا دكتور.

توقَّف الطبيب فترة قبل أن يمد يده لتناول الكوب، وبدا وكأنه قد نسـي كل شـيء عن كوب الماء، وجلست سهير مطرقة إلى الأرض في المكان الذي كانت فيه، في حين أخرج الطبيب من حقيبته جهازًا وأخذت عيناه تدوران في أنحاء المكان.. سأله الأب:

- عمَّ تبحث يا دكتور؟

قال الطبيب وهو مستمر في البحث:

- أبحث عن كُبْس أضع فيه هذه الفيشـة لتشغيل جهاز التسجيل هـذا، فلقـد نفـدت طاقـة بطارياته وأنسـى دائمًـا إحضـار بطاريات جديدة.

تذكرت سهير أنها رأت هذا الجهاز مع الطبيب عندما زارها في البيت لأول مرة وظنته أداةً من أدوات الكشف الطبي فلم تُعِرْهُ اهتمامًا، ولكنها شعرت الآن بقلق غامض لا تعرف سببه، وتحوَّل القلق إلى رعب عندما طاف بذهنها أن الطبيبَ قد سجَّل حديثها وأنه قد يعيد سماعه أمام والدها. قال الطبيب وكأنه يقرأ أفكارها:

- لقد سجلتُ كلَّ كلمةٍ نطقتِ بها، في البيت وفي العيادة.

قالت سهير للطبيب ودقات قلبها تكاد تقفز من صدرها:

- لا أريد أن يسمع أبي ما قلته لك!

- على أية حال، إذا كنتِ مصممةً على ذلك فلن أجبرك على عمل شيء ضد إرادتك.

قالت والدموع ما زالت تطفر من عينيها:

- أنا لا أبوح بأسراري لأبي ولا لأي إنسان، بل أكتمها في أعماق صدري.

- هذه الأشياء المسجونة في أعماقك قد تكون ذات تأثير مدمِّر إذا لم تطلقي سراحها.

- وكيف أطلق سراحها؟

- احكيها لأي إنسان.

أطرقت إلى الأرض وقالت بصوت خافت:

- ربما لو كانت ماما على قيد الحياة...

لم تكمل الجملة التي بدأتها ورأت أن تقول بدلًا منها:

- لقد قلتها لك، أليس هذا كافيًا؟

- لا بُدَّ أن يسمعها بابا أيضا؛ فسماعه لها عنصر من عناصر علاجك. لقد قلتِها لي بكل صراحة لأنك عثرتِ لأول مرَّة على شخص مهتم بمعرفتها وفي أعماقك في الوقت نفسه رغبة قوية في التخلُّص من عبء كتمانها. ألديك اعتراض على سماع والدك لبعض أجزاء التسجيل؟

- في هذه الحالة سأخرج من الغرفة.

- ولماذا تخرجين؟ إن والدك أحقُّ منِّي بسماعها، ستكون أول خُطوة نحو تعوُّدك على الحديث مع والدك في بعض أمورك ومشكلاتك الخاصة، وعلى أية حال لن يسمع كلَّ ما قلتِه؛ فلقد اخترتُ حادثين اثنين تأثرت أنا شخصيًّا بهما، ولست أدري إلى أي مدى ستتأثر بهما مشاعر والدك. ها هو الحادث الأول.

كان الشريط معدًّا عند نقطة بدء هذا الحادث الذي ذكرت سهير أنه أول ما تتذكره في حياتها. التفت الطبيب إلى الأستاذ راتب وقال وهو يستعد للضغط على زر التشغيل:

- هل تذكر هذا الموضوع يا أستاذ راتب؟

انكمشت سهير وبدت كما لو أنها قد أصبحت في نصف حجمها وأطرقت إلى الأرض مغمضة العينين. ضغط الطبيب على الزر فانبعث صوته من جهاز التسجيل يسأل سهير عن أول شيء تتذكره في حياتها.

ذكرت سهير حكاية العروسة التي رأتها مع فاتن وانبهرت بها فاختطفتها منها، ولما بكت فاتن انتزع الأب العروسة من سهير وأعادها لفاتن، ولما بكت سهير رقَّ لها قلب خالها الذي كان في زيارتهم فاشترى لها عروسة تقول ماما وبابا، فاختطفها منها والدها وألقى بها على الأرض وصفع سهير على أذنها. وتقول في نهاية حديثها إنها حتى الآن لا تعرف لماذا صفعها. عند نهاية هذا الحديث أوقف الطبيب جهاز التسجيل والتفت إلى الأستاذ راتب وسأله:

- هل تتذكر هذا الحادث يا أستاذ راتب؟

اغرورقت عينا الأب بالدموع وقال بصوت متهدِّج:

- أنا لا أتذكر شيئًا من هذا!

قال الطبيب وهو يضبط الشريط لسماع الحديث الثاني:

- أصدِّق يا أستاذ راتب أنك لا تتذكر مثل هذه الأشياء، ولكن سهير التي كانت في ذلك الوقت طفلة لا تكاد تحسن النطق لم

تنسَـها، وهي أول ما تذكره في حياتها، وهذا يدل على مدى أهميتها بالنسـبة لها. لقد سـمعت من سهير أشياء كثيرة، ولكن هذا الحديث بالذات قد أثَّر فيَّ تأثيرًا كبيرًا، فها هو ذا..

ضغـط الطبيـب على الـزر واسـتمع الثلاثة إلى تسـجيل صوت سهير:

- هل تتصور يا دكتور أن بابا...

ثم سمع صوت بكاءٍ قَطَعَه صوت الطبيب قائلًا:

- أكملي حديثك، ماذا حدث؟

- لا شيء.

- بـل يوجد شـيء كنتِ على وشـك الإفصاح عنـه. لا تحاولي إخفاء أي شيء ولا تخشي شيئًا، فهذا يساعد في شفائك.

سادت فترة سكون ثم سُمع صوت التسجيل:

- بابا.. أنا لا أذكر أبدًا أنه قبَّلني.. ولا حتى داعبني أو ربت على ظهري منذ وُلِدْتُ حتى الآن.. كنت أراه يقبِّل فاتن ويداعبها.. وذات مرة وأنا طفلة صغيرة ذهبتُ إليه وقَبَّلْتُه، فنهرني قائلًا: «هل غسـلتِ فمك بعد الأكل؟ اذهبي واغسلي فمك»!

وعندما بدأ جهاز التسجيل يذيع بكاء سهير أوقف الطبيب الجهاز، ولكن ظلَّ بكاء سهير مستمرًّا.

بدا الأب شارد النظرات، يدير عينيه في أنحاء الغرفة غير ناظرٍ لشيء، ثم قال بصوت مشروخ:

- أحقيقةٌ ما تقولين يا سهير؟!

انتفضت سهير واقفةً ودموعها تبلل وجهها وخرجت من غرفة المكتب.

قال الطبيب:

- لقد ظلَّت تلك الوخزات طَوال هذه السنين تُدمي قلب سهير مع كل دقة من دقاته وكأن نصلًا نفذ إلى تجويفه، دون أن تشكو لأي إنسان.

قال الأب وقد تهدَّج صوته:

- هذه أشياء لم ألاحظها ولا أتذكرها مطلقًا!

ثم خرج من المكتب ووقف خلف سهير قائلًا:

- أنا.. أنا يا سهير.. لم أقبِّلْكِ أبدًا؟!

وقف مذهولًا ثم نظر إلى سهير التي كانت على وشك الصعود إلى الدور العلوي باكية، ولكنه أسرع إليها مستوقفًا:

- انتظري يا سهير.. انتظري يا بنتي!

توقفت سهير وقد أشاحت بوجهها عنه.. سار الأب ثم وقف بالقرب منها دامع العينين قائلًا:

- أحقيقة يا سهير هذا؟ أنا لم أبوسك أبدًا؟!

استمرت سهير تبكي بكاءً عنيفًا. احتضنها الأب قائلًا وكأنه يقر حقيقة كانت غائبة:

- أنا يا سهير لم أبوسك أبدًا.. تعالي يا حبيبتي لأبوسك الآن..

ولما قبَّلها انخرطا معًا في البكاء.

* * *

لم يشعر الأب بمرور الوقت، إلا عندما سمع صوت الطبيب يناديه برفق، فتنبه وشعر بخجل شديد لنسيانه وجود الطبيب، فغمغم قائلًا لسهير:

- نسيت الدكتور وحده.

كان الطبيب واقفًا في غرفة المكتب مستعدًّا للخروج، فقال:

- لا تتعب نفسك يا أستاذ راتب، أنا أعرف طريق الباب وسأخرج.

صافح الأب الطبيب بحرارة قائلًا:

- لا تؤاخذني يا دكتور، كنت أتكلم مع سهير.

- أعتقد أن هذه هي المرَّة الأولى التي جلسْتَ فيها مع سهير تتحدثان.

قال الأب شاعرًا بالخجل:

- أجل، هذه أول مرَّة، وللأسف لم ألاحظ ذلك إلا اليوم.. شكرًا يا دكتور.

أخرج الطبيب من جيبه ورقة أعطاها للأب قائلًا:

- كتبتُ لكما مواعيد زيارتكما لي في العيادة.

أخذ الأب الورقة وألقى عليها نظرة سريعة ثم وضعها في محفظته بعناية، وكان الطبيب على وشك الخروج، ولكنه تذكَّر شيئًا:

- على فكرة، تذكرتُ الآن الحلم الذي رويتَه لي وقلت إن رؤيتك له تكررت.

- أي حلم؟

- قلتَ لي إنك رأيت المرحومة زوجتك تقول لك في المنام إنها لن تغفر لك، يُخيَّل إليَّ أنك فهمت الآن معنى هذا الحلم.

شعر الأستاذ راتب بشـيء من الاكتئاب عندما تذكر ذلك الحلم فقال:

- هل تقصد يا دكتور أن...

سكت قليلًا ثم أردف قائلًا:

- إنها لـن تغفر لي.. نعم، أنا أرغمتها على الحمل والولادة وأنا كنت أعلم جيدًا أن في هذا خطورة على حياتها بسبب مرض القلب هذا وأيضًا...

ولـم يستطِع اختيـار الألفاظ المناسـبة التـي يكمل بهـا جملته، فأسعفه الطبيب قائلًا:

- كمـا أنهـا عندمـا قالت: «لن أغفـر لك» فهي تقصـد معاملتك لسـهير؛ فأنـت تعلـم أنهـا لا ذنب لهـا في ولادتهـا؛ فهـذان الذنبان مرتبطـان ببعضهمـا ومتداخـلان معًا، وأنت مدرك ذلـك في أعماق نفسك.

قال الأب والحزن يطل من عينيه:

- أغاضبة منِّي هي كل هذا الغضب؟

ابتسم الطبيب برفق قائلًا:

- مـا تسـمعه مـن المرحومـة زوجتـك فـي المنـام هـو صـوت ضميـرك؛ فالأحلام التـي نراها لا تعبِّر عن أفـكار الآخرين، بل عن أفكارنا نحن.

ثم نظر إلى ساعته وأسرع بالخروج قائلًا:

- لا تنسيا موعد الزيارة.

10

كان الأستاذ راتب في غرفة مكتبه بالمنزل مستغرقًا في قراءة أوراق قضية سيترافع فيها غدًا. شعر بإرهاق عنيف فرفع رأسه عن الورق بضع ثوانٍ وإذا ببدرية واقفة أمام المكتب كالشبح، لم يشعر بدخولها الغرفة ولم تتركه يلتقط أنفاسه، بل بادرته قائلة:

- سيدي.

- ماذا تريدين يا بدرية؟

- أنا مكسوفة.

- مِمَّ؟

- أنا معكم هنا من سنين، وربَّيت على كتفي اسم الله عليهما فاتن وسهير. كنت شابة عفيَّة قادرة على القيام بكل شغل البيت، أطلع سلالم وأنزل سلالم دون تعب، ولكنني الآن كبرت في السن، وهذا بيت كبير يجعله عامرًا، وأنت يا سيدي ربنا يزيد ويبارك في مالك، رجل غني ومقتدر...

وتوقفت عن الكلام مطرقة إلى الأرض ويداها ما زالتا متقاطعتين فوق بطنها ملتزمة الصمت، فقال الأب وعلى فمه شبه ابتسامة:

- هل ترغبين في تركنا؟

انتفضت قائلة وكأنها سمعت اتهامًا عقوبته الإعدام:

- لا يا سيدي، لن أغادر هذا البيت إلا مطرودة أو محمولة على خشبة.

- وما طلباتك إذًا؟

- أريد أن تكون معي هنا بنت تساعدني في الشغل. منذ خمس سنوات وهذه الكلمات على طرف لساني تريد أن تخرج من فمي ولكنني مكسوفة.

انفجر الأستاذ راتب ضاحكًا وقال:

- خمس سنين مكسوفة؟! الله يجازيكِ يا بدرية، حاضر من عيني.

- تسلم عيناك يا سيدي.

- سأُحضِرُ لك شابه تساعدك، ولكن إياك إضاعة الوقت في العراك معها.

نظـرت بطرف عينيها نظرات فيها عتاب وشـقاوة اسـتعارتها من الماضي البعيد وقالت:

- أنا؟ وهل بقي لي نَفَس للعراك؟

***

كانت الشـغالة الجديدة، واسـمها خواطر، في أوائل العشرينات مـن عمرها، قوية مليحة الوجه، لديها قدرة عجيبة على التقاط كلمة أو كلمـات من أي حديـث عادي والعثور في مثـل لمح البصر على أغنيـة تتضمَّن الألفاظ نفسـها تغنيها بألحانهـا المعروفة، وهي بهذا تضفـي جوًّا من المـرح والبهجة على أي مكان تحـل فيه، ولم يكن يضايـق الأب مـن خواطر سـوى كثـرة وقوفها أمام المرايـا، فهي لا تمر على أية مرآة أو أي سـطح يعكس الضوء دون أن تنظر ولو نظرة خاطفة لترى صورتها أو تصلح خصلات شعرها.

كانـت خواطر منهمكة فـي تنظيف زجاج إحـدى نوافذ المطبخ وسـهير جالسـة بالقرب منها تحتسـي فنجان شـاي وتقرأ في كتاب بعنوان «دع القلق وابدأ الحياة» وبدرية تعد طعام الغداء وكل شـيء هـادئ، وعندمـا امتد الصمـت لأكثر من خمـس دقائق لـم تحتمله أعصاب خواطر فانفجرت صائحة تغني:

«مال الهوا يا امّه مال، مال الهوا..

أنا لا مِلْت إليه، ولا ندهت عليه..

هوّ اللي مال، اللي مال يا امّه».

ثم توقفت عن الغناء بغتةً لتغمغم قائلة:

- قطيعة تقطع الهوا وسيرته.

ثم التفتت إلى سهير قائلة بلهفة توحي بأن ما ستقوله على جانب عظيم من الأهمية:

- سيدتي سهير، سيدتي سهير!

قالت سهير دون أن ترفع عينيها عن الكتاب:

- ماذا تريدين يا خواطر؟

- أريد سلامتك يا سيدتي، ألا توجد في هذا البيت الطويل العريض كوتشينة؟

كان هذا آخر ما تتوقع سهير سماعه، فقالت:

- لا، لا أحد هنا يلعب الكوتشينة.

- اسم الله على مقامك يا سيدتي، أنا أيضًا لا ألعب الكوتشينة.

- ولماذا تريدينها إذًا؟

- أفتحها، أرى بختي، لو لم أفتح بختي كل يوم يُخيَّل إليَّ أنني أسير مغمضة العينين.

- وما الشيء الذي تريدين معرفته؟

- أريد معرفة سبب عدم حضور هذا الذي ما زال في علم الغيب.

- من هو؟

- يُهْ.. الشخص الذي سيكون من نصيبي. قطيعة، من طول تفكيري في العرسان مخِّي انفجر.

قالت سهير وقد ارتسمت على فمها ابتسامة:

- ولماذا تُتْعبين نفسك في التفكير؟ ستظفرين بنصيبك.

- يُخيَّل إليَّ أنني لو لم أفكر ليلًا ونهارًا في الحبيب المجهول هذا، فلن يسأل فيَّ أحد.

شعرت بدرية بشيء من الغيرة عندما استرسل الحوار بين سهير وخواطر، وعلى الأخص عندما تمكَّنت خواطر من رسم ابتسامة على شفتي سهير، فقالت بنبرة الرئيس لمرؤوسه:

- بنت يا خواطر.

- يا فتاح يا عليم، استر يا ستَّار، أيرضيكِ هذا يا سيدتي؟ لقد قَطَعَتْ سلسلة أفكاري.

ضحكت سهير، فقالت بدرية لخواطر:

- هل أحضرَكِ سيّدي لمساعدتي أم لوجع دماغي طوال النهار؟

تجاهلت خواطر كلام بدرية واقتربت من سهير قائلة:

- أبوس رجلك يا سيدتي سهير، ألا تعرفين أحدًا يشغِّلني في السيما؟

قالت سهير بدهشة:

- السينما؟! وماذا تعملين في السينما؟

- أموت ناقصة عمرًا لو لم أشتغل في السيما. يا ناس روحي تهفهف على السيما، سأموت ونفسي فيها. إنني أرقص وأغني وأمثل وأسوِّي الهوايل، لكن لا بخت لي. صدق من قال: «قيراط بخت ولا فدان شطارة». اسمعي يا سيدتي.

واندفعت تغني بأعلى صوتها:

- «مال الهوا يا امّه مال، مال الهوا».

ما رأيك في صوتي يا سيدتي؟

ضحكت سهير وقالت:

- الحقيقة، حِسُّكِ حُلو.

قالت بدرية غاضبة:

- هـوا يقطم رقبتك، ما هذا اللسـان الـذي لا يكل ولا يتعب من الكلام؟ روحي اغسلي الأطباق.

- اسـمعي لما أقول لـك، أنا لا أحب الأوامـر ولا أطيع الأوامر التـي مـن هذا النوع، أحـب معاملة «بالتي هي أحسـن». أنا لا أتلقى الأوامر منك، بل من أسيادي.

التفتت بدرية إلى سهير قائلة:

- لماذا لا توقفينها عند حدها يا سيدتي؟ البيت كان هادئًا ورائقًا قبل مجيئها!

كانت سهير على وشك الضحك وكانت معجبة بحديث خواطر ولكنها سيطرت على عواطفها فتحوَّل الضحك إلى مجرد ابتسـامة وقالت:

- اطلعي رتبي غُرَفَ النوم يا خواطر.

- حاضر يا سيدتي.

انطلقت تعدو صاعدة درجات السلم مترنمة بأغنية «يا طالع الشجرة، هات لي معاك بقرة»، وبعد صعودها خمس درجات سمعت جرس الباب فأسرعت بالنزول لفتحه مغمغمة:

- ومن يكون هذا؟ يُهْ، إنه سي خالد، تفضل، يا ألف مرحب، تفضل هنا في الصالون. شرّفت وآنست.

دخل خالد الصالون وذهبت سهير للترحيب به وجلست بالقرب منه، وبعد دقائق معدودة دخلت خواطر تحمل صينية عليها فنجان قهوة وكوب ماء، قربتها إلى خالد قائلة:

- تفضل يا سيدي خالد، قهوتك السكّر زيادة.

كانت هذه ثاني مرَّة ترى فيها خالدا. ظلت واقفة وكأنها تنتظر انتهاءه من شرب القهوة فقالت لها سهير:

- ماذا تنتظرين يا خواطر؟

- لا شيء يا سيدتي، منتظرة طلبات سيدي خالد.

قال خالد:

- متشكر يا خواطر، ليست لي طلبات.

- لكن أنا لي طلب يا سي خالد.

- ما هو؟

- سايقة عليك النبي يا سيدي، ألا تعرف أحدًا يشغلني في السيما؟

- لا، لا أعرف أحدًا منهم، أسأل لك عن هذا الموضوع وإذا عَرَفْتُ شيئًا سأخبرك.

- سألتْ عليك العافية يا سيدي.

ثم أردفت قائلة وهي تغادر الغرفة:

- آه يانا يا غُلبي.

قالت سهير:

- أنا الحقيقة مسرورة لوجود هذه البنت هنا، وجودها خلق جوًّا مرحًا في البيت كنا نفتقده، ولا عيب فيها سوى مسألة السينما هذه، لقد ضبطتُها وهي تأخذ اللبن من اللبّان أمس تسأله ما إذا كان يعرف أحدًا يشغّلها في السينما.

ضحك خالد، ولكن ضحكته تحوَّلت إلى شهقة فزع وامتقع لونه. دهشت سهير وسألته بلهفة:

- ما بك يا خالد؟

حاول السيطرة على مشاعره وقال:

- لا شيء، خُيِّل إليَّ أن شخصًا في الحديقة.

- قد يكون الجنايني الذي يحضر مرة في الأسبوع.

- هل فاتن هنا؟

- لا، ذهبت إلى المدينة لشراء بعض الأشياء ولن يطول غيابها.

في محاولة لإزالة آثار ما حدث قال:

- هل صحتك الآن على ما يرام؟

- الحمد لله، تحسَّنَتْ كثيرًا.

- هل بابا موجود؟

- لا، سافر إلى القاهرة.. عنده مرافعة.

- إذًا ستبِتْنَ وحدكن في البيت الليلة؟

- نعم.

مشيرًا إلى ما حدث في المرة السابقة، قال مداعبًا:

- ألستن خائفات من اللصوص؟

- لا، اتضح أنها كانت مجرد أوهام.

- والأشياء التي كنتِ تسمعينها، الأجراس والقطارات وغيرها.. هل تلاشت؟

- لم أسمعها من مدة طويلة.

- الحمد لله.

دق جرس الباب، فانتفض خالد واقفًا وقد بدا مضطربًا شاحب الوجه. رأى خواطر متجهة نحو باب البيت فصاح قائلًا باضطراب وتلعثُم:

- لا تفتحا الباب!

قالت سهير بدهشة:

- ولماذا لا نفتح؟ أليس من المحتمل أن تكون فاتن؟ سأفتح أنا.

قالت خواطر بانزعاج وقد التصقت بسهير وخالد يغلق عليهما باب الصالون:

- ماذا أنت فاعل بنا يا سيدي؟

ثم التفتت إلى سهير قائلة:

- ماذا جرى لسيدي يا سيدتي؟

قالت سهير وقد امتزج خوفها بحزنها:

- لست أدري.

بحرص شديد، فتح خالد باب البيت. فوجئ برؤية فاتن، فحاول الظهور بمظهر الهادئ قائلًا:

- أهلًا فاتن.

لم تكن تتوقع رؤية خالد فقالت:

- يا حبيبي، أأنت هنا؟

ثم صاحت قائلة:

- بنت يا خواطر.

ردت خواطر من خلف باب الصالون قائلة:

- هل أخرج يا سيدي؟

قالت فاتن بدهشة:

- ماذا تفعل هنا هذه البنت؟

قال خالد:

- لا شيء.

صاحت خواطر قائلة لخالد:

- هل أخرج الآن يا سيدي؟

قال بغضب:

- اخرجي.

بدت هذه التصرفات لفاتن وكأنها طلاسم، وفي محاولة لفهمها قالت لخواطر:

- ماذا تعملين هنا؟ لماذا لم تسرعي بفتح الباب وقد ظللتُ مدة طويلة أدق الجرس؟

همستْ خواطر في أُذُن سهير قائلة:

- هل أخبرها يا سيدتي؟

أمرتْها سهير بالخروج من الصالون فخرجت ثم لحقت بها. جلست فاتن فجلس خالد بالقرب منها نصف منتبه لفاتن وعينه مركّزة على نافذة الصالون، وفي محاولة للخروج من هذه الدوَّامة التي وجدت فاتن نفسها تدور فيها، قالت لخالد:

- ألا تريحني وتريح نفسك وتطلعني على هذا السر الذي تخفيه عني؟ أنا لا أخفي عنكَ أي شيء، فلماذا لا تكون صريحًا مثلي؟

وإذا كنت تشعر بتعب في أعصابك فلماذا لا تعرض نفسك على الطبيب الذي يعالج أختي، إنه طبيب ماهر.

قال خالد وقد وخزته كلمات فاتن:

- لا عيب في أعصابي.

ثم أردف قائلًا بعد بضع ثوانٍ:

- ولكن هناك مسألة أخرى.

- ما هي؟

أطرق إلى الأرض مترددًا بين أمرين أضناه الاختيار بينهما، هل يكشف لها عن السر الرهيب الجاثم على صدره أم يستمر في إخفائه؟ في هذه اللحظة انتزعته من عناء التفكير ضجة هبوط سريع على درجات السلم ممتزجة بصوت خواطر الذي ارتفع إلى أعلى طبقاته وهي تصيح قائلة:

- الحقوني، الحقوني!

هبّ الجميع واقفين وشوهدت خواطر تهرول وخلفها سهير التي أسرعت بالنزول خلف خواطر دون أن تعلم سبب صراخها، والتصقت فاتن بخالد بالقرب من قاعدة السلّم، وتسمَّرت بدرية عند باب المطبخ، ووقفت خواطر أمامهم تلهث. قالت لها فاتن:

- ما بك؟ ماذا حدث؟

قالت خواطر بصوت متقطع وما زالت تلهث:

- رجل، رجل يا سيدتي! رأيت رجلًا في غرفة سيدتي فاتن!

قال خالد وقد شحب وجهه:

- لص؟

- أجل، لص، وماذا يكون غير ذلك؟ مخرج سيما؟

قال خالد:

- أين رأيتِهِ؟

- عند دخولي غرفة سيدتي فاتن...

قاطعتها بدرية قائلة بغضب:

- وما سبب دخولك غرفة سيدتك فاتن؟ إنها ليست من اختصاصك!

- دخلْت لآخذ نقطتي كولونيا أسرِّي على قلبي، فوجدت الصوان مفتوحًا والأشياء مبعثرة على الأرض، ورأيته يقفز من الشباك فوق الشجرة، فخرجت الصرخة من حلقي رغمًا عنِّي وكأنها حوصلة تُنتزع من دجاجة.

ثم ضحكت وأردفت قائلة:

- اللص فوق والبوليس جالس تحت!

قال خالد:

- هل رأيتِه؟ أقصد هل من الممكن أن تعرفي شكله لو رأيته في الطريق مع الناس؟

- لا يا سيدي، أقول لك الحق: لم أرَه إلا من ظهره.

ضربت بدرية كفًّا بكف قائلة:

- هذه الليلة لن تمر على خير.

قال خالد وقد بدا شارد الذهن:

- إنها حكاية في منتهى الغرابة!

قالت فاتن:

- هيا نصعد لنرى ما حدث. أتعشم ألا يكون قد سَرَق شيئًا من عندي!

أسرعت سهير إلى غرفتها شاعرة بخوف شديد، فقبضت على ذراع بدرية وأخذتها معها. بدت غرفة سهير مرتبة لم يعبث بها أحد. أخذت تفحص الصوان وباقي قطع الأثاث فلم تلاحظ اختفاء أي شيء فقالت:

- يبدو أن اللص لم يتسع وقته لزيارة غرفتي.

كانت فاتن لا تزال بصحبة خالد في غرفتها وقد انتهت من فحص محتوياتها، سألها خالد:

- هل اكتشفتِ أية سرقات؟

قالت ويدها ما زالت تواصل البحث:

- لم يُسرق شيء.

ثم استدركت قائلة:

- ولكنني لا أجد مذكراتي!

لم يكن خالد يعرف أن لفاتن مذكرات، فقال بدهشة:

- ليس من المعقول أن يكون اللص سرقها، ماذا يصنع بمذكراتك؟

قالت فاتن وهي شاردة الذهن:

- لست أدري، ولكن لماذا لا أجدها؟ إنها دائمًا في هذا الركن من الصوان.

- ماذا كنتِ تكتبين فيها؟

- إنها مذكرات عزيـزة عليَّ، أكتب بالتفصيل ما يحدث بيننا كل يـوم، وكل ما أذكره مـن حوار؛ فالأحداث التي قـد تبدو الآن عادية ترتفع قيمتها مع مرور الزمن لتصبح ذكريات عزيزة.

- هل فتشتِ جيدًا؟

- أجل!

- متى رأيتِها آخر مرَّة؟

- ليلـة أمـس، كل ليلة أجلس جنب الشـباك وأكتـب فيها كل ما حدث في اليوم، كالعادة.

قال من دون اكتراث:

- سـتجدينها لأنها لا تهم سـواك، ولو أنني يُخيَّل إليَّ أن القصة مـن تأليـف خواطر، أليس مـن المحتمـل أن تكون هـي التي كانت تعبث في الصوان وسـمعت وقع أقدام تصعد السـلَّم فنسـجت هذه الأحدوثة ولم ترَ لصًّا ولا غيره؟

- ولكن أين ذهبت المذكرات؟ إنها تضم كل أسرارنا، ولو أنني أيضًا لا أتصور لصًّا يُقدم على مثل هذه المخاطرة ليسـرق مذكرات شديدة الخصوصية لإنسانة مغمورة مثلي لا يعرفها أحد.

- قد تكون خواطر هي التي سرقتها.

قالت بدهشة:

- خواطر؟! وماذا تصنع بها؟

- لـديَّ إحسـاس قوي بأنها لم تـرَ لصًّا ولا غيـره وأنها هي التي فتَّشت في الصوان.

- المهم عندي الآن مذكراتي.

- أين ذهبت هذه البنت؟

- لست أدري.

صاح خالد قائلًا:

- بنت يا خواطر!

ظهرت في الحال، وكأنها كانت على بُعد خطوتين، قائلة:

- أفندم يا سيدي.

- أحقيقةً رأيتِ شـخصًا في غرفة سـيدتك فاتن يقفز من الشباك إلى الشجرة؟

قالت بانفعال شديد:

- أعـدم عافيتي ونور عيني وأموت محرومة من السـيما لو كنت كذبت! لقد رأيته وهو يقفز من الشباك.

- هل رأيتِه وهو يهبط فوق الشجرة؟

- لا بُدَّ أن يهبط فوق الشجرة؛ فهو لو قفز من الشباك إلى أرض الجنينة ستُكسر رقبته، والشجرة ملتصقة بالشباك، فلا بد أن يقفز إلى الشجرة ثم يهبط منها كما صعد إليها، فهو ليس مغفلًا!

قالت فاتن:

- ومن أدراكِ أنه ليس مغفلًا؟ ربما يكون غبيًّا وقفز من النافذة على أرض الحديقة وكُسرت رجله أو رقبته وما زال راقدًا في مكانه!

قال خالد:

- ربما، من يدري؟ سأخرج لأتأكد.

أرادت فاتن أن تخرج معه، ولكنه صمَّم على الخروج وحده. عندما فتح باب البيت تركه مواربًا، ولم يكن يتصور أحد أن الخوف قد سرى في جسده حتى النخاع، وعندما اقترب من الشجرة الملتصقة بالنافذة توقَّع أن يجد جثة ملقاة بالقرب منها، ولكنه لم يجد شيئًا. لم يخفّف ذلك من وطأة الخوف الجاثم على صدره في تلك اللحظات الرهيبة التي بذل خلالها جهدًا هائلًا ليبدو هادئًا شجاعًا.

خواطر لم تكذب؛ فلقد رأيتُ بعيني من خلال نافذة الصالون شخصًا لم أتحقق من ملامحه، ولكنه في مثل طوله، يسرع الخطى في الحديقة متجهًا نحو تلك الشجرة. ترى أين هو الآن؟ ربما يكون قد غادر البيت؛ فالبوابة مفتوحة على مصراعيها، وربما يكون مختبئًا في ركن من أركان الحديقة.

قالت فاتن لخالد بلهفة وهو يدخل البيت ويغلق الباب خلفه:

- أوَجَدتَ شيئًا؟

- لا، لم أجد له أي أثر.

قالت خواطر:

- قلت لكم: إن المجرم قفز فوق الشجرة وهرب.

على الرغم من أن فاتن قد سبق أن سمعت هذه الجملة من خواطر فإن كلمة «الشجرة» في هذه المرَّة أثارت في ذهنها شيئًا كانت ذاكرتها قد ألقت به في سلّة مهملاتها. قالت فاتن وهي تسترجع المشهد:

- الشجرة؟

ثم التفتت نحو خواطر قائلة:

- اخرجي أنتِ يا خواطر.

خرجت خواطر ببطء، فأقفلت فاتن الباب وقالت:

- هذه الشجرة ذكَّرتني بشيء لم أكن أحب أن أذكره.

- ما هو؟

- في ليلة من الليالي، بينما كنت جالسة في السرير مستندة بظهري أكتب مذكراتي قبل النوم كعادتي، حانت منِّي التفاتة نحو النافذة فتخايلت بشخص مختبئ بين غصون الشجرة يطل عليَّ، ولكنني لم أُعِر الأمر اهتمامًا، فوضعت المذكرات في الصوان ونمت.

- ولماذا لم تخبريني أو تخبري أي أحد؟

- اعتقدتُ في ذلك الوقت أنها لا بُدَّ أن تكون مجرد تهيؤات، مثل الأصوات التي تسمعها سهير؛ فلقد كان القمرُ في المحاق والضوء خافتًا والرؤية صعبة، على الأخص عندما أكون ناظرة إلى الورق على ضوء الأباجورة ثم أنظر بعد ذلك مباشرة إلى الشجرة.

- ومن أدراك أنها لم تكن مجرد تهيؤات؟

- أذكر أنني شاهدت هذا الشخص تحرك، ولكنني كذَّبت بصري.

- ربما كانت الرياح تحرك أغصان الشجر.

- ربما.

خطرت لها في هذه اللحظة فكرة استراحت لها، فقالت:

- هل ستتركنا وحدنا في هذه الليلة يا خالد؟

- وماذا تتوقعين؟ هل أبيت هنا؟

- ولماذا لا تبيت معنا؟

- من غير المعقول أن أبيت معكن ووالدك مسافر.

- بل غير المعقول أن تتركنا وحدنا في هذه الظروف ووالدي غائب عن البيت. عندنا غرفة للضيوف لم نستعملها منذ سنوات عديدة، من الممكن أن تبيت فيها، أرجوك أن تفعل ذلك، أنا خائفة.

ابتسم خالد ثم نظر إلى فاتن قائلًا:

- إنني أفكر جادًّا أن نعقد العقد ونعمل الدخلة لنظل معًا في جميع الليالي!

- ليت هذا يحدث، أنت تعلم أن بابا مصمم على تأجيل الدخلة حتى تمر سنة على وفاة المرحوم خالي.

- ألا تكفي تسعة شهور؟

- لا، إنه مصمم على مرور عام كامل، وأنت تعرف والدي عندما يصمم على شيء. ابقَ معنا هذه الليلة، هذا رجاء مني.

- وهو كذلك، لا يمكنني أن أرفض لك رجاء.

قالـت وهي تقفز صاعدة درجات السـلم وقد شـعرت باطمئنان ملأ قلبها فرحة:

- سـأحضر لك بيجامة من بيجامات بابا لتغيِّر ملابسك الرسمية هذه وتستريح.

بعد قليل هبطت ومعها البيجامة التي أعطتها لخالد قائلة:

- سأصعد إلى أن تلبسها.

* * *

كان بـاب غرفـة سـهير موصـدًا، حاولت فتحـه فوجدتـه مغلقًا بالمفتـاح، فأخـذت تنقر عليـه بإصبعهـا ولكنه لم يُفتـح، فصاحت قائلة:

- افتحي الباب يا سهير سأزف إليك بشرى.

أسرعت سهير بفتح الباب. بادرتها فاتن قائلة:

- خالد سيبيت معنا الليلة!

بسرور لم تستطِع إخفاءه قالت سهير:

- أحقيقة؟ الحمد لله، طمأنتِني.

تبخرت فرحة سهير وحل محلها حزن كثيف عندما فاجأتها فاتن بقولها:

- أعطني مذكراتي..

قالت سهير بدهشة:

- مذكراتك؟ وما شأني بمذكراتك؟

- إنها عندك، أنتِ التي أخذتِها.

- وماذا أصنع بها؟!

- لست أدري، ولكنك من أصحاب السوابق، ألم يسبق لك أن أخذتِ صورة خالد من دون استئذان؟

- أنت تعلمين سبب أخذي صورة خالد، فما الذي يدفعني لأخذ مذكراتك؟ ها هي غرفتي أمامك فتِّشيها كما تريدين!

قالت فاتن وقد أصبحت نبرات صوتها أقل عدوانية وأقرب إلى المستوى البشري:

- أحقيقة لم تأخذيها يا سهير؟

قالت سهير بانفعال شديد:

- وحياة بابا ورحمة ماما ما كنت أعلم أنك تكتبين مذكرات!

قالت فاتن وقد هدأ صوتها وازدادت حيرتها:

- أنا مصدقة.

أردفت سهير مستدركة في محاولة فاشلة للوصول إلى الحقيقة:

- قد يكون بابا عثر عليها ودفعه حب الاستطلاع لقراءتها.

قالت فاتن مستنكرة مثل هذا التفكير:

- هذا تصرف من المستحيل أن يفعله بابا.

ثم خرجت وأغلقت خلفها باب غرفة سهير، وأسرعت بنزول السلم.

أخذت البدلة من خالد ووضعتها في صوان غرفتها.

بعد فترة وجيزة نام الجميع ما عدا سهير التي ظلت حتى منتصف الليل تفكر وتعيد التفكير في الكلمات التي سمعتها من أختها بشأن المفكّرة، ومن عادة سهير ألا تحزن حزنًا شديدًا في البداية

عندما تسمع ما يستدعي الحزن؛ فالحزن يبدأ عندها خفيفًا، ولكنها عندما تختلي بنفسها بعد ذلك تعيد تذكُّر ما سمعته مرة بعد مرة، وكأنه مسجَّل على شريط، وفي كل مرَّة يزداد حزنها حجمًا وعمقًا، وعندما أرادت النوم في هذه الليلة وجدت نفسها في حاجة لتناول إحدى الحبوب المهدئة التي وصفها لها الطبيب.

***

في الصباح، بعد تناول فطورهم معًا، طلب خالد من فاتن أن تحضر له البدلة ليذهب إلى عمله، فصعدت السلم ببطء، ثم رأوها بعد فترة قصيرة تهبط بسرعة صائحة:

- خالد، خالد!

أسرع إليها خالد قائلًا بفزع:

- ما بكِ؟ ما بكِ يا فاتن؟

قالت بصوت متقطِّع وهي تلهث:

- بدلتك.. سُرِقَتْ!

شعر خالد بدوار خفيف وقال وقد سرى اليأس في نفسه كما يسري الحبر في ورقة النشّاف:

- شيء غير معقول.. هل فتشتِ جيدًا؟

- فتشتُ في كل مكان، وسألت عنها كل من في البيت!

- هل سُرق شيء آخر؟

- لا شيء سوى بدلتك!

- وكيف دخل اللص؟

- لست أدري، ولكننا وجدنا شباك الحمام مفتوحًا، لا بد أنه صعد مستعينًا بالماسورة ثم دخل الحمام وهو جنب غرفتي مباشرة.

- وكيف جرؤ على دخول غرفتك وأنت نائمة؟

- قلة أدب، كلما تذكرتُ ذلك يعتريني دوار. أعتقد في هذه المرَّة لا بد من تبليغ البوليس.

قال خالد بحسم غير قابل للمناقشة:

- لا، لن نبلِّغ أحدًا.

قالت فاتن بدهشة:

- لماذا؟

- لا أريد أن يعرف أحد. المهم الآن كيف أذهب إلى عملي؟

- أحضر لك بدلة من بدل بابا، أنت في مثل حجمه تقريبًا، وعندما تصل إلى البيت تستبدل بها إحدى البدل الرسمية. لا بد أن عندك عدة بدل رسمية.

- عندي بدل رسمية، ولكن البدلة التي سُرقَت فيها أشياء مهمة: بطاقتي الشخصية والمحفظة وأوراق أخرى مهمة ومفتاح البيت.

- ألديْك مفتاح آخر للبيت؟

- عندي مفتاح آخر، ولكنه في مكان داخل البيت.

- لا بد إذًا من كسر الباب.

عندما ارتدى خالد بدلة الأستاذ راتب بدت فضفاضة ومتهدلة بشكل لافت للنظر، لاحظت فاتن ذلك ورأت سمات عدم الرضا التي بدت على وجه خالد فقالت:

- احتملها يا خالد حتى تصل إلى البيت. أنا متأسفة وفي منتهى الخجل لحدوث ذلك وأنت في بيتنا.

- بل أنا المتأسف لأن وجودي عندكما سبَّب كل هذا الإزعاج، وكنتما تعتقدان أن وجودي سيُشعركما بالأمان والاطمئنان!

- هل تعتقد أن الذي سَرَق مذكراتي هو نفسه الذي سرق البدلة؟

- لست أدري، شيء محيِّر.

قالت فاتن بلا اكتراث:

- يُخيَّل إليَّ أنك تعرف هذا اللص.

لـم تكـن فاتن تتخيَّـل أن هـذه الجملة الموجـزة سـتفجِّر بركانًا مـن الغضب وكأنها ألقت عددًا مشـتعلًا من أعـواد الكبريت في بئر بترول، فلقد صاح خالد قائلًا وقد بلغ ذروة الانفعال:

- كيف تتصورين أنني أعرف لصًّا كهذا؟

قالت فاتن بهدوء وقد تصورت أن شـرح السـبب قد يهدئ ثورة غضبه:

- ألـم تقل لـي إنك خائف من شـخص تعرفـه، وإن حياتك في خطـر؟ أليس من الممكن وجـود علاقة بين هذا اللص والشـخص الذي أنت خائف منه؟ أليس من حقي أن أعرف هذه الأشياء؟

قـال وقـد ازداد انفعاله وتغيَّـرت نبرات صوته وبـدا لفاتن وكأنه شخص آخر:

- هذا هذيان لا أحب أن أسـمعه. أنا لا أخاف من أحد. إياكِ في أي يـوم مـن الأيام أو أية لحظة أن تكرري ما سـمعته منك الآن. عن إذنك، لقد تأخرت عن عملي.

وخرج مندفعًا دون أن يصافحها وهي تنظر إليه مشدوهة.

كانـت فاتـن تتجنَّب دخـول غرفة أختهـا عندما تكـون بمفردها لاعتقادها أنها تميل للوحدة لتسبح في متاهـات وأحراش أفكارها

وتأملاتها، ولكنها في هذه المرّة لم تُعِرْ هذه الأمور أي اهتمام، فاندفعت إلى الغرفة مضطربة الفكر متجهمة الملامح. كانت سهير جالسة بالقرب من النافذة تقرأ في رواية «مرتفعات وذرينج» وتتذكر قراءتَها في الجامعة لأول مرة عندما كانت بالسنة الأولى بقسم الأدب الإنجليزي وتسترجع بعض ذكريات دراستها، وتتأمل كيف أن رواية واحدة خلَّدت ذكرى مؤلفتها وجعلتها في رأي التاريخ كاتبة عظيمة تدرَّس أعمالُها في الجامعات.

جلست فاتن بالقرب من سهير، فتركت الكتاب ونظرت إلى أختها بدهشة، متوقعةً سماع أخبار مهمة. قالت فاتن بعد أن ظلت مطرقة إلى الأرض بضع لحظات:

- بدأْتُ أضيق بخالد وأفكّر في فسخ الخطوبة.

كان هذا آخر ما كانت تتوقع سهير سماعَه من فاتن، فقالت بدهشة:

- هل جننتِ؟ ماذا حدث؟

التفتت فاتن إلى سهير وقالت وقد لمعت دموعها في عينيها:

- يُخيَّل إليَّ أن حياتي معه لن تكون سعيدة.

قالت سهير بحماس شديد وكأنها تدافع عن نفسها:

- تأكدي يا فاتن أن خالدا أرقّ وأظرف شاب رأيته في حياتي. أخشى أن تكوني غير مدركة لقيمته! لو جُبْتِ كل أنحاء الدنيا لن تجدي من هو أفضل منه.

- أنا أحبه. أحبه بكل قلبي، وهذا ما يعذِّبني!

- ولماذا تتعذبين؟

- في حياته الخاصة أسرار يخفيها عنِّي.. خالد خائف من شيء.

- أي شيء هذا؟

- لست أدري.. أجده أحيانًا على وشك الاعتراف، ثم يعدل عن ذلك في آخر لحظة.

- لا تفسدي سعادتك بمثل هذه التفاهات.. لو في مكانك لكنتُ أسعد مَن في الدنيا. إنني أنظر إليك كرمز للسعادة. كنت أحيانًا أطيل النظر إليك لأعرف كيف يكون السعداء.

- ولكنني لا أشعر الآن بهذه السعادة. أفكر كثيرًا في هذا الموضوع.

- إنني أعتبر هذا التفكير من عناصر السعادة! إنك تجدين شخصًا يفكر فيك كما تفكرين فيه. الإنسان البائس هو المشغول بالتفكير في إنسان لا يعيره أي اهتمام، ألا تشعرين بهذه السعادة؟

- لست أدري ما إذا كان يحبني أم يكرهني.

- من المستحيل أن تجدي شخصًا يكرهك يا فاتن. يوجد أناس مثلك خُلقوا ليُحبّوا.

ثم أطرقت للأرض وقد تهدج صوتها وقالت كأنها تحدث نفسها:

- وآخرون خُلقوا ليتعذبوا.

في هذه اللحظة، اقتحمت خواطر الغرفة دون أن تقطع الأغنية التي كانت تترنم بها عند صعودها السلّم، «مال الهوا يا امّه... إلخ»، وكالعادة لم تنسَ الذيل الذي تضيفه إليها وهو «قطيعة تقطع الهوا وسنينه»، ثم تدخل مباشرة في لب الموضوع:

- سيدتي، سيدتي!

أجابت فاتن قائلة:

- ماذا تريدين يا خواطر؟

- أريد سلامتك يا سيدتي فاتن، ولكنني أكلم سيدتي سهير.

قالت سهير:

- نعم يا خواطر؟ طلباتك؟

قالت خواطر ناظرة إلى فاتن بطرف عينها:

- كلمة سر لسيدتي سهير، عن إذنك يا سيدتي فاتن.

ضحكت فاتن وقالت بسخرية:

- هل نشأتْ بينكما أسرار بهذه السرعة؟

قالت سهير

- لا توجد هنا أسرار يا خواطر، تكلمي، ماذا تريدين هذه المرَّة؟

- ألا أجد معك يا سيدتي سهير عشرة قروش، سلف؟

- وماذا تعملين بالعشرة قروش؟

- يوجد في السيما فيلم أود مشاهدته، لم أشاهده سوى ثلاث مرات، فيلم كله حب وهيام.

- افرضي أن بابا جاء فلم يجدك، ماذا نقول له؟

وضعت خواطر يدها اليمنى على خصرها وقذفت بمؤخرتها إلى اليسار وكأنه شروع في رقص وقالت:

- يُهْ، قولوا أي شيء، خرجت تشتري لحمًا، خضارًا، فاكهة، هل هو تحقيق؟ أيظن نفسه في المحكمة؟

كانـت فاتن طـوال هذا الحوار صامتـة مثبتة عينيهـا في خواطر، ويبدو أن بدرية كانت مختبئة جنب الباب تنصت لهذا الحديث ولـم تستطِع البقاء خارج الغرفة أكثر من ذلك، فتسللت ووقفت متظاهرة بتنظيف زجاج النافذة بخرقة كانت في يدها. قالت فاتن:

- يبدو يا سـهير أنك أسـرفتِ في تدليلها، إنها لا تجرؤ على مثل هذا الحوار معي.

لم تستطِع بدرية الالتزام بالصمت، فدخلت في الخط قائلة:

- هو كذلك، لا أحد دلَّل هذه البنت سوى سيدتي سهير، لم تعد تسمع لي كلامًا.

قالت سهير بنبرة حاولت أن تكون جادة:

- اذهبي يا خواطر أكملي شغلك.

تجاهلت خواطر أوامر سهير وقالت:

- ما رأيك يا سـيدتي في اسمي؟ هل يصلح للسيما أم أُغيِّره؟ لـم أسمع عن ممثلة محترمة في السيما اسمها خواطر.

صاحت بدرية قائلة بغضب:

- سـينما تقصف رقبتك، ألا يوجد على لسـانك سوى السينما؟ امشي انجرِّي على المطبخ.

نظـرت خواطـر إلى سـهير بعينيـن مبتلتيـن امتزج فـي نظراتهما الانكسار مع العفرتة وقالت:

- أيرضيكِ يا سيدتي سـهير أن تهينني بدريـة كل هذه الإهانات وتجرح إحساساتي؟

قالت بدرية:

- روحـي إن شـاء اللـه تنامي ما تحسِّـي! هل أُخبر سـيدتي عما عملتِه أمس؟

قالت سهير بدافع حب الاستطلاع:

- ماذا عَمَلتْ يا بدرية؟

صاحت خواطر قائلة لسهير:

- لا تصدقيها يا سيدتي، إنها دائمًا تكذب!

قالت بدرية:

- كذا؟ إذًا سـأقول. أمس يا سـيدتي رأيتها من الشـباك تمزح مع الولد برهومة المكوجي.

قالت خواطر دون أن تنظر لبدرية:

- كذابة!

ثم أردفت قائلة:

- هو الذي يستلطفني، ماذا أقول له؟ هل أكسفه؟

ثم نظرت إلى بدرية قائلة:

- أنتِ تغارين مني.

- اخرسي قطع لسانك، بنت قبيحة قليلة الحياء. من ذا الذي يستلطفك؟ لا أحد يحتمل النظر إلى خلقتك. أنت التي ملهوفة على الزواج. ولكنك لن تتزوجي أبدًا وسوف ترين!

سمعت سهير تلك الجملة «لن تتزوجي أبدًا، وسوف ترين» تتردد وترن في أذنها وكأنها صدى، وبعد تردد الجملة عدة مرات سمعت كلاكس سيارة خالد، فشعرت بدوار. تحاملت على نفسها وقد خارت قواها ونظرت من خلال النافذة في محاولة لرؤية سيارة خالد وكأنها تستنجدها وتستمدُّ من وجودها بعض الطمأنينة. لم تجد لها أي أثر، فعادت وجلست في مكانها منهوكة القوى وغمغمت قائلة:

- هل سمعتن صوت كلاكس عربة خالد؟

قالت بدرية:

- تعلمين يا سيدتي أن سمعي ضعيف، أنا لم أسمع شيئًا.

وقالت خواطر:

- أما أنا فأسمع دبة النملة، ولم أسمع صوت الكلاكس.

لم تستبعد فاتن إمكان وجود سيارة خالد.. من يدري؟ ربما يكون قد عاد ليسترضيني بعد خروجه غاضبًا دون أن يصافحني.

ركَّزت فاتن أُذُنها على صوت جرس الباب، ولكن الجرس لم يدق. شعرت برغبة في التأكد من عدم وجود السيارة، فتسلَّلتْ وهبطت السلَّم وفتحت باب البيت وخرجت إلى الحديقة بهدوء وأخذت تنظر في شتى الزوايا التي لا تظهر من النافذة. لم تجد شيئًا، فدخلت وأغلقت الباب بهدوء شاعرة بشيء من الشَّجَن، وحانت منها التفاتة فرأت غرفة مكتب أبيها بمكتبتها المليئة بالكتب، فخطرت لها فكرة.

لقد رفضتُ رأي سهير عندما قالت لي إن مفكرتي قد تكون وقعت في يد والدي، ولكن من يدري؟ إن مكتبته الضخمة هي المكان الوحيد الذي لم أفتش فيه. السؤال: لماذا يأخذها؟ ربما يكون الدافع لذلك رغبته في الاطمئنان على مشاعري نحو خالد ومدى سعادتي معه؛ فهو في منتهى الحساسية لهذه الأمور.

وما كادت فاتن تبدأ الفحص حتى سمعت وقع أقدام سريعًا في الدور العلوي يوحي بوجود اضطراب. أسرعتْ بصعود السلَّم،

فوجـدت خواطر تغـادر غرفة نومها وفـي يدها قارورة. اسـتوقفتها وسألتها عن سبب دخولها غرفتها.

- كنت أحضر زجاجة العطر لسيدتي سهير!

قالت فاتن بلهفة:

- ما بها سهير؟

لـم تنصـت فاتن لسـماع إجابـة خواطر عن سـؤالها وأسـرعت بالذهاب إلى سهير للاطمئنان عليها.

كانـت سـهير نائمة علـى ظهرها فوق السـرير وفي يدهـا منديل تجفف به دموعها وقد بدت شـاحبة الوجه. وضعت فاتن يدها على كتف أختها قائلة:

- ماذا جرى يا سهير؟

جففت سهير دموعها المنهمرة وقالت:

- لقد عاد لي المرض!

فتحـت خواطـر غطـاء القـارورة وأخـذت تمررهـا تحـت أنف سـهير فأخذت سـهير القارورة منها وأقفلتها ووضعتهـا جنبها على الكُمُودينو.

- أكلُّ هـذا لأنكِ سـمعتِ صـوت كلاكـس سـيارة خالد؟ ومن يدرينـا؟ ربما قد حضـر بالفعل وضغط على الكلاكـس ثم غيَّر رأيه وغادر المكان.

قالت سهير بحسْم:

- لا، خالد لم يحضر. لقد سمعتُ أشياء أخرى ثم أخذ جسدي يرتعش، ولم أشعر بشيء بعد ذلك إلا عندما ناديتني الآن.

فكَّـرت فاتـن بسـرعة وهداهـا تفكيرهـا إلى ضـرورة اسـتدعاء الطبيب بأسرع ما يمكن.

* * *

عندمـا رأت سـهير الطبيب شـعرت براحة نفسـية. بعـد حديث استغرق نحو ربع ساعة، قال الطبيب:

- أعتقـد أنكِ أصبحتِ الآن على ما يرام، ولكن أحب أن أعرف سـبب هذا التعب المفاجئ. هل سـمعتِ شـيئًا غير صوت كلاكس سيارة خالد؟

- أبدًا، سمعت مجرد مشادَّة عادية بين بدرية وخواطر، وسمعتُ بدريـة تقول لخواطـر إنها لن تتـزوج أبدًا، وبعد ذلك سـمعت هذه الجملـة تـرنُّ في أذني وتتكرر عـدة مرات وكأنها صـدى، وكل مرَّة بصوت أعلى من السابق حتى تحولت إلى ضوضاء تكاد لا تحتملها أذني.

قال الطبيب مبتسمًا:

- هل سمعتِ صوت كلاكس سيارة خالد قبل سماع هذه الجملة أم بعدها؟

- سمعت صوت الكلاكس بعد سماع تلك الجملة مباشرة. ثم شعرت بالرعشة والخَدَر الذي سرى في جسدي!

- أسمعتِ شيئًا من الأصوات التي سمعتِها من قبل؟

- سمعت صوت القطار مساء أمس، ولكنني لم أذكر ذلك لأحد.

أطرق الطبيب إلى الأرض مفكرًا تفكيرًا عميقًا ثم قال:

- شيء عجيب، كل ما سمعتِه من أصوات يرمز لأشياء ذات علاقة بحوادث معينة، تمكنْتُ من حل كل تلك الرموز، ما عدا صوت القطار. لا بُدَّ من وجود حادث، أثَّر في نفسك تأثيرًا عميقًا، ذي صلة بالقطار. أنا أطلب منك الآن أن تغوصي بذاكرتك في فترة الطفولة، ألا تتذكرين، مثلًا، أنك كنت مسافرة في قطار ووقع حادث ذو علاقة بشخص تعرفينه، أو رأيت شخصًا ذكَّرك وجوده بأمور معينة؟

ظلت سهير تجول في ثنايا ذاكرتها وكأنها ترتاد طرقًا مهجورة في غابات تسكنها أشباحٌ غير واضحة المعالم، ثم قالت:

- تذكـرْتُ شـيئًا مُهمًّـا ذا علاقـة بالقطار؛ عندما كنت في السـنة الرابعة الابتدائية كانت لي صديقة تدعى سلوى علّام، كانت مريضة ولكنهـا كانت أحب البنات إليَّ، تجلس جنبي في الفصل، ولا نكاد نفتـرق عـن بعضنـا. كنـت كلما حزنـت ألجـأ إليها فتخفـف حزني وتسرِّي عني. نعم، وأذكر أيضًا والدها، كان مُدرِّسًا في مدرسة ثانوية بالإسـكندرية، وانتقل إلى مدرسـة الزقازيق الثانوية، فحزنت لذلك حزنًا عميقًا وذهبت لوداعها. تركت أباها وأمها ووقفنا معًا على بعد أمتار منهما على الرصيف في انتظار القطار في محطة سـيدي جابر، وعندمـا رأينـاه قادمًـا انهمرت دموعنا، ولمـا توقف قبَّلتْنـي وقبَّلتُها وذهبَـتْ ببـطء نحو بـاب عربـة القطار بعد ركـوب والديهـا وكأنها لا تريـد أن تتركني، وعندما دخَلَـتْ العربة وقفت جنب النافذة تطل علـيَّ ورأيتُها تجفـف دموعها. ثم صفر القطـارُ وبدأ يتحرك وظلت تلوِّح لي بمنديلها حتى لم يعد في استطاعتي رؤيتها، وظللت ناظرة حتى اختفت آخر عربة في القطار.

في هذه اللحظة شعرْتُ أن الإنسانة التي كانت تشاطرني همومي وتحـاول تخفيـف آلامي قـد لا أراها بعـد اليوم، فاجتاحني شـعور بأنها تركتني وحدي على سـطح كوكـب غير مأهول بالسكان، وبعد شهرين من سفرها وصلني خبر وفاتها!

وانهمرت دموع سـهير غزيرة، فشعر الطبيب بعطف شديد عليها وقال:

- إننـي أعتبر هـذا الحادث مـن أهم ما صادفك فـي حياتك من أحداث؛ لذا عندما شعرتِ الآن بضيق ورغبة في شكوى ما ترزحين تحت وطأته من أحزان، سمعتِ صوت القطار.

- وهل للأصوات الأخرى رموز؟

- طبعًـا، صوت الجرس مثـلًا له علاقة بجرس عربـة المطافئ، وهـو يذكرك بأنهـم تركوكِ وحدكِ يوم الحريق، أما الموسـيقى التي كنت تسـمعينها فهي مرتبطة بصوت المزيـكا التي كانت تنبعث من عروسـة فاتن التي كان بابا قد أعطاها لها، وهو أول حادث تتذكرينه عن طفولتك.

ظلت فتـرة مطرقة إلى الأرض مترددة في طرح سـؤال تمنت أن تعرف إجابته من الطبيب:

- ولماذا أسـمع صوت كلاكس عربة خالـد دون أن تكون هناك عربة؟

قال الطبيب ببساطة دون ظهور أي تعبيرات على ملامحه:

- لسـببين، أولًا: لأنـه هـو الشـخص الوحيد في محيـط العائلة الذي تشعرين بعطفه عليك.

- وثانيًا؟

- وثانيًا: لأنك تحبين خالد.

قالت بهدوء مفتعل:

- من الطبيعي أن أحبه؛ إذ لا يوجد ما يدعو لأن أكرهه، أليس هو خطيب أختي؟ أحبه كما أحب بابا وفاتن.

- لا أقصد مثل هذا الحب، أنت تحبينه كما تحبه فاتن، وربما أكثر.

احمرَّ وجهُها وقالت غاضبة ومتحاشية النظر إلى الطبيب:

- هذا شيء لا يمكن أن يحدث، ما هذا الكلام الذي تقوله يا دكتور؟ هل هذا معقول؟!

ابتسم الطبيب وقال بنبرة حنان:

- لا داعي لهذا الانزعاج، اسمعي يا سهير.

قالت شاعرة في أعماقها برغبة في سماع المزيد من هذا الكلام متحاشية التقاء عينيها بعينيه:

- نعم يا دكتور؟

- عندما كنتِ طفلة صغيرة كانت لك صديقة وحيدة في مثل سنك تبادلك المودّة والإعزاز، تفرح لفرحك وتحزن لحزنك،

ولكن هذه الصديقة ابتعدت عنك، ثم ماتت. هذه مأساة قاسية بالنسبة لك، ولم تعثري على ما يملأ الفراغ الرهيب الذي حدث في حياتك، وترين شقيقتك فاتن تعامَل معاملةً أفضل من معاملتهم لك فيئست من الحياة لاعتقادك في قرارة نفسك أنك غير محبوبة وغير مرغوبة، وأنك ستعيشين طوال حياتك بلا زواج.. صارحيني، ألم يطُف بذهنك هذا الشعور؟

قالت وهي مطرقة إلى الأرض:

- أجل، طاف بذهني، وما زال يطوف.

- ثم جاء خالد وخطب شقيقتك فاتن، وفَرْق السن بينكما عام واحد، الناظر إليكما لا يستطيع معرفة أيكما أكبر. وكنت في أعماق نفسك تتمنين أن يخطبك شخص مثله، ولكن هذه الأمنية كانت في نظرك أملًا بعيدَ المنال. ثم اتضح لك فيما بعد أن خالد يعطف عليك؛ لأنه إنسان رقيق المشاعر، والبنات المحرومات من الحنان، مثلك، من الطبيعي أن يكنَّ عرضةً للوقوع في غرام أول شخص يعطف عليهن، وهذا أيضًا شيء خارج عن إرادتك، فكانت النتيجة أن أحببتِ خالد في صمت، وهذا الحب الصامت خَلَق لك مشكلة أخرى.

نظرت إلى الطبيب نظرة خاطفة ثم أطرقت إلى الأرض قائلة:

- كيف؟

- أصبحتِ تعتقدين أنك بشعورك هذا نحو خالد تقترفين جريمة أخرى في حق أختك تضاف إلى شعورك بالذنب لوفاة والدتك عند ولادتك؛ حيث أوهموكِ، بمعاملتهم لكِ، أنكِ أنتِ المسئولة عن موتها.

قالت بصوت خافت متهدج وما زالت مطرقة إلى الأرض:

- لقد خُلقتُ للعذاب، عذابي وعذاب الآخرين.

قال الطبيب:

- لا تحمِّلي نفسك كل هذا العذاب القاسي، فكل ذلك أنتِ لا ذنبَ لكِ فيه.

- لم يمنحني الله أية صفة من الصفات التي ترفع قدر الإنسان في عيون الناس وتجعل لحياته فائدة ومعنى.

وأجهشت بالبكاء، فقال الطبيب محاولًا رؤية عينيها الناظرتين إلى الأرض:

- من قال ذلك؟ ألا تعلمين أنك فنانة موهوبة؟

رفعَتْ عينيها عن الأرض ونظرت إلى الطبيب وقالت مدهوشة، ولو أن هذه الكلمات أشعرتها بومضات خافتة من الفرحة:

- أنا موهوبة؟ أية موهبة تلك التي لا أعلم عنها شيئًا؟

- في إحدى زياراتي لكِ، وأنا في انتظار فتح الباب سمعتُ عزفًا على البيانو في منتهى الجمال، سألت والدك عن العازف فأخبرني أنه أنت. هل تصدقين أن تلك الأنغام ما زالت ترن في أذني؟

قالت بصوت خافت محاولة إخفاء موجة الفرح الهزيلة التي سرت في كيانها:

- كنت أعتقد أن كل من في البيت يضيق بعزفي.

- وما الذي أوحى إليك بهذا الاعتقاد الخاطئ؟

- لم أسمع كلمة استحسان من أحد.. سواك.

ابتسم الطبيب وقال:

- هذا طبيعي؛ فأقرب الناس إلى العباقرة والموهوبين لا يشعرون بعبقريتهم أو موهبتهم.

ثم أردف ضاحكًا:

- يقال إن بعض الذين كانوا يسكنون بالقرب من الموسيقي العظيم بيتهوفن قدموا ذات يوم شكوى إلى البوليس لأنه يزعجهم بموسيقاه.

ضحكت سهير وقد أضاء وجهها ثم قالت:

- ولكنني لست بيتهوفن.

- ولكنك تتمتعين بمواهب أخرى؛ فقد رأيتُ رسمًا رائعًا من رسومك.

انتفضت سهير وقالت بفزع:

- ماذا رأيت يا دكتور؟

- رأيت صورة كبيرة لخالد في صوانك.

قالت بدهشة وغضب:

- كيف رأيتَها؟ وهل اللياقة أن يطَّلع أي إنسان على أشياء خاصة في صوان فتاة؟

- لو لم يكن جزءًا من علاجك لما فعلته، على أية حال أعتذر لك، أنا متأسف.

قالت بسخرية:

- ترى ماذا رأيت أيضًا؟

- رأيت قصة.

كانت هذه مفاجأة لسهير؛ إذ إن تلك القصة كانت قد سقطت تمامًا من ذاكرتها، ربما ليأسها من نشرها، فقالت:

- شيء غريب، أنا لم أذكر شيئًا عنها لأي إنسان، فكيف عَرَفْت؟

ثم أردفت قائلة بعد لحظة صمت قصيرة:

- واختفت من نحو شهر، وبحثت عنها في كل مكان فلم أجدها.

قال الطبيب مبتسمًا:

- ستجدينها الآن.

قالت بدهشة:

- أين؟

فتح الطبيب حقيبته وأخرج مجلة واسعة الانتشار وقدمها لسهير قائلًا:

- ابحثي عنها هنا.

اختطفت المجلة وأخذت تفرُّ صفحاتِها في عجلة فلم تستطِع العثور على القصة. سَحَبَ الطبيب المجلة من يدها برفقٍ قائلًا:

- لو بحثتِ عنها بهذه السرعة والعصبية فلن تجديها أبدًا. قلِّبي الأوراق بهدوء وبطء.

ضحكت ضحكة قصيرة لا إرادية عندما رأت العنوان فملأت به عينيها، وظلت ناظرة إلى اسمها بضع ثوانٍ، وأخذ الطبيب يردد عنوانها:

- «وداعًا أيها الربيع»، عنوان رومانسي جميل.

سحب الطبيب المجلة ووضعها جنبها قائلًا:

- سأترك لك العدد لتتصفحيه كما يحلو لك.

كانت تود أن تظل تقرأ القصة وتعيد قراءتها، ولكن الطبيب وضع حدًّا لذلك، فقالت:

- ولكن كيف وصَلَتْ القصة إلى المجلة؟ لقد وضعتُها في الصوان ونسيتها.

- المهم أنها وصلت ورأتها المجلة جديرة بالنشر ونُشرت، فلا تشغلي بالك بهذا الموضوع.

عادت صورة خالد تشغل ذهنها، فقالت:

- ولكنك فتحت صواني في غيابي.

- أجل، فعلت ذلك، ولكنني لم أكن وحدي، والدك كان معي.

ثم أردف قائلًا:

- لا يوجد في صوانك ما يدعو للخجل، فلماذا الغضب إذًا؟

أطرقت إلى الأرض وقد قفزت في ذهنها قصتها المنشورة وكأنها تلوذ بها لتهدئة موجة الغضب والانفعال، فحانت منها التفاتة لا إرادية نحو المجلة بجوارها، ولكنها لاحظت أن النشوة التي شعرت بها عندما رأت القصة أول مرَّة بدأت تخبو ويحل محلها تدريجيًّا شيء من الشَّجَن الذي تحوَّل إلى اكتئاب خفيف لاحظه الطبيب، فقال:

- ما بكِ؟ فيمَ تفكرين؟

- أفكر في سبب التفتيش في صواني.

- تأكَّدي أن التفتيش في صوانك كان للبحث عن أشياء ذات علاقة بعلاجك، فأرجو ألا تفكري في هذا الموضوع مرَّة أخرى، ولا تنسي أنني لولا فتح صوانك لما أُفرَج عن قصتك التي كانت سجينة فيه.

- على أية حال، أنا أكتب هذه الأشياء لنفسي ولا يهمني أن يقرأها أحد.

- هذا شعور غير طبيعي ينبغي أن تتخلَّصي منه؛ فكل إنسان يتمنى أن يكون موضع إعجاب أكبر عدد من الناس؛ فهو لا يعيش وحده في الكون بل مع آخرين، والانعزال عن الناس ظاهرة مدمِّرة، هل يمكنك احتمال الحياة بمفردك على سطح كوكب من الكواكب أو في مدينة مهجورة؟ لن يكون للحياة معنى؛ فنحن صدى لوجود الآخرين، وما نحن سوى مجموع أفكار الناس عنا وآرائهم فينا. يجب أن تخرجي من الصومعة التي اخترتِ العزلةَ فيها، لماذا تغلقين على نفسك باب غرفتك وكأنك ارتكبت عملًا مخجلًا؟!

- أنا أشعر بالخجل.

- لا يوجد في حياتك ما يُخجل، فلماذا الخجل؟

- يُخيَّل إليَّ أن الناس ينتقدون كل كلمة أنطق بها وكل حركة من حركاتي.

- هذه تهيؤات كالأصوات التي كنتِ تسمعينها ولا وجود لها.

- قد يكون ذلك بسبب...

- بسبب ماذا؟

- أنا أعلم أنني لست جميلة.

- هذه أيضًا تهيؤات خاطئة؛ لسبب بسيط.

- ما هو؟

- أنت جميلة.

- أنا.. جميلة؟

- أنت على قدر من الجمال لا يمكن أن ينكره أحد، ولكنك لا تعرفين هذا القدر لأنهم دائمًا يقارنونك بفاتن فتصورتِ أنتِ أنكِ لستِ جميلة. إنك تعيشين في عالم من صُنع خيالك، لا وجودَ له، الأصوات التي تسمعينها لا وجود لها، والأفكار المسيطرة عليك غير حقيقية. عليكِ يا سهير أن تحبي الحياة! تلزمكِ عملية انسلاخ كما تنسلخ اليرقة.

- كيف؟

- اليرقة في أثناء نموها تنسلخ، أي تغير جلدها، عدة مرات، وبعد آخر انسلاخ لليرقة تظهر العذراء، ثم تنسلخ العذراء وتخرج فراشة تختلف عن اليرقة تمام الاختلاف. ألم تهتمي في فترة طفولتك بتربية دودة الحرير كما فعلْتُ أنا وكثيرون غيري من الأطفال؟

شـعَرتْ سـهير بأنها تسـترجع ذكريات من قاع بئر عميقة، فطغى على مشاعرها إحساس بالحنين المشوب بالشَّجَن وقفز إلى خيالها منظـر صديقتها سـائرة على رصيف المحطة حاملـةً حقيبتها متجهةً نحـو باب عربـة القطار. جذبها مـن براثن ذكرياتها صـوت الطبيب عندما قال:

- أنـتِ محتاجـةٌ لتغيير جلـدك كما تغير اليرقـة جلدها. أنتِ في مسـيس الحاجة لأن تصبحي إنسـانة أخرى. أريـد منك أن تهجري الدودة وتصبحي فراشة.

11

انتهـت خواطـر من تنظيـف وترتيب غـرف النوم وبـدأت تهبط السـلَّم وكأنهـا ترقص، كالعادة، وهـي غير قادرة علـى الصمت؛ إذ تقـول إن الصمت يجفف زورها ويتعب حلقها ويوجع رأسـها؛ لذا نجدهـا دائمًا تدندن بأغنية، وإذا بدأت بأغنية معينة في الصباح تظل تكررهـا حتى المسـاء، وهـي تفضِّل الأغانـي ذات الإيقاع السـريع مثـل أغنية «مال الهوا» التي تترنـم بها الآن، رافعة عقيرتها إلى أعلى طبقـات صوتها عندما يكـون الأب خارج البيت كمـا هو الحال في هذه اللحظـة، ولكنها قطعت أغنيتها واتجهت إلـى الغرفة المنبعث منها صوت عزف سـهير على البيانو ووقفت تنصت حتى انتهت من عـزف المقطع الـذي كانت تعزفه. فرحت سـهير معتقـدةً أن جمال عزفها جذب خواطر فجاءت تنصت إليه، سألتها:

- ماذا تريدين يا خواطر؟

خاب ظن سهير عندما ردت خواطر قائلة:

- ما اسم الدكتور الذي يحضر هنا يا سيدتي؟

- وما شأنك به؟ هل يلزمك علاج؟

- ليته يستطيع علاجي!

- أنا لا أرى بك مرضًا، ها أنتِ كالعفريتة.

قالت خواطر وقد بدا الحزن في ملامحها:

- لا يا سيدتي، أنا مريضة، ومرضي صعب، مستعصٍ.

- ما مرضك؟

- مريضة بالسيما. لو اشتغلت في السيما سأُشفى. ألا يعرف الدكتور شخصًا ينجدني ويشغِّلُني في السيما ويكسب ثوابًا؟

- لا، لا يعرف.. على فكرة، لا بُدَّ من رفع الصور المعلقة على جدران غرفتك، لو رآها سيدك ستكون كارثة، سيطردك من هنا فورًا.

- وهل في هذه الصور ما يدعو للغضب؟ هل أنا معلِّقة، لا سمح الله ولا قدر، شيئًا قبيحًا؟ إنها ثلاث صور لا غير، أنثيان وذكر من الممثلين المحترمين، أم تُرى تنتظرين منِّي تعليق صورة بدرية؟

وغادرت الغرفة وهي تغني «مال الهوا» ثم صعدت بضع درجات وأخذت ترقص على السلم. وبينما هي منهمكة في الرقص سمعت صوت جرس الباب، فغمغمت قائلة:

- ومن عديم الذوق والإحساس الذي سيقطع سلسلة أفكاري؟

اندفعت نحو الباب وفتحته بعصبية مستعدة لإطلاق صواريخ لسانها الموجَّهة نحو القادم، فإذا بها وجهًا لوجه أمام سيِّدها، فانتابتها حالة هستيرية جعلت الكلمات تتزاحم للخروج من حلْقها وفمها دون أن تمر على المخ، حتى امتلأ المكان بكلمات لا معنى لها:

- حمدًا لله على السلامة يا سيدي، بيتك ومطرحك، شرَّفت ونوَّرت البيت، البيت من دونك مظلم، كفانا الله شر الظلام...

ظل الأب محملقًا في وجهها مشدوهًا ثم صاح قائلًا:

- كفى تخريفا يا بنت، ماذا دهاكِ؟ هل جُننتِ؟ امشي شوفي شغلك.

قالت وقد عادت بغتةً إلى حالتها الطبيعية:

- حاضر يا سيدي.

صُعقت عندما تنبهت إلى خطأ جسيم لم تنتبه إليه إلا في هذه اللحظة، كيف تترك سيدها طوال هذه المدة حاملًا حقيبته في إحدى يديه وفي اليد الأخرى يحمل هذا الشيء الغريب الذي لم

تعرفه؟ فانقضت على الحقيبة وانتزعتها من يده وكأنها تختطفها، ولمّا حاولت أخذ الشيء الآخر لم يتركه لها.

أقبلت سهير مبتسمة، فتحركت خواطر نحو غرفة المكتب ووضعت الحقيبة في المكان الذي اعتادت رؤيتها فيه، ثم تسللت بهدوء إلى المطبخ. قالت سهير:

- أهلًا بابا.

- أهلًا سهير، تعالي خذي بوستك.

باسها على خديها وأعطاها الصندوق الذي كان يحمله قائلًا:

- هذه لكِ. أحضرتُها لكِ من القاهرة عندما علمت من فاتن أنك تتمنين شراءها.

كان في الصندوق آلة كمان أنيقة. كانت هذه مفاجأة سارة لسهير لم تكن تخطر على بالها. ضمَّت الكمان إلى صدرها قائلة:

- منذ سنوات وأنا أحلم بها!

وسالت دموعها على خديها، فقال الأب:

- ولماذا لم تخبريني أنتِ؟ لو كنتِ أخبرتِني لحققت لكِ حلمكِ على الفور.

* * *

أخـذت سـهير تصعـد السـلم محتضنة الكمـان واتجهـت نحو غرفتهـا. كانــت فاتن جالسـة أمام مرآة التسـريحة فـي غرفتها تتزين لتوقعهـا حضور خالد، وعندما شـعرت بعودة أبيها أسـرعت بإنهاء تزينها وارتداء ملابسـها اسـتعدادًا للنزول للترحيب به. رأت سـهير وهي تدخل غرفتها محتضنة الكمان فهنَّأتها بالهدية الثمينة.

بعد الانتهاء من طقوس الترحيب بأبيها قالت:

- وماذا أحضرت لي يا تُرى؟

فتـح الأب الصحيفـة التـي كانـت بيده وأخـذ يقلـب صفحاتها قائلًا:

- أحضرت لك خبرًا مفرحًا، خالد حصل على ترقية!

وقدم لها الصحيفة واضعًا يده على الأسطر المتضمنة الخبر. لم يبدُ على فاتن أي انفعال عندما قرأته وقالت:

- ولماذا لم يخبرني خالد قبل أن أقرأ النبأ في الصحيفة؟

تجاهل الأب الإجابة عن تساؤلها وقال:

- سأهنئه في التليفون.

وبينمـا يهم بالذهاب إلى غرفة المكتب، حيـث يوجد التليفون، فوجـئ الأب وفاتن برؤية سـهير تهبط السـلم بأقصى سـرعتها وقد بدت ملامح وجهها معبرة عن فزع شديد صائحة:

- بابا، بابا..

تسمَّرت فاتن في مكانها مشدوهة، وأسرع الأب إلى سهير واحتضنها قائلًا:

- ما بكِ يا سهير؟ ما بكِ يا حبيبتي؟

قالت سهير وعيناها تدوران في أنحاء المكان:

- رأيت شيئًا عجيبًا لا يصدقه العقل!

وبدت على وشك الانهيار وهي تقول:

- أنا خائفة، أنا خائفة يا بابا!

أسرع الأب باحتضانها وانتقل الجميع إلى غرفة المكتب، أجلس الأب سهير بجواره واحتضنها قائلًا:

- لا تخافي وأنتِ معي، ماذا رأيتِ؟

- رأيت خالدا جالسًا على فرع شجرة ناظرًا إليَّ مبتسمًا من خلف زجاج الشباك.

همست فاتن لأبيها قائلة:

- استدعيتُ لها الدكتور وحضر لزيارتها.

قال الأب:

- هل تشعرين بتعب يا سهير؟

شعرت سهير بزيادة ملحوظة في سرعة دقات القلب وكأنه قلب عصفورة، وبدأت الدموع تبلل خديها، فجففها والدها بمنديله قائلًا:

- بماذا تشعرين الآن؟

- أشعر بخوف شديد. منظر خالد وهو ناظر لي من خلف الزجاج ما زال يرعبني، إنه لا يفارق خيالي!

أخذت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة. قالت وهي تجففها بمنديل أبيها:

- أخشى أن يكون المرض قد عاودني، ظننت أنني شُفِيتُ منه.

قال الأب:

- هل استجدَّ ما أحزنك؟

- لا، بل حدث ما أفرحني؛ فلقد فرحتُ بالكمان وشعرت بسعادة لم أشعر كثيرًا بمثلها من قبل، ولكن فرحتي لم تدُم طويلًا! كنت سأُجنُّ من الخوف.

دق جرس الباب، فظهرت خواطر في الحلْبة بسرعة البرق وكأنها سقطت من السقف، وفتحت الباب. صاحت قائلة:

- سي خالد؟ أهلًا وسهلًا، تفضل.

سألها:

- هل حضر سيدك من السفر؟

- نعم، إنهم في غرفة المكتب.

دخل خالد الغرفة فوجد الجميع يحدِّقون فيه بشكل غير عادي. قال:

- حمدًا لله على السلامة يا عمي.

- الله يسلمك.

قالت فاتن:

- مبروك الترقية.

- الله يبارك فيكِ، كنت أظن أنني سأفاجئك.

قال الأب:

- قرأتُ الخبر في الصحيفة وأخبرت فاتن.

همست سهير لخواطر قائلة:

- روحي أقفلي شيش نافذة حجرتي، بسرعة.

انطلقت خواطر في صمت نحو غرفة سهير، وتسلَّلت سهير خلفها. قال الأب:

- إلى أين يا سهير؟

- سأجلس في غرفتي مع خواطر.

قال خالد:

- ولماذا لا تجلسين معنا هنا؟

- أنا محتاجة لبعض الراحة، عن إذنكم.

أخذت تصعد السلم ببطء مستعينة بالدرابزين.

همس خالد قائلًا:

- سهير تبدو في حالة غير طبيعية، ما بها؟

قال الأب بنبرة حزينة:

- سهير تعبانة.

قال خالد وهو مطرق إلى الأرض:

- مسكينة، أما زالت تعبانة؟

قال الأب:

- عادت تسمع أصواتًا لا وجود لها.

في هذه اللحظة، انبعثت من غرفة سهير محاولات عزف على الكمان. قال خالد بدهشة:

- أليس هذا صوت كمان، أم ترى بدأتُ أنا أيضًا أسمع أصواتًا لا وجود لها؟

قال الأب:

- لا تخَف، هذا الصوت حقيقي، سهير تعزف على الكمان.

قالت فاتن:

- بابا أحضرها لها من القاهرة.

قال خالد مازحًا:

- الحمد لله، طمأنتني، خفتُ أن أكون قد التقطت منها عدوى.

أسرعت فاتن قائلة:

- لا سمح الله ولا قدَّر، لكن أعجب ما حدث لسهير لن تستطيعَ تصديقه.

قال خالد باهتمام:

- ماذا حدث؟

- إنها تقول...

وغلبها الضحك فضحكَتْ، ولكن نهرها والدها قائلًا:

- علامَ تضحكين؟ أنا لا أجد ما يدعو للضحك، أنا في منتهى الحزن من أجل هذه البنت.

قال خالد وقد استبدَّ به حب الاستطلاع:

- ماذا جرى؟

- تقول إنها رأتك ناظرًا إليها من وراء زجاج النافذة.

لم يكن يتصوَّر أحد أن هذه الجملة التي نطقت بها فاتن ستسبب لخالد كل هذا الإزعاج. لقد امتقع لونه واضطربت حركاته؛ إذ قام ثم جلس بلا أي مبرر وتفصَّد العرق من جبهته وخديه وقال بصوت مسلوخ:

- متى حدث ذلك؟

- قبل حضورك بلحظة.

أخذ خالد يطيل النظر إلى النافذة وكأنه يبحث عن نفسه، ثم يستقر عند باب الغرفة وكأنه يتوقع دخول أحد، ثم يطرق إلى الأرض ويحرك رجله اليمنى حركات سريعة عصبية.

قالت فاتن:

- سهير كانت قد ذكرت لي أن الدكتور أخبرها أن المرض قد يتطوَّر، فترى أشياء لا وجود لها إلى جانب سماع الأصوات.

قال خالد وهو يجفف عرقه:

- ولكن لماذا رأتني أنا بالذات؟ هذه المسألة أزعجتني.

قالت فاتن بصوت غاضب:

- ماذا جرى لك يا خالد؟ أكلُّ شيء أصبح يزعجك؟

ثم أردفت قائلة بسخرية:

- أحزين لهذه الدرجة من أجل سهير؟

قال الأب غاضبًا:

- من الطبيعي أن يحزن من أجلها. وأنتِ، ألسْتِ حزينة لمرضها؟ كان يُخيَّل إليَّ أنها شُفِيت.

وانتفض واقفًا وقال:

- عن إذنكما، سأذهب لتغيير ملابسي، تعبتُ من ارتداء البدلة طَوال النهار.

سار الأب ببطء مطأطئ الرأس ناظرًا إلى درجات السلم حاملًا هموم الدنيا. انبعث صوت الكمان من غرفة سهير فأشعره بشيء من الاطمئنان.

ظل خالد جالسًا جنب فاتن غير شاعر بوجودها وكأنه انتقل إلى دنيا غير الدنيا، تطوف بذهنه أفكار مخيفة.

إذا كان ما رأته سهير مجرد تهيؤات وأوهام، فما القول في سرقة البدلـة واختفـاء مفكرة فاتن؟ تـرى هل أصبحتُ على شـفا ما كنت أخشـاه مـن أحداث لا أحـد يدرك ما تخبئـه بين طيَّاتهـا من متاعب وأهوال؟

انتشله من متاهة أفكاره صوت فاتن عندما قالت:

- ماذا فعلْتَ يا خالد عندما وصلْتَ إلى البيت من دون مفتاح؟

تجاهل سؤالها وقال:

- هل قصصتِ على والدك شيئًا عن هذا الموضوع؟

- لا، لم يتسع الوقت للحكايات.

- هذا أفضل.

- بل الأفضل أن يعرف كل شيء.

قال بانفعال:

- ليـس كل شـيء يقـال، لا تكوني سـببًا فـي تحميلـه مزيدًا من الأحزان، لقد لاحظت أنه متألم من أجل سهير.

- لـو لم أخبـره أنا فهل تعتقـد أن خواطر ستسـكت؟ أعتقد أنها كانت منتظرة عودته بفارغ الصبر لتحكي له كل شيء.

قال بفزع لم تدرك فاتن ما يبرره:

- لا، أوصِها ألا تفتح فمها، كفَى ما لديه من مشكلات.

لم تجد فاتن ما يبرر الاستمرار في هذا الحديث فغيَّرت مجراه قائلة:

- لم تقُل لي، ماذا فعلت عندما وصلت إلى البيت بلا مفتاح؟

- لا شيء، كسرت الباب ودخلت وأحضرت المفتاح الثاني الذي كنت محتفظًا به في درج المكتب. أنا متأسف لعدم إحضار بدلة بابا لأنني أرسلتها لتُكوَى.

- وماذا أقول لبابا إذا لاحظ عدم وجود إحدى بدله؟

- قولي إنك أرسلتها للكوَّاء أو للتنظيف، هل هذه مشكلة؟

ثم أردف قائلًا:

- مسألة حزينة بدءُ رؤية سهير لأشياء لا وجود لها، يبدو أن مرضها قد بدأ يشتد، مسكينة، أنا في منتهى الحزن من أجلها.

- حزنك واضح، هل ستبيت عندنا الليلة؟

- لا، كفى ما حدث، هل يرضيكِ أن تُسرق كل بدلي؟

- ضياع بدلة من بدلك أهون من ضياع مذكراتي المدوَّن فيها جميع ذكرياتي. من الممكن شراء بدلة بدلًا من التي سُرقتْ، ولكن من المستحيل تعويض ما في مفكِّرتي من ذكريات جميلة. ضياعها سيحرق قلبي.

قال خالد مطوقًا كتفيها بذراعه:

- سلامة قلبك.

- أنا أعرف سبب خوفك على قلبي؛ لأنك ساكن فيه.

قال خالد وفي أعماقه رغبة في التأكد من أمر مشكوك فيه:

- أحقيقة يا فاتن؟

- لا شك في ذلك، ولكن الذي لا أعرفه مَنْ بداخل قلبك أنتَ؟

- وهل يوجد سواكِ؟ أنت حبيبتي ونور عيني، أعز إنسان لديَّ، الأمل الذي أعيش من أجله.

قالت فاتن وعيناها مثبّتتان في عيني خالد:

- اشتريتُ كراسة جديدة وسأبدأُ الكتابة بالحديث الذي يدور بيننا الآن، ألن يكون ذلك براعة استهلال؟ فإذا تغيَّر قلبُكَ في يومٍ من الأيام سأغلق غرفتي على نفسي وأعيش في الذكريات.

- من جهة قلبي اطمئني، سيظل عامرًا بحبك حتى أموت.

قالت غاضبة:

- لا تنطق هذه الكلمة مرَّة أخرى، قُل: حتى يعلو بنا السن، حتى نشيخ.. أو أي شيء بهذا المعنى.

ثم أردفت قائلة:

- تُرى، هل يَقِلُّ الحب بعد الزواج؟ هذا ما أخشاه.

قال خالد بعد فترة تفكير قصيرة:

- الحب أشكال وألوان، وما قد يتغيَّر منه هو الشكل أو اللون، ولكن الحب نفسه يبقى كما هو.

- ليس في كل الأحيان، ولكن...

قاطعها خالد قائلًا:

- ومن الحب ما يزداد يومًا بعد يوم، كالقمر، يبدأ هلالًا ويظل ينمو حتى يصبح بدرًا.

في هذه اللحظة انبعث من ناحية باب الغرفة صوت غير متوقَّع، ضعيف، ولكنه اخترق أذني فاتن وكأنه طلقة مدفع جعلت كل جسدها ينتفض، فأسرع خالد بالالتفات نحو مصدر الصوت

فرأى سـهير واقفة جنب الباب منحنيـة إلى الأمام قليلًا ومطرقة إلى الأرض، ولـم يكن ذلك الصوت سوى كلمة واحدة، وهي:

- فاتن..

التـزم خالـد الصمت، ولكـن فاتن - بعـد أن بذلت جهـدًا كبيرًا للسيطرة على جهازها العصبي - قالت:

- مـاذا تريديـن يا سـهير؟ أما زلتِ صاحية؟ حسـبتك في سـابع نومة.

وهي مطرقة إلى الأرض دون أن تنظر نحو خالد، قالت سهير:

- هل ناداني خالد الآن؟

دار فـي ذهن خالد أن يرد عليهـا بالإيجاب قائلًا إنه ناداها؛ حتى لا تعـرف أنها سـمعت صوتًا لا وجود له، ولكنـه عدل عن ذلك في آخر لحظة وقال:

- لا يا سـهير، لم أوجِّه إليك أي نداء، ولكنني سـعدتُ برؤيتك الآن.

قالت بصوت خافت دون أن ترفع رأسها:

- أنا متأسفة، رنَّ في أذني صوتك تناديني فجئت تلبيةً لندائك.

استدارت وأخذت تصعد السلَّم ببطء مستندة على الدرابزين.

لاحظت فاتن التأثر باديًا في ملامح خالد فهمست له قائلة:

- هـل صدَّقـتَ كلامهـا؟ تجدها منذ سـاعة واقفة جنـب الباب منصتة لحديثنا.

قال خالد وفي صوته نبرة غضب:

- لا تسيئي الظن يا فاتن، حرام.

في محاولة لتغيير مسار الحديث، قال:

- اسمعي يا فاتن، سأسألك سؤالًا تهمني الإجابة عنه.

أنصتت فاتن بأقصى طاقتها السمعية، فقال:

- هل سيدوم حبك لي مهما كانت الظروف؟

بدا السؤال لفاتن غريبًا فقالت:

- لا شك في ذلك، ولكن ما تلك الظروف؟

أطرق إلى الأرض ثم قال بعد فترة تردد دون أن يرفع رأسه:

- افرضي، مثلًا، أنني لم أكن ضابطًا في البوليس، فهل كان ذلك يؤثر على حبك لي؟

قالت بسخرية:

- أنا لا أفهم ما تقصده.

لاحظ وجود نبرة ضيق في حديثها فرسم على فمه ابتسامة ليوحي لها بأن ما يقوله مجرد هزل، وقال:

- تخيلي، مثلًا، أنني ارتكبت شيئًا يعاقب عليه القانون.

- شيئًا يعاقب عليه القانون؟ جريمة؟

- مثلًا، أو أي شيء من هذا القبيل.

رفعت كتفيها في حركة تدل على الخوف والاشمئزاز قائلة:

- لا تخيفني، وهل هذا معقول؟

قال وقد تلاشت ابتسامته:

- أقول: افرضي.

- أنا لا أفرض مستحيلًا؛ إذ ليس من المعقول أن خالدا، ضابط البوليس المهذب الأمين مثال النزاهة والشرف، يرتكب جريمة، ولكن ما الذي دفعك لمثل هذا السؤال الغريب؟

- لا شيء سوى اختبار مقدار حبك لي، يقال إن الحب يتخطَّى جميع العوائق.

قالت فاتن وقد أسبلت جفنيها على عينيها:

- ليس إلى هذا الحد، وهل توجد إنسانة محترمة تسمح لقلبها بأن يحب شخصًا مجرمًا؟ الإنسانة عندما تحب إنسانًا إنما تحبه لصفاته النبيلة وطباعه الحميدة، ولكن إذا فُجعت باكتشاف إحدى الصفات البشعة فإن الحب يتحوَّل إلى احتقار، ولا يمكن أن يحب الإنسان شخصًا يحتقره؛ فالإعجاب أولى مراحل الحب.

- كنت أتخيل أن الحب أقوى من أي ظروف. توجد نساء أحببن وتزوجن من عتاة المجرمين.

- لا بُدَّ أن يكنَّ مجرمات كأزواجهن، أنا شخصيًّا أقول بكل صراحة: إنني لو علمتُ أن أحد أجدادك أو أقاربك كان سيئ السمعة لما قبلت الزواج منك؛ فالزواج ليس مجرد حب، بل توجد عوامل الوراثة التي قد تنقل إلى الأبناء الصفات السيئة التي ابتُلي بها الأقارب والأجداد. هذه نظرتي للحياة، مسائل الوراثة مهمة. دعنا من هذا الحديث المزعج، كنت أتمنى أن تكون لك أخت لتصبح من أعز صديقاتي.

قال خالد بصوت حزين:

- لا إخوة لي ولا أخوات، كان لي أخٌ توفي.

- نعم، لقد ذكرت لي ذلك، ولكن منذ متى حدث هذا؟

- منذ نحو عشر سنوات.

- ما اسمه؟

قال بصوت متهدج وقد طفرت الدموع من عينيه:

- كان اسمه منصورا.

ثم نظر إلى ساعته وانتفض واقفًا قائلًا:

- لقد تأخرت الليلة كثيرًا، آن أوان الفراق.

وأسرع بالخروج.

12

كانـت خواطر تصعد السـلم مترنمة بأغنية «يـا حنّة يا حنّة يا قطر الندى، يا شباك حبيبي يا عيني جلَّاب الهوا»، ولكنها قطعت الأغنية عندما مرَّت بها بدرية هابطة السـلم حاملة بقايا فطور سهير قائلة لها بصوت منغم:

- بدرية.

فتوقفت بدرية ناظرة إليها بعينين مفترستين:

- ماذا تريدين؟

- اعملي لي فنجان شاي يعدل دماغي.

صاحت بدرية قائلة بغضب:

- اخرسي، قطع لسانك، لم يبقَ سواك أعمل له الشاي!

- خلِّـي في قلبك رحمة، ألا ترين لوني المخطوف؟ ألا تدركين أنني مريضة وجسمي مزفزف؟

استأنفت بدرية سيرها قائلة:

- روحي إن شاء الله يزفوكِ لعزرائيل!

- إن شالله ما عملتِ.

قالت بدرية وهي متجهة نحو المطبخ:

- سأشكوكِ لسيدي، لا يوجد هنا من تخافين منه سواه، يا قليلة الأدب يا طويلة اللسان!

استأنفت خواطر الغناء، وفي هذه اللحظة دق جرس التليفون، فأسرعت بالنزول لتسبق بدرية في الرد عليه. قالت وكأنها تغنِّي:

- ألو، من حضرتك؟ موجودة، حاضر، من عينيّ.

كانت بدرية واقفة عند الباب منصتة للحديث، التفتت لها خواطر وقالت:

- أرسلي سيدتي فاتن ترد على التليفون يا بدرية.

ثم استأنفت حديثها في التليفون قائلة:

- اسمعي والنبي يا حضرتك، ألا تعرفين أحدًا في السيما؟ أنا، أنا خواطر، أريد أن أمثِّل في السيما (تضحك) هئ هئ.. أنا أعمل هنا بصفة مؤقتة..أنا..

أسرعت فاتن بالدخول في هذه اللحظة فأخذت السماعة من خواطر قائلة لها:

- ما هذا الكلام الفارغ الذي تقولينه في التليفون يا بنت؟ امشـي من هنا!

وبدأت ترد على المكالمة:

- من حضرتك؟

- أنا زينب عبد اللطيف.

- أهلًا يا زينب.. لماذا لا نراكِ؟

- وهل نراك نحن؟ كيف حال سهير الآن؟

- الحمد لله، أحسن.

- اسمعي يا فاتن، لن أتكلم كثيرًا ولكنني سأخبرك بمسألة مهمة تتعلق بخالد لتكوني على علم بها.

شعرت فاتن وكأنها سقطت من طائرة، فقالت بفزع:

- تكلمي يا زينب، أنا مصغية.

- يبدو أن هذا الحديث لا يصلح في التليفون. سأمرُّ عليكِ اليوم ونتكلم في هذا الموضوع.

- تكلمي الآن يا زينب، ما حكاية خالد؟

كان من الممكن أن تتكلم على الفور في لُب الموضوع، ولكنها شعرت بلذَّة لإثارة القلق والترقُّب لدى فاتن، فآثرت أن تتركها في هذه الحالة أطول مدة ممكنة، قالت:

- سأمر عليكم الساعة الرابعة، هل يوافقك هذا الموعد؟

- لماذا لا تحضرين الآن؟

- بعد الظهر أفضل.

- سأكون في انتظارك.

* * *

كان يتحتَّم الآن على فاتن أن تظل نحو سبع ساعات في انتظار زينب عبد اللطيف، تدور في أنحاء البيت على غير هدى، غير قادرة على البقاء مدة طويلة في مكان واحد، تجتاحها الأفكار الرهيبة والظنون المدمِّرة، وكانت سهير في غرفتها تعزف على الكمان.

عندما اقتحمت خواطر الغرفة وهي تغني: «برهومة حاكيني، زعلانة سلِّيني، من فرقتك يابا، مجروحة داويني». توقفَتْ بغتةً عن الغناء ووقفَتْ أمام سهير. سمعت بدرية غناءها ورأتها تدخل غرفة سهير فوقفت جنب الباب تُنْصت. توقفَتْ سهير عن العزف وقالت:

- ماذا تريدين يا خواطر؟

- سأذهب لإعطاء الملابس للمكوجي.

لـم تحتمل بدريـة الوقوف متفرجة عند البـاب فاقتحمت الغرفة قائلة:

- إن شـاء الله تُكْوين على رقبتك. أنا أعرف سـبب لهفتك على المكوة، للكلام الفارغ وقلة الأدب مع الولد برهومة المكوجي.

نظرت خواطر إلى سهير بعينين متوسلتين وقالت:

- أسـمعتِ يا سـيدتي ما قالته؟ هـل يرضيكِ كلامهـا هذا؟ ماذا أقول لواحدة في سنِّ أمي؟

- اخرسـي، قطـع لسـانك، هل أنـا عجـوز كركوبة مثـل أمك؟ الشباب شباب القلب.

حَسَـمتْ سـهير المعركـة عندمـا طلبت مـن بدرية عمـل فنجان ينسون، فغادرت الغرفة وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، وسحبت سـهير الكمان واسـتأنفت العزف، وجلسـت خواطـر على الأرض بالقرب منها، فتركتْها تجلس وسألتْها:

- ما رأيك يا خواطر في هذه النغمة؟

- نغمة حلوة، ترد الروح، تنعش القلب الولهان.

ثم توقفت سهير عن العزف وقالت:

- أتمنى أن أتعلَّم قراءة النغمات؛ فأنا أعزف اجتهادًا من دون تعليم.

- لماذا لم تطلبي هذا من بابا؟

- خجِلْت.

- وهل يخجل أحد من أبيه؟ ولماذا لا تخجل سيدتي فاتن؟ أنا كنت ليل نهار لا أكف عن الطلبات من أبي حتى توفي، الله يرحمه.

ابتسمت سهير وقالت:

- ماذا كنتِ تطلبين منه؟

- مرَّة أطلب نبُّوت الغفير، ومرة أريد «الجلاطة» الموضوعة في الطرطور، ومرَّة أريد الذهاب إلى المولد، ومرَّة أريد براغيث الست. أنا مريضة بداء الطلبات، ولم يَرُد لي أبي طلبًا سوى طلب واحد، في هذه المرَّة بدلًا من إحضار ما طلبته، أحضر الخيزرانة وظل يضربني ويحذرني من النطق بهذا الطلب مرة أخرى، وأنا أبكي وأصرخ قائلة: «توبة.. حرّمت، توبة.. توبة»..

ولـم تفلـت منها فرصـة الغناء فأكملـت حديثها بأغنيـة «توبة إن كنت أحبك تاني توبة، بس قابلني مرة وتبقى دي آخر نوبة».

واستغرقتا في الضحك هي وسهير، ثم قالت سهير:

- وما الشيء الذي أغضب والدك عندما طلبتِه؟

قالت خواطر وقد أشاحت بوجهها بعيدًا عن سهير:

- لا يا سيدتي، اعفني من ذكره، فلا يليق بمقامك أن أذكره الآن؛ فلقد كنتُ صغيرة السن لا أفهم شيئًا عندما طلبته من أبي.

***

بعـد أن أضنـى فاتن التعـب وهي تـذرع البيت صعـودًا وهبوطًا وجَوَلانًا تمضيةً للوقت في انتظار قدوم زينب عبد اللطيف، أخذت كتابًـا واسـتقر بهـا المقـام في الشـرفة المطلة علـى بوابـة الحديقة. حاولـت القراءة في الكتـاب ولكنها لـم تسـتطِع التركيز، فلقد كانت دائمة النظر إلى الساعة. تذكرت جملة كانت قد سمعتها من مدرِّسة اللغـة الإنجليزية عندما كانت في المدرسـة الثانويـة، كنَّ في انتظار أوتوبيـس ينقلهـن في رحلة إلـى القاهرة، وكانت فاتن سـعيدة بهذه الرحلة وفي شوق شـديد إليها. لاحظت المدرِّسة أن فاتن تنظر إلى سـاعتها كل دقيقة أو أقل، فذكرت لها مثـلًا إنجليزيًّا يقول: «الوعاء

الذي لا نرفع عنه بصرَنا لا يغْلِي أبدًا». لقد عاودها هذا الشعور وهي فـي انتظار قدوم صديقتها زينب، فحاولت الإقلال من عدد المرات التـي تنظـر فيها إلى سـاعتها، ولكنها كانت ترفع ذراعهـا وتنظر إلى عقـارب السـاعة بحركة لا إراديـة. وبعد فترة امتدت إلـى ما بدا لها وكأنه أفق اللانهاية رأت صديقتها تدخل من بوابة الحديقة، فهرعت لفتح باب البيت.

بعـد المصافحة وعبارات الترحيب، جلسـتا في الصالون. ظلت فاتـن محدِّقة في وجه زينب في انتظار الحديث الخطير، ولكن يبدو أن زينب اسـتعذبت هـذا الانتظار والقلق فأطرقـت إلى الأرض في صمت، وعندما طال الصمت وبلغ حدَّ الاسـتفزاز وأوشـكت فاتن على الانفجار، قالت زينب بعد أن ارتشفت آخر جرعة من القهوة:

- كنـت أود أن أنبهـك إلى شـيء مهم، في جملتيـن مختصرتين ونحن وحدنا قبل مجيء سهير.

قالت فاتن بصبر نافد:

- منـذ حديثك معي في التليفون وأنا في انتظار هاتين الكلمتين، ما حكاية خالد؟

قالت زينب وهي مطرقة إلى الأرض ملتذّة بتصاعد قلق فاتن:

- أنا الحقيقة يا فاتن لم أرَ شيئًا بعيني، ولكنني سمعت.

أوشكت فاتن أن تقول لزينب إنها لا ترغب في سماع أي شيء عن هذا الموضوع، ولكنها تملّكت نفسها وقالت:

- ماذا سمعتِ؟

اعتقادًا من زينب أن هذه الجملة ستَزِيدُ من قلق فاتن، قالت:

- هل لخالد أخَوات؟

- لا، لا إخوة له ولا أخوات، ولكن لماذا تسألين هذا السؤال؟

قالت زينب راسمةً على وجهها دهشة شديدة:

- تُرى من هي إذًا البنت التي كانت بصحبته في السينما ليلة الأحد الماضي؟

قالت فاتن وقد شعرت بدوار خفيف:

- أكانت معه بنت في السينما يوم الأحد الماضي؟ من قال لك هذا الكلام؟

- رفيعة مختار رأتهما معا، ولقد أدهشني ذلك؛ فأنا أسمعك دائمًا تمتدحين أخلاق خالد، فخطر ببالي أن تكون أخته.

قالت فاتن بصوت خافت وهي شاردة الذهن:

- لا، لا أخـوات له ولا إخوة، ولكننـي لا أصدق أن خالد يفعل شيئًا كهذا، فأنا أعرف أخلاقه جيدًا.

- هل يزوركم كل يوم؟

قالـت فاتن وهي مطرقة إلى الأرض وقد اكتسـى وجهها بخمارٍ من الأسى:

- نعـم، يزورنـا كل يـوم تقريبًـا، ولكنـه لـم يحضـر يـوم الأحد الماضي.

- تقـول رفيعـة مختـار إنها كانت جالسـة مع أبيهـا ووالدتها في البلكون وأقبل خالد مع البنت وجلسا أمامهم وخجلوا من التحدث مع خالد عندما وجدوا البنت معه.

بدأ خيال فاتن يعمل بسـرعة راسـمًا صورًا مختلفـة لهذه الفتاة، واستقرَّ شريط الصور عند مارلين مونرو.

رفعت فاتن رأسها ونظرت إلى زينب قائلة:

- ما شكلها؟

شعرت فاتن بمزيد من المهانة عندما قالت زينب:

- تقول رفيعة مختار إنها جميلة، ولكنها تبدو كبنات الليل.

غمغمت فاتن قائلة بصوت هامس:

- شيء غريب.

وأردفت زينب قائلة:

- وتقول رفيعة مختار أيضًا: إن خالدا يومها لم يكن أنيقًا كعادته بل بدا وكأنه خارج من معركة، وكان دائم التلفت حوله وكأنه خائف.

- هذا طبيعي؛ فهو يخشى أن يراه أحد مع «الجوهرة المصونة».

ظهرت سهير أمامها بغتة؛ فلقد كانت تهبط السلَّم ببطء شديد واحتراس زائد لتنصت إلى أكبر قدر من هذا الحديث المسلِّي الذي تناثرت إليها بعض كلماته.

- أهلًا زينب.

- أهلًا بك، سمعت أنك كنت متوعكة، كيف حالك الآن؟

- الحمد لله.

- لن أنسى يوم حضرتِ إلى منزلنا للاستفسار منِّي ما إذا كان شكلك يدل على أنكِ مجرمة..

وضحكت ضحكة مفتعلة.

في هذه اللحظة دخلت خواطر الغرفة لتقديم كوب من عصير البرتقال للضيفة. كانت خواطر على وشك الاستفسار عن شيء من زينب، ولكن دقَّ جرس الباب فأسرعت لمعرفة القادم.

- أهلًا وسهلًا، تفضل يا سيدي!

قرَّبت شفتاها من وجه خالد حتى بدت وكأنها تبوسه، وهمست في أذنه قائلة:

- سيدتي فاتن وسيدتي سهير في الصالون ومعهما ضيفة.

- من هذه الضيفة؟

استبطأت فاتن قدوم الزائر الذي أدخلته خواطر فصاحت قائلة:

- من يا خواطر؟

- سي خالد يا سيدتي.

قالت فاتن.

- تعالَ يا خالد.

عندما دخل خالد الصالون، كانت زينب قد انتهت من شفط كوب البرتقال. صافحت خالد وأسرعت بالانصراف، وصعدت

سـهير إلى غرفتهـا. بدت فاتن، على غير عادتهـا، صامتة مطرقة إلى الأرض وكأنها تحمل على كتفيها أحزان سهير. سألها:

- ما بكِ يا فاتن؟

أجابت بنبرة غاضبة دون أن تنظر إليه:

- رأسي يوجعني.

وانتفضـت واقفةً للخروج من الغرفة ولكنه أسـرع بالقبض على ذراعها بقوة وأعادها إلى مكانها وقد بدا نافد الصبر شاعرًا في الوقت نفسـه بخوف يجيش في صدره. حاولت انتـزاع يدها منه ولكنه ظل ضاغطًا عليها وصاح قائلًا:

- من حقي معرفة سبب هذا الغضب المفاجئ!

- اتضح أنني كنت مغفلة..

أسرعت دقات قلبه وانخفضت طبقة صوته وهو يقول:

- ماذا جرى لكِ يا فاتن؟ ماذا حدث؟

فاجأته قائلة وقد ثبّتتْ عينيها في عينيه:

- أين كنت ليلة الأحد الماضي؟

قال مسترجعًا في ذهنه تلك الليلة:

- ليلة الأحد؟ ولماذا هذا السؤال؟ ألأنني لم أحضر هنا في تلك الليلة؟

- أجبني عن سؤالي!

- كنت في بيت أحد أصدقائي، توفيت عمته وذهبت للعزاء.

قالت بسخرية:

- يبدو أن العزاء أقيم في دار للسينما!

التقط رادار أُذُن خواطر كلمة «السينما» من بين جميع الكلمات فاقتحمت الغرفة قائلة:

- من كان يتحدث عني؟ ما بها السيما يا سيدتي؟

نهرتها فاتن بغضب وطردتها من الغرفة فخرجتْ مزمجرة.

قال خالد وقد أخذت الأفكار تضطرب في ذهنه:

- منذ خطوبتنا لم أذهب وحدي إلى السينما.

- ومن قال إنك كنت وحدك؟

- أنا لا أفهم شيئًا، لماذا لا تتكلمين بوضوح؟

- إذا كنت تظن أن أحدًا لم يرك فأحب أن تعرف أن إحدى صديقاتي رأتكما أنتما الاثنين معًا في السينما ليلة الأحد، يبدو أن الإسكندرية ليست كبيرة بالحجم الكافي لإخفاء جميع الأسرار..

قال بدهشة وسخرية:

- رأتنا إحدى صديقاتك في السينما! أهذا ما يحزنك؟

قالت بسخرية:

- بل هذا ما يفرحني.. يبدو أن في حياتك أسرارًا كثيرة لا أعرفها..

- سأبرهن لكِ الآن أن ما أحزنك لا أساس له من الصحة، تعالَي معي.

- إلى أين؟

- إلى التليفون!

أخرج من الجيب الداخلي لسترته نوتة صغيرة بها أرقام تليفونات.

- ها هو ذا رقم تليفون الذين كنت عندهم يوم الأحد، لا تكشفي عن شخصيتك واسأليهم عن آخر مرَّة رأوني فيها.

- لن أفعل ذلك!

- كما تحبين، سأدير أنا الرقم وأتركك أنتِ تردين على الجرس!

قالت فاتن:

- ألو.

رَدَّ صوتُ رجل يقول:

- من حضرتك؟

قالت فاتن بعد لحظة تردد قصيرة:

- هل من الممكن أن أعرف متى رأيتم خالد المنياوي، ضابط البوليس، آخر مرَّة؟

- لم نرَهُ منذ ليلة الأحد الماضي عندما حضر للعزاء.

- ومتى خرج من عندكم؟

- في منتصف الليل تقريبًا.

- شكرًا، ومتأسفة على الإزعاج.

- لكن لماذا تسألين؟ هل خالد بخير؟

لم تُجِب فاتن عن هذا السؤال ووضعت السماعة. قال خالد بنبرة عتاب:

- هل استراح بالك؟

قالت فاتن شاعرة بشيء من الخجل:

- أنـا متأسـفة يـا خالد، لن أصـدِّق مثل هذا الـكلام مرة أخرى، اعذرني وسـامحني. أنا أعرف زينب عبد اللطيف جيدًا؛ كانت دائمًا تغار منِّي عندما كنَّا في المدرسة.

اتجهت فاتـن نحو الصالون لمواصلة الحـوار، ولكن خالد ظلَّ واقفًـا في مكانه شـاعرًا بشـيء من الضيـق وعدم الرغبـة في الكلام فقال:

- تُمسين على خير.

قالت فاتن بانزعاج:

- أغضبتَ؟

دارت في ذهنه أفكار غير مريحة حاول السيطرة عليها فقال:

- ليـس المهم غَضَبِـي، المهم أن تكوني أنت سـعيدة، هذه أول مرَّة أراكِ فيها حزينة.

***

عندما وصل إلى منزله أدهشه وجود الباب مفتوحًا.

شـيء عجيب! من المستحيل أن أترك الباب مفتوحًا، فمن فتحه إذًا؟ هل فتحه لص؟

كانت الشقة تسبح في الظلام، وكان من عادته ألَّا يطفئ جميع الأنوار عندما يغادر البيت، بل يترك في البهو ضوءًا خافتًا، فمن أطفأه؟ هل النور مقطوع في المنطقة؟ لا، ليس مقطوعًا؛ فالمساكن المجاورة تتلألأ بالأضواء. ضغط على مفتاح الإضاءة فلم ينبعث الضوء، بل انبعث من أحد أركان البهو صوت قوي يقول:

- خالد.

اضطربت أدوات الاتزان في ذهن خالد فصاح قائلًا بانزعاج شديد:

- من أنت؟

قال الصوت بهدوء:

- أنا منصور، لا تخَف يا خالد، اغفر لي جرأتي لدخولي بيتك في غيابك. أنا مشتاق لرؤيتك وفي انتظارك هنا من مدة طويلة. لماذا ترتجف من الخوف؟ هل تتصور أنني لا أرى خوفك في الظلام؟ سأضيء لك المكان لتراني.

بدا منصور في عين خالد أصغر من حجمه الحقيقي، لم يكن جالسًا على أحد الكراسي، بل كان قابعًا متربعًا على السجادة في ركن من أركان البهو. جلس خالد على حافة الكرسي وقال بعد أن التقط أنفاسه:

- ماذا تريد منِّي الآن؟ ألم أطلب منك البعد عني وتركي وشأني؟ ألا تكلُّ من طلب الفلوس؟ لا نقود معي اليوم.

- حلمك عليَّ وهدِّئ أخلاقك، لماذا كل هذا الغضب؟

استمر خالد مندفعًا في غضبه الذي لم يستطِع السيطرة عليه قائلًا:

- ألا يكفيك ما فعلتَه في بيت خطيبتي؟ أتريدهم أن يعرفوا أن المجرم الذي قضى عمره في السجون، الذي سرق بدلتي الرسمية هذه التي ترتديها، وسرق مذكرات فاتن خطيبتي هو أخي، أخي المولود معي في يوم واحد؟!

- وما دمت تعرف أنني أخوك ومولود معك في اليوم نفسه، هل يرضيك أن تعيش في العز وتناسب الأكابر وأظل أنا مسكينًا جائعًا؟

أثار خالد منظر المسدس الذي يحمله منصور ويلوِّح به، فقال:

- ما الذي تنوي عمله بهذا المسدس؟ هل تنوي قتلي؟

قال منصور ساخرًا:

- أقتلك؟! من المستحيل أن أقتل أخي، إنني أحمله على سبيل الاحتياط ليس إلا.

ثم سكت قليلًا وأردف قائلًا:

- أنتـم الذين قتلتموني ودفنتموني حيًّا وأشَـعْتُم بينَ الناس أنني مِـتُّ، ولكن مهما كان، من المسـتحيل أن تمتد يـدي لقتلك، فأنت من دمي ولحمي.

وضع منصور المسدس في جيبه وقال وهو مطرق إلى الأرض:

- ومهمـا نسـيت، لا يمكـن أن أنسـى يـوم هربـتُ من السـجن ولجـأتُ إليـك لأختبئ عندك، ولكنك صممت علـى الإبلاغ عني، فخرجـت من عندك ذليـلًا خائفًا، وانتهـزتَ فرصـة اختفائي وعدم اسـتطاعتي الظهور بين الناس وأعلنتَ أنني مِتُّ، فاعتقد الناس منذ ذلـك اليوم أنني لم يعد لي وجود، وظللنا نحـن الاثنين خائفَيْن؛ أنا خائف من الزج بي في السـجن من جديد وأنت خائف من معرفتهم صلتـك بي لـو افتضح أمري. ولكـن من هذه اللحظـة انتهى خوفي ويبقى خوفك أنت وحدك.

قال خالد بصوت خافت، متوقعًا هبوب عاصفة عاتية:

- كيف؟

- أنت الذي ستُسجن، سأبدأ أنا الاستمتاع بالحرية.

قال خالد ساخرًا غير مدركٍ لهوْل الكارثة التي تنتظره:

- أأُسجن أنا؟ كيف يحدث هذا؟ وهل يُسجن بريء؟

اعتدل منصور في جلسته وصوَّب نحو خالد عينين كعيني ثعبان وقال:

- أنصت لي جيدًا يا خالد.. أنت، كما تعلم، أخي التوأم، ضمّنا رحم واحد ووُلدنا في يوم واحد، كل واحد منا صورة طبق الأصل من الآخر، أنت تذكر أن أبي وأمي، رحمهما الله، وهما أقرب الناس إلينا، لم يكونا قادرَين على التمييز بيننا، فكانا يلفَّان حَول ذراع أحدنا رباطًا ليعرفا أيّنا خالد وأيّنا منصور.

سئم خالد سماع مثل هذا الكلام، فقال:

- تكلم في الموضوع بلا لف ولا دوران.

- إنني أتكلم في لب الموضوع.

- ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول إننا - نحن الاثنين - الآن في منتصف العمر تقريبًا، أنا أمضيت زهرة شبابي وعمري الذي انقضى نزيل السجون، وأنت قضيت عمرك حتى هذه اللحظة رجلًا محترمًا، حرًّا.. يا سلام، الحرية كالصحة لا يعرف قيمتها إلا الذي حُرِم منها، ولقد أخذتُ نصيبي من العذاب، والآن جاء دورك، سيتبادل كلٌّ منا حياة الآخر.

شـعر خالد بصداع شديد فأطرق إلى الأرض مستندًا برأسه على كفِّه، وواصل منصور حديثه قائلًا:

- سـمعت مـن المـدرِّس، عندمـا كنَّا فـي المدرسـة، أن التوائم المتشـابهة كانـت خليـة واحـدة انقسـمت إلـى اثنتيـن عنـد تكوين الجنيـن، وهذا يعني أننـا، أنا وأنت، في الأصل واحد انقسـم اثنين، فهـل يرضيك يا خالد أنَّ نصفك، الذي هـو أنا، يتعذب طَوال عمره وتكـون أنـت النصف الذي يسـتمتع بحياته؟ ليسـت هـذه عدالة يا خالد..

وقـرب نهاية حديثـه، تهدَّج صوته وبكـى. ظل خالد ناظـرًا إليه وهو يمسح دموعه بكم سترته ثم قال:

- وهل أنا المسئول عن بؤسك؟

- أنـا لا أعـرف المسـئول عن بؤسـي، كل مـا أعرفـه أنني بائس وقاسـيت كثيرًا، سُجنت وجُلدت وكسَّـرت الحجارة في الجبل في شـمس الظهـر في شـهور الصيف، في حيـن كنت أنـت خالي البال مستريح الجسد، منعَّمًا محترمًا، العساكر الذين يضربون لك تعظيم سلام هم أنفسهم كانوا يضربونني بالكرباج!

- ألسْتَ السبب في كل ما جرى لك؟

- ليس المهم المسئول عمَّا جرى لي، بل المهم ما جرى، وما قاسيت من أهوال.

- أبي هو المسئول عن بؤسك وعذابك، لقد أفسدك تدليلُه الزائد على الحد. مرضُك الذي رقدت بسببه عامًا كاملًا هو الذي دفعه إلى الإسراف في تدليلك. كان يخشى أن تموت، ولكنه بتدليلك هذا قتلك وأنت حيّ.

- ليتني مِتُّ كما يموت الناس. إن أقسى ميتة يا خالد هي ميتة الإنسان وهو حيّ؛ لأنه يكون شاعرًا بالموت، مثل الذي يجري عملية جراحية من دون «بنج».

- لا تظن أنك وحدك البائس، أنا أشد بأسًا منك يا منصور؛ لأني أتعذب في الحياة بسببك دون أن يكون لي ذنب في ذلك. ذنبي الوحيد هو أنك أخي، والمجتمع لا يرحم، إذا عرف ذلك سيحتقرني، وأول المحتقرين لي ستكون فاتن خطيبتي.

- لا تخَف، لن ترى فاتن بعد اليوم.

كانت الكلمات أبشع من أن تُصدَّق، فقال محاولًا أن يبدو هادئًا ساخرًا:

- لن أرى فاتن بعد اليوم! كيف؟!

- ألا تكفيـك رؤيتها طوال تلك المدة؟ لقد أتى الآن دوري، ألا تهفـو نفسـي لهذه الأشـياء كغيري مـن الناس؟ هل تعلم يـا خالد يا أخي؟

قال خالد وهو شارد الذهن:

- أعلم ماذا؟

- يوم الأحد الماضي ذهبت إلى السـينما لأول مرَّة بعد عشـرين عامًا، فدَبَّرْتُ خطةً كان لا بُدَّ منها: سـرقتُ بدلتك الرسمية، لا يهم، فلديك كثير غيرها، وربك كريم، وجدت في جيوبها قرشـين، تعتبر مبلغًا تافهًا بالنسـبة لك، ولكنها نفعتني. لبسـت بدلتك واصطحبت معي بنتًا مسـكينة مثلي وذهبنا إلى السـينما. كان جميع المشـاهدين يسـيرون باسـترخاء ويجلسـون في ثقة ولكنني كنـت خائفًا، أتلفّت يمينًا ويسـارًا، متصورًا أن جميع روَّاد السينما سيعرفونني وينقضُّون علـيَّ للزج بي في السـجن الـذي هربت منه. ومن سـوء الطالع كان الفيلـم مؤثـرًا فظللنـا أنـا والبنـت المسـكينة نبكي طـوال العرض. المهـم، لـم يعرفنـي أحد، وطمأنت نفسـي قائـلًا إن كل من يعرفني سيعتقد أنني خالد المحترم الشبعان ولا يتصور أنني جربوع جائع.

- ولمـاذا تجـوع؟ ألـم تكن تصلـك الفلـوس التي أرسـلها مع عليوة؟

- كانت تصلني، ولكنها لا تشبع قطة.

- ما أرسله هو أقصى طاقتي.

- على أية حال، الأكل لا يهمني كثيرًا، أهم منه الحرية. أنا محكوم عليَّ أن أعيش بعيدًا عن عيون الناس وفي الوقت نفسه لا أستطيع الاستغناء عن الناس، فأي نوعٍ من الحياة هذا؟

ومسح دمعة طفرت من عينه، ثم قال:

- اغفر لي يا خالد، لقد حسدتك رغمًا عنِّي، توجد أشياء أقوى من الإنسان، خصوصًا لو كان إنسانًا ضعيفًا مثلي. هل تعرف يا خالد اليوم الذي حسدتك فيه أكثر من أي يوم آخر؟

وأطرق إلى الأرض واضعًا كفيه على عينيه مسترجعًا بعض الذكريات، ثم رفع رأسه ونظر إلى خالد، فأبعد خالد عينيه عن عيني أخيه قائلًا:

- أي يوم هذا؟

- عندما شاهدتك مستقلًّا سيارتك وبجوارك خطيبتك فاتن، في هذه اللحظة بكيت، ولولا خوفي من الناس وافتضاح أمري لصحت بأعلى صوتي قائلًا: «انظروا إلى هذا الرجل المحترم الجالس في عربته جنب هذه البنت الحلوة، إنه أخي»!

ثم تهدَّج صوته وهو يردف قائلًا:

- لأفخر بك، كان الناس سيصدقونني؛ لأنني صورة منك. كنت أتمنـى أن أزوركما في بيتكما وأنتما متزوجان وأقول لزوجتك إنني أخـوك. تعالَ يا خالد، تعالَ قف جنبي هنا، أمام المرآة، هل ترى أي فرق بيننا؟ لا فرق بيننا إلا في الحظ.

عاد كل منهما إلى المكان الذي كان جالسًا فيه، وبعد فترة صمت قصيرة قال خالد:

- لا دخـل للحـظِّ في هذه الأمـور. هل الحظ هـو الذي جعلك تهرب من المدْرسـة وتصاحب الأشرار وتجاريهم في انحرافاتهم؟ لا يلوم الحظ سوى العاجز. كانت أمامك الفرصة نفسها التي أُتيحت لي، وُلدنا في اليوم نفسـه ومن أب واحد وأم واحدة وتربَّينا في بيت واحد والتحقنا بالمدرسـة نفسـها، أنا اجتهـدت وتعبت وكافحت، وكان والـدي صارمًا في تعامله معـي، ولكنه كان يدلِّلُك فانحرفت، فما دخْلُ الحظِّ في الموضوع؟

- لا تقسُ فـي الحكـم عليَّ يا خالد، لقد دلَّلنـي أبي، كما تقول، بسـبب مرضـي، أليـس من سـوء حظـي أن مرضـت؟ ألـم يكن من الممكـن أن تمرض أنت؟.. والآن، هل تسـمح لـي أن أصبح خالد وتصبح أنت منصور في الفترة الباقية لنا؟

بـدأ خالد يدرك أنه مقبل على أمر رهيـب، وعلى الرغم من فهم خالد بوضوح لما يرمي إليه منصور، فلقد غمغم قائلًا:

- أنا لا أفهم شيئًا، ماذا تقصد بكلامك هذا؟

بحركة لا إرادية، أخرج منصور المســدس من جيبه وأخذ يعبث به قائلًا:

- قصـدي فـي منتهـى الوضوح وغاية البسـاطة: ابتـداء من هذه اللحظة سأظهر أمام الناس على أنني خالد...

قاطعـه خالد قائـلًا، وقد وصل فزعـه إلى ذروته وعينـاه تتابعان حركات المسدس:

- وأنا، ما مصيري؟ هل تقتلني؟

ضحك منصور ضحكة قصيرة مفتعلة وقال:

- كان مـن الأريَـح والأرخـص لـي التخلـص منـك؛ فوجودك فـي هذه الحالة باهـظ التكلفة، ولكن لا تخَف، لـن أقتل أخي، لقد طمأنتُك من هذه الجهة ولا أحب أن أقول الشيء مرتين. لقد رتَّبْتُ كل شـيء، معـي هنا فـي بيتك الآن اثنـان من أصحابـي المخلصين سيتولَّيان أمر هذه المسألة!

وأردف قائلًا بنبرة حاسمة فاصلة:

- أمـا من جهة عملك، فلا تشـغل بالك به؛ فسـأذهب ابتداءً من الغد، والعسـاكر سـتضرب لـي تعظيم سـلام وأجلس إلـى مكتبك وستسـير الأمور سـيرًا طبيعيًّا، وأعتقد أن توأمـك لديه من الذكاء ما يسـمح بذلـك. ولا تحمل هـمَّ فاتن، فسـأزورها كلَّ يـوم كما كنتَ تفعل.

فَهم خالد الوضع جيدًا ولكنه قال:

- ما زلتُ عاجزًا عن فهم ما تخطط له، يبدو أنك جُنِنْتَ..

قال منصور ساخرًا:

- جُنِنت؟ ربما، ليس عجيبًا أن يُجنَّ من رأى ما رأيتُ من أهوال وقسـوة وإذلال، ولكنني ولله الحمد ما زلتُ عاقلًا وقادرًا على أداء عملك على خير وجه.

قال خالد محاولًا أن يكون سـاخرًا وهو في أعماق نفسـه يعتقد أنه هو الذي أصبح مثارًا للسخرية:

- وكيف تنفِّذ خطتك العبقرية هذه؟

قال منصور بنبرة جادَّة:

- كما سترى الآن.

وصفَّق صائحًا:

- يا مدبولي.

فـي مثل لمـح البصر، وكأنهـا إحدى قصص «ألف ليلـة وليلة»، فُتـح باب إحدى الغرف المتصلـة بالبهو وظهر عملاق ضخم الجثة مفتول العضلات سميك الرقبة قصيرها يرتدي زيًّ عسكري نفر.

وقـف منصـور وظل مدبولي ناظرًا إليه وكأنه ينتظر شـيئًا. أشـار منصور بكفِّه قائلًا:

- هيا!

انقض العملاق على خالد واضعًا منديلًا على أنفه، فصدرت منه أنَّة خافتة:

- آه..

قال منصور بانفعال غاضب:

- احترسْ، أنت تخدره فقط، لا تكتم نفسـه.. حذارِ أن يلحق به أي أذى، لا تنسَ أنه أخي.

في صندوق صُنع خصيصًا لهذه المهمة، انتقل خالد فوق سـيارة نصـف نقـل إلى مكان موحش علـى بعد نحو ثلاثـة كيلومترات من مدينة رشيد.

عندما أفـاق بعد انتهاء مفعول المخدِّر أخذ يدير بصره في أنحاء المكان. كان الظلام لا يتيح رؤية أي شيء، فتبادر إلى ذهنه أنه مات وهذه مقبرته، فشـعر برعب شديد زلزل كيانه عندما اعتقد أن روحه رُدَّت إلـى جسـده بعد موته متخيـلًا العذاب الذي سـيواجهه عندما يموت مرَّة أخرى.

تـرى هل سـأموت مختنقًا عندمـا ينفد الأكسـجين الموجود في هذا الحيِّز الضيق متجرعًا آلام الاختناق، أم سيسـبق الموت غيبوبة فلا أشعر بشيء؟

لـم يدرك كم مرَّ مـن الزمن وهو في هذا الوضع، ولكنه شـعر به وكأنه أجيال. فكَّر في الصراخ، ولكن صوته احتبس في حلقه فخرج كفحيح الأفاعي.

تُـرى هل توجـد ثعابين فـي هذا المـكان؟ إننـي أذوب رعبًا من هذه الزواحف البشـعة.. ماذا لو شـعرت الآن بثعبان يطوِّق عنقي أو يداعب لسانه خدي؟ سيقتلني الخوف!

انتزعـه مـن تخيلاتـه المزعجـة صـوت غمغمـة غيـر واضحـة الكلمات تقترب، ثم تلاشت وساد الصمت. اختلَّت مقاييس الزمن فـي ذهنه؛ فالدقائـق تمر وكأنها أجيال، وطال الصمت حتى اشـتاق لسماع الغمغمة التي منحته بعض الإيناس.

أنـا لا أطيـق هذا الصمت القاتل. ومن أين جـاءت الهمهمة التي سـمعتها؟ هـل مصدرها الملائكـة التي تحاسـب الموتـى؟ هل أنا مقبـل الآن علـى حسـاب القبر؟ بغتـة، انبعث صـوت منصور يقول بنبرة حنون:

- لا تخَـف يا خالـد، أنت هنا في أمان. عوِّد نفسـك على ذلك، فلن تخرج من هنا أبدًا!

قال خالد غير مصدِّق:

- هـل ترضى لأخيك الذي لم يُسِـئ إليك يا منصور أن يظل في مكان كهذا؟

- لقد حكمت على المكان قبل أن تراه.

ضغط منصور على أحد الأزرار فملأ الضوءُ أرجاءَ المكان ورأى خالد الغرفة وما فيها. كان مدبولي واقفًا بجوار منصور مرتديًا الرداء العسكري.

أخذ خالد يدير بصره مستكشـفًا ما حوله شاعرًا وكأنه بين الحلم واليقظة، كانت الغرفة واسعة، جدرانها مطلية باللون الأزرق الفاتح، وبها سـرير عرضه نحو متر، مفروش فرشًـا نظيفًا، وفي ركن الغرفة كرسـي مريح والنوافذ الثلاث التي بالغرفـة موصدة، ودُهش عندما رأى جهاز تكييف. ساد سكون تام قطعه خالد عندما قال:

- كنت تقول إنك جربوع مسكين، فمن أين أحضرت كل هذا؟

- كله من خيرك، من حسابك الذي في البنك، وإذا احتجت لأي شيء قُل لي وسيكون عندك على الفور.

- ولكن تصرفاتك الآن أمام الناس محسوبة عليَّ، فهل تتصور مدى عذاب إنسان يحاسَب على أشياء لا يعرفها؟!

- سأحيط علمك أولًا بأول بجميع خطواتي وتصرفاتي، وعلى سبيل المثال، ما سأصنعه الآن: سأسكن في بيتك ويصبح اسمي خالد وأذهب إلى مقر عملك الذي درسْتُ كلَّ شيء عنه ولن أتصرف أي تصرف لا يرضيك، وبعد أسبوع سأزور فاتن، وهذه الزيارة يلزمها استعداد جيد، واغفر لي إذا عاملتني فاتن كما كانت تعاملك، لن يتسرب إليها الشك لحظة واحدة في كوني شخصًا آخر غير خالد، وربما لا تعلم هي أو غيرها أنني سبق لي إجراء هذه التجربة ونجحتْ مائة في المائة.

- أذكر ذلك، يوم أن رأتك سهير.

قال منصور وقد جلس على حافة السرير ناظرًا إلى الأرض:

- لها عذرها؛ فلم يخبرها أحد أن لك توأمًا، في ذلك اليوم كنت على وشك كشف السر الذي لم تشأ له أن ينكشف فأقول إنني

توأمك، ولكنني لم أَقُل ذلك انصياعًا لرغبتك، يومها صعبت عليَّ نفسي فبكيت أمام سهير، وخفتُ عليك من الصدمة لو عرفوا أنني أخوك، فطلبت منها كوب ماء وهربت من البيت قبل عودتها.

- أنا أدركتُ أنك زُرتَ البيت في ذلك اليوم، وكانت الضحية سهير المسكينة التي اعتقدوا أنها تهلوس.

تصوَّر خالد أن الحديث الودي الذي دار الآن مع أخيه من الممكن أن يثير لديه شعورًا بالعاطفة الأخوية ويُلين قلبه، فومضت في أفق حياته بارقة أمل في أن يطلق منصور سراحه راضيًا بنصيبه في الحياة، فقال:

- أحقيقة يا منصور يطيعك قلبك وترضى أن أظل طوال حياتي هنا؟ لا أتصور أن تكون بهذه القسْوة.

قال منصور بهدوء:

- تأكَّد يا خالد أنك ستعامَل أحسن معاملة ولن أتركك تشكو من أي شيء. مدبولي وعزب من أخلص الناس لي، وسيسهران على راحتك، وسأرسل لك مع مدبولي كل ما يلزمك من فلوس، أكثر من التي كنت ترسلها لي، ولكن افهم جيدًا أن الخروج من هنا مستحيل، ورؤيتك لفاتن أصبحت ذكرى.

أجهش خالد بالبكاء، فتركه منصور وأسرع بالخروج قائلًا:

- تصبح على خير.

13

كانت فاتن جالسة وحدها في البهو مطرقة إلى الأرض، وسهير في غرفتها تدور في رأسها أفكار غير مريحة، وخواطر تهبط السلَّم في طريقها إلى المطبخ تغنِّي ويهتز وسطها اهتزازًا لا إراديًّا على إيقاع لحن الأغنية التي تقول: «على قد الشوق اللي في عيوني يا جميل سلِّم، دانا ياما عيوني عليك سألوني وياما باتألم»، وبغتة توقفت عن الغناء وتوقف زمبلك وسطها عندما رأت الحزن يكسو وجه فاتن، قائلة:

- كفى الله الشر، لا يا سيدتي، أنا لن أسمح لك بمواصلة الهم والغم والتكشير، على أية حال أنا أعرف السبب؛ لأن سي خالد لم يحضر منذ أسبوع، أليس من المحتمل أن يكون قد أغضبه شيء؟

نهرتها فاتن قائلة:

- لا شأن لكِ بذلك، اسكتي، اذهبي لشغلك.

اتجهت خواطر نحو المطبخ مترنمة بأغنية «سِكِتْ والدمع اتكلم». دق جرس الباب فأسرعت لفتحه قائلة:

- يا رب يكون سي خالد.

عندما فتحت الباب صاحت قائلة:

- أول مرَّة يُستجاب لي دعاء.. يا ألف نهار أبيض!

ثم زغردت وقالت بأعلى صوتها:

- سي خالد يا سيدتي..

قفزت فاتن من مكانها في البهو وصافحت التوأم بحرارة، وعندما رأته يستعد للجلوس في البهو قادته إلى الصالون قائلة:

- هيا بنا للصالون.

فاتجه للجهة المضادة نحو غرفة المكتب، فجذبته من يده قائلة:

- هل نسيت مكان غرفة الصالون؟ معذور، لك الحق أن تنسى، لم ترَه منذ أسبوع، أين كنت طوال هذه المدة؟ هل كنت مسافرًا؟

قال التوأم شاعرًا برهبة وارتباك:

- أنا؟ لا، لم أكن مسافرًا، كنت أشعر بألم في المعدة..

- حاولتُ الاتصال بك تليفونيًا فلم أستطِع، تليفونك كان دائمًا مشغولًا، ترى من الذي كنت تكلمه؟

قال بعد فترة تردد قصيرة:

- لم أكن أكلِّم أحدًا ولا أحد يكلمني، كنت رافعًا للسماعة.

- ولماذا رفعت السماعة؟ هل شاغلك أحد؟

- لا، لم يشاغلني أحد، ولكنني أميل أحيانًا إلى الهدوء.

شعرت فاتن أن في خالد شيئًا مختلفًا اليوم لا تعرف كنهه، فسألته:

- ما بك يا خالد؟ هل تشعر بتعب؟

قال التوأم وهو مطرق إلى الأرض:

- لا، على العكس، أنا بدأت أشعر بالراحة.

ثم أردف قائلًا:

- هل ممكن البنت تعمل لي فنجان قهوة سادة؟

نادت خواطر فأقبلت تعدو، وقبل أن تتوغل داخل الصالون عاجلتها فاتن قائلة:

- فنجان قهوة سادة لسيدك خالد.

دارت خواطر على مشط قدمها وكأنها راقصة باليه وابتعدت عن الصالون وهي تغمغم قائلة بدهشة:

- سادة؟! هذه أول مرة يطلب قهوة سادة، فمن عادته شرب سكر زيادة، هو حر يشرب ما يشاء..

***

كان منصور يتحاشى، على قدر استطاعته، النظر إلى وجه فاتن خوفا من افتضاح أمره، فظلَّ طوال فترة يسيطر عليه إحساس غير مريح، قالت فاتن:

- أما زلتَ غاضبًا مني؟

لم يكن في ذهنه ما يسبب غضبه، فأخذ يجهد ذهنه ليحسن الكلام عن موضوع لا يعلم عنه شيئًا، فقال:

- اعتبري الموضوع كأن لم يكن، لقد محوته من ذاكرتي.

- وأنا أيضًا مسحته من ذاكرتي!

أراد أن يعرفَ شيئًا عن هذا الموضوع الذي أغضبها دون أن يبدو منه ما يدل على جهله به، فقال:

- ولكن لماذا نسيتِه أنتِ أيضًا؟

- اقتنعْتُ بالبرهان، يبدو أنك ما زلتَ متألمًا.

- على العكس؛ إنني من هذه اللحظة أصبحتُ أسعد إنسان في الدنيا!

قالت بدهشة:

- ولماذا من هذه اللحظة؟

- لأنها اللحظة التي علمتُ فيها أنك مسحتِ من ذاكرتك الموضوع الذي أغضبك، فبدأتُ حياة جديدة.

- كيف؟

- تخلصتُ من جميع مشكلاتي.

قالت فاتن بعد فترة تفكير:

- هل معنى هذا أن الأشياء التي كنت ألاحظ عدم ارتياحك لها أحيانًا تلاشت من حياتك؟

- لم أعد أخشى أي شيء في الدنيا.

- هذا يسعدني.

- وهذا كل ما أتمناه.

خَشِيَ لو مدَّ الحديث إلى أبعد من ذلك في هذا الموضوع الذي ما زال لا يعلم عنه شيئًا، ربما يتعرَّض لمنحنيات شديدة الخطورة يكون فيها هلاكه. آثر أن يضع له حدًّا، فأطال النظر إلى فاتن ثم قال:

- أنتِ شديدة الجمال يا فاتن، لا أملُّ النظر إليك مهما طال.

ضحكت وقالت:

- هل اكتشفت هذا الآن؟

- أشعر وكأني أجلس معك لأول مرة منذ عقد العقد..

ضحكت ضحكة مفتعلة وقالت:

- سلامتك، تبدو كمن فقد ذاكرته، ذكِّرني متى عُقد العقد؟

أمكنه تدارك الخطأ بذكاء؛ إذ قال:

- جمالك يجعلني أحيانًا أنسى اسمي، كنت أقصد الخطوبة.. ومتى نعقد العقد؟

قالت فاتن وقد بدأت تشعر بشيء من الضيق:

- ألم تسألني هذا السؤال من قبل وقلت لك: إن المرحوم خالي لم تمر على وفاته سنة.

- وما الذي حشر خالك في موضوع زواجنا؟

- هذه أوامر بابا، وكلنا نطيع أوامره.

- سأناقشه في هذا الموضوع وأحاول إقناعه بالإسراع في عقد العقد وعمل الدخلة، توجد ظروف خاصة تستوجب السرعة.

- ليتك تستطيع إقناعه.

- أنا لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

انبعث صوت الكمان من غرفة سهير، فقال:

- ومن الذي يعزف هذه الأنغام الحلوة؟

قالت فاتن وهي شاردة الذهن:

- سهير طبعًا.

- وأنتِ، ألا تحسنين العزف على الكمان مثلها؟

- لا يا خالد، لقد سألتني من قبلُ هذا السؤال.

- نعم، تذكرت.. ما رأيك لو نخرج نتفسَّح معًا في الهواء الطلق؟ أنا لا أستريح للجلوس طويلًا داخل البيوت.

- وأين نذهب؟

- نتمشى على البحر.

- أليست معك السيارة؟

- لا، تركتُها عند السمكري لإصلاح أحد الأبواب.

- على أية حال، المشي رياضة مفيدة.

- أين تحبين أن نذهب؟

- كازينو سيدي بشر.

- لا مانع، هيا.

- عن إذنك لحظة.

قالت لبدرية:

- سأخرج مع خالد.

- مع السلامة.

* * *

بعد خروج فاتن مع منصور، حانت منها التفاتة نحو البيت فرأت سهير واقفة في الشرفة، فقالت وفي صوتها نبرة غضب:

- انظر يا خالد.. سهير، كالعادة، تطل علينا كلما خرجنا، تقف تشيّعنا بنظراتها!

قال منصور بلا اكتراث:

- وماذا يضيرنا؟

قالت فاتن عابسة:

- لست مستريحة لهذه الحركة، يُخيَّل إليَّ أنها تحقد علينا، تحسدنا.

- لا شأن لنا بها، فلتنظر كما تريد.

14

كان الأب جالسًا في غرفة المكتب يراجع إحدى القضايا. استجمعت سهير كل ما لديها من شجاعة واقتحمت الغرفة وظلت فترة واقفة بالقرب من الباب مترددة. عندما لاحظ الأب وجودها وفي عينيها ما يدل على رغبتها في التحدث معه ترك الورقة التي كانت في يده وقال:

- نعم يا سهير؟ طلباتك؟

قالت شاعرة أنها تتخلص من عبءٍ ثقيل أرهقها حمله طويلًا:

- أريد أن أتعلم الموسيقى على أصولها، لا أحب أن أظل هكذا أعزف باجتهادي وتبدو النوتة الموسيقية في نظري كالحروف اليابانية.

قال الأب مبتسمًا:

- حاضر، لقد فكرتُ أنا أيضًا في الشيء نفسه.

قفزت سهير فرحًا قائلة:

- أحقيقة ما تقول يا بابا؟

- أجـل، الدكتور منير كان قد نبَّهني لهذا الموضوع عندما سـمع عزفك، ورشح لي شابًّا موسيقيًّا يعرفه عائليًّا.

بجـرأة لـم تكـن تتصـور سـهير أن جسـدها النحيـل قـادر على استيعابها، اندفعت نحو أبيها وطوَّقت كتفه وقبَّلته، فربت على كتفها وقبَّلها في جبهتها. انطلقت تصعد السلم وكأنها تطير. كانت خواطر عند قمة السـلم تستعد للنزول فتوقفت ناظرة إليها بدهشة وازدادت دهشتها عندما احتضنتها سهير وقبَّلتها، فتحوَّلت الدهشةُ إلى ذهول. وقفت متخشِّبة وبكل ما لديها من طاقة أطلقت زغرودة كاد يهتز لها السلَّم! دخلت سهير غرفتها، فمرقت خلفها خواطر قائلة:

- يا ألف نهار أبيض يا سـيدتي، لـم أكـن أعرف أنك من الممكن أن تفرحي!

اختطفت سـهير الكمان وقبل تحريك القوس على الوتر كشفت لخواطر عن سبب هذه الفرحة:

- طلبْتُ من بابا أن يحضر لي مدرس موسيقى ووافق!

وكالعادة، ظهرت بدرية في الغرفة، ولا أحد يعرف من أين أتت، ومـا اجتمعت سـهير مع خواطـر إلا وكانـت بدرية ثالثتهمـا. قالت خواطر لسهير:

- أنا مسرورة إذ انحلَّت عقدة لسانك وطلبتِ شيئًا من أبيك!

ثم هبطت بطبقة صوتها قائلة:

– هل أجد معك يا سيدتي سهير عشرة قروش حتى أول الشهر؟

قالت سهير مبتسمة والفرحة ما زالت تهزها:

– وماذا تشترين بها هذه المرَّة؟

صاحت خواطر قائلة:

– سأموت يا ناس، سأنفجر، منذ حضوري هنا لم أتفرَّج على أي فيلم! ما رأيك لو ذهبنا معًا يا سيدتي سهير؟

انقضت بدرية على خواطر قائلة:

– اخرسي قطع لسانك، لم يبقَ إلا هذا، بنت قليلة الحياء لا تختشي!

لم تُعِرها خواطر التفاتًا وقالت لسهير:

– أشاهدة عليها يا سيدتي؟ آه يا ناري، لو لم تكن في سن جدتي لرددت عليها..

وغادرت الغرفة وهي تغني أغنية «يا ناري من كتر جفاكِ، ليه قسمتي كده وياكِ».

15

فـي ذلك اليوم، عاد الأسـتاذ راتـب إلى البيت بادي الانشـراح؛ فلقد حكمـت المحكمة بالبراءة فـي القضيتين اللتيـن ترافع فيهما، وكالعـادة، ظلت المائدة في انتظاره ليتناولوا الغداء معًا. بدأ الجميع تناول غدائهم في صمت قطعه الأب عندما قال:

- مـدرس الموسـيقى سـيحضر لك غدًا يـا سـهير، الدكتور هو الـذي اتصل به ويقـول عنه إنه ممتاز في الموسـيقى وفي الأخلاق، ويُدَرِّس في الكُونسِرْفتوار.

نظرت فاتن إلى سـهير لترى أثر سماع هذا النبأ عليها، فلاحظَت أن الدموع لمعت في عينيها؛ فلقد تفاعلت مشاعر الفرح مع الشَّجَن وأنتجت شعورًا غريبًا يصعب وصفه.. قالت:

- أشـكرك يـا بابـا جزيـل الشـكر.. هذا أحسـن ما سـمعتُ في حياتي.

وأردف الأب قائلًا:

- وكيف حال صحتك الآن يا سهير؟ أما زلتِ تسمعين الأصوات التي كنتِ تسمعينها؟

- لا يا بابا، لم أعد أشكو من شيء.

- الحمد لله، وأنت يا فاتن ماذا عملت اليوم؟ هل حضر خالد؟

قالت فاتن:

- نعم، جاء وخرجنا معًا وجلسنا فترة قصيرة في كازينو سيدي بشر.

- وكيف حال خالد الآن؟ كنتِ قد ذكرتِ لي أن بالك مشغول ببعض تصرفاته الغريبة في الفترة الأخيرة.

- لم أعد ألاحظ وجود مثل هذه التصرفات الآن. خالد أصبح في نَظَري كأنه إنسان جديد.

قال الأب شاعرًا براحة نفسية واطمئنان:

- الحمد لله.

سألت سهير أباها:

- ما اسم مدرس الموسيقى؟

وضع الأب يده على جبهته وأغمض عينيه محاولًا تذكر الاسم، ثم رفع رأسه ونظر إلى سهير قائلًا:

- اسمه عصام.

* * *

قالت سهير لعصام:

- أحقيقة ما تقوله أم من باب التشجيع؟

قال عصام:

- أقسم لك إنني أقول هذا الكلام عن عقيدة، أنتِ لست رائعة فقط، بل عبقرية! أنا متأكد أنك في خلال فترة قصيرة ستتفوقين على أستاذك.

ضحكت سهير وقالت:

- هذا غير معقول؟

- سيتضح لكِ ذلك قريبًا. هل تعلمين أنني سمعت عزفك الجميل قبل أن أراكِ؟

قالت بدهشة:

- متى؟

- ذات يوم كنتُ مارًّا بالمصادفة من أمام بيتكم وسمعت عزفًا جميلًا على البيانو استرعى انتباهي، وعلمتُ فيما بعد أنكِ أنتِ التي كنتِ تعزفين؛ لهذا فأنا أراكِ أجمل بنت في الدنيا.

غمغمت قائلة بدهشة يتخللها خدَر من نوع لم تشعر به من قبل:

- أجمل بنت في الدنيا؟!

- أنا يا سهير من حبي للموسيقى فإن عيني ترى جمال البنت على قدر جمال عزفها.

* * *

كان هذا أول يوم يحضر فيه عصام إلى البيت لبدء دروس الموسيقى، ولقد رأت سهير أن يُنقل البيانو من غرفة الصالون إلى غرفة الطعام المجاورة لها حتى لا تتأثر الدروس بقدوم الضيوف والزائرين.

* * *

في هذه اللحظات كان خالد الحقيقي، توأم منصور، نائمًا في البيت البعيد الغامض غموض مُستقبلِه، لا يرى أبعد من جدران غرفته، ولا يسمع أي صدى ينبعث من العالم الخارجي؛ فنوافذ تلك الغرفة مزدوجة وعازلة للصوت عزلًا تامًّا لا تستطيع موجاتُه اختراقَها.

في غرفة أخرى تُستخدم كمخزنٍ للحبوب وبعض الأشياء المهملة، جلس منصور مع عليوة ومدبولي اللذين عرفهما في السجن، واتفق معهما على تكوين عصابة للسرقة، وعندما عرض عليهما منصور تقمُّص شخصية خالد رحَّبا بالفكرة التي تدرُّ عليهما أموالًا بوسيلة سهلة، قال عليوة:

- احكِ لنا يا منصور، ماذا حدث عند زيارتك الأولى؟ هل تسير الأمور على ما يرام؟

- على ما يرام والحمد لله، بعد أن حبست خالد هنا وخرجت مرتديًا بدلته الرسمية، منذ تلك اللحظة أخرج أمام الناس على أنِّي خالد. أقول لك الحق، كنت خائفًا في البداية، ولكن الخوف تلاشى الآن عندما لم أجد من يشك في كوني خالد، فلا أحد يعرف أن لخالد أخًا توأمًا! عندما ذهبتُ إلى مبنى المحافظة رفع العساكر أيديهم بالتحية؛ فمنحتني هذه الحركة شحنة من الشجاعة، فذهبتُ إلى غرفة خالد بخطوات ثابتة ورفع لي العسكري يده بالتحية، وجلستُ إلى مكتب خالد واعتقد الجميع أنني هو، وتظاهرت بالتعب وبأنني مشغول بأمور عائلية، وبهذه الألاعيب استطعت مداراة بعض الجهل بأصول الشغل، وشيئًا فشيئًا وجدتني أوقِّع إمضاء خالد على الأوراق وأعمل كل ما كان يعمله!

قال عليوة:

- الأمر يستدعي أن تكون دائمًا متيقِّظًا، لو سهوت لحظة ووقَّعتَ منصور بدلًا من خالد سيكون في هذا نهايتنا.

اتجه سواد عيني منصور نحو سقف الغرفة لفترة غير قصيرة وقد تسرَّب إلى قلبه بعض الخوف، ثم قال:

- لا تخَف، أنت تعلم جيدًا مبلغ حرصي.

- هل زرت فاتن خطيبته؟

- زرتها، بعد أن هيأت نفسي لهذه الزيارة.

- كيف؟

- عكفْتُ على فحص ودراسة مذكراتها التي سرقْتُها، مكتوب فيها أشياء كثيرة من التي حدثت بينهما. عرفت الكثير من أسرارها، وبعد أسبوع ذهبت لزيارتها، اعتقدَت أنني خالد، جلستُ عندهم بعض الوقت ثم خرجنا نشم الهواء في الكازينو.

- هكذا تسير الأمور كما نتمنى، ولكنني أحذِّرك يا منصور، إياك أن يوسوس لك الشيطان وتتنكَّر في يوم من الأيام لرفاقك، ولا تنسَ أننا جميعًا شجعناك على تنفيذ هذه الفكرة، لا بد أن يستفيد الجميع، وإلا أرجعناك إلى السجن ورجعنا معك.

- أنا لم أنسَ أفضالكم، أنتما وعَزَب.

- هذه العيشة ستكون قاسية على خالد.

- سيتعذب في الأول، لكن كل شيء بالتعوُّد.

- هكذا الدنيا، يوم عسل ويوم بصل..

- بعض الناس لا يذوقون منها سوى البصل.

* * *

كانت سهير جالسة على كرسي البيانو بغرفة المائدة وبالقرب منها جلس عصام يواصل درس الموسيقى. قال:

- أعرفتِ الآن يا سهير الفرق بين السيمفونيَّة والكونشيرتو؟

- نعم يا أستاذ عصام، عرفته جيدًا.

قال مبتسمًا:

- أمن اللازم ذكر كلمة «أستاذ» هذه؟

ضحكت سهير وقالت:

- ولكنك أستاذي، تعلِّمني الموسيقى!

- تُرى، هل تذاكرين دروسك جيدًا؟

- طبعًا، فلا عمل لي الآن سواها.

- فلنكمل تحليل سيمفونية موتسارت التي كُنَّا قد بدأناها.

وضع الإبرة على الأسطوانة وأخذا ينصتان معًا إلى الموسيقى وعصام يحلل جمال تتابع النغمات وتسلسلها، وبغتة أوقف العزف وطلب من سهير عزف الحركة الثالثة على البيانو مستعينة بالنوتة الموسيقية، فبدأت العزف وجلس منصتًا لها بكل مشاعره. كانت الأنغام تنساب وكأن موتسارت هو الذي يعزف، وعندما انتهى العزف لم يتملّك عصام نفسه فصاح قائلًا:

- أنت رائعة، أنت عبقرية..

وبحركة شبه لا إرادية وجد نفسه يضع على خدها قبلة.

سرى في جسدها خَدَر يصاحبه دوار خفيف، فوضعت يديها على البيانو وركنت عليهما برأسها شاعرةً بإحساس لا عهد لها به من قبل. ظل عصام ناظرًا إليها فترة قصيرة، ثم ربت على كتفها قائلًا وهو يستعد للوقوف:

- يكفي هذا اليوم، وموعدنا يوم الجمعة المقبل، السادسة والنصف.

قامت سهير وهي مطرقة إلى الأرض وصافحته وفتحت له الباب، وبغتة تذكرت شيئًا مهمًّا فقالت:

- هل من الممكن أن تستبدل بالجمعة يوم الاثنين؟

- لماذا؟ هل أنت مشغولة يوم الجمعة؟

- أجل، فرح فاتن أختي يوم الجمعة، سيُعقد قرانها، ولك معي كارت دعوة، كنت سأنسى إعطاءه لك. لحظة واحدة سأحضره.

وانطلقت تعدو ثم قفزت درجات السلَّم وأحضرته من تحت مخدتها وهبطت بأقصى سرعة وسلَّمته الدعوة، ففتح المظروف وألقى نظرة سريعة على الكارت ثم أعاده إلى المظروف مبتسمًا ووضعه في جيب سترته قائلًا:

- مبروك، عقبى لك إن شاء الله.

فتوهجت وجنتاها، وسار نحو سيارته وسهير تتابعه ببصرها حتى اختفى داخل السيارة، ثم اختفت السيارة عن نظرها.

***

في اليوم التالي، قبل عقد القران بيومين، جلس منصور مع فاتن في الصالون شارد الذهن، سألته:

- فيمَ تفكّر يا خالد؟

- أفكّر فيكِ. أنا في انتظار يوم الجمعة بفارغ الصبر، بدأت أشعر أنني حي، سنعيش معًا في بيت واحد!

- بابا مصمم على بقائنا معه هنا، يقول إنه لن يحتمل بُعدي عنه.

- لا مشكلة في ذلك، لا مانع لديَّ من بقائنا هنا؟ ألدَيْك مانع أنتِ؟

قالت فاتن بنبرة خالية من أي حماس:

- أنا لا أعارض ذلك، ولكن يُخيَّل إليَّ أنني لن أكون مستريحة.

- لماذا؟ إن وجودنا هنا سيخفف عنك أعباء كثيرة.

- لن يضايقني سوى وجود سهير، يُخيَّل إليَّ أنها تلتذ بمراقبتنا.

- لا أعتقد ذلك، إنها غارقة في الموسيقى ودروس الموسيقى، والبيت كبير ويتسع لنا جميعًا، وأعتقد أن سهير غير منتبهة لنا ولا شاعرة بوجودنا.

- إنها تحقد علينا، لقد شُفِيت من مرضها وعادت إلى حالتها الطبيعية، ولكنني أرى أن حالتها النفسية جعلتها حقودًا غيورًا!

قال منصور بدهشة:

- ومِمَّ تغار؟ ستتزوج هي أيضًا عن قريب، لا أعتقد أنها بلغت سن اليأس.

- لا تنسَ أنها ليست جميلة.

قال منصور بدهشة:

- سهير ليست جميلة؟! إنني أراها رائعة الجمال، ولكن إهمالها في تزينها ومسحة الحزن التي تكسو وجهها يغتالان جمالها.

- يوجد جمال لا يختلف عليه اثنان.

تدارك نفسه قائلًا:

- أجل، إنه جمالك. كل من يراك لا بد أن يحبك، حتى لو كان حبه سببًا في عذاب غيره؛ لذا تجدينني خائفًا.. أنا خائف يا فاتن.

لمعت الدموع في مآقيه وهو يقول:

- خائف من الأيام..

- يبدو أنك دائم البحث عن شيء تخاف منه، ألم تقل إن عهد الخوف قد ولَّى؟

- أخشى أن تنتهي في يوم من الأيام هذه السعادة التي بدأْتُ أشعر بها.. يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنني في حُلم، حُلم جميل، وأخشى أن

يلكزني أحد في أية لحظة فأهبّ من نومي منتقلًا في ومضة برق من حلم جميل إلى كابوس مرعب.

حاول إخفاء دموعه فنظر إلى الجهة الأخرى ومسحها بطرف إصبعه حتى لا تراها، ولكنها رأتها فقالت:

- لا توجد لدينا كوابيس، كل ما في دنيانا أحلام جميلة، وسأبذل كل جهدي لإسعادك ما دمتُ على قيد الحياة، فأنت بالنسبة لي كل شيء.

- عندما أسمع مثل هذا الكلام الجميل يزداد خوفي، السعادة تخيف أحيانًا.

قالت فاتن بدهشة:

- حتى السعادة بدأت تخاف منها؟!

- أجل، عندما تزيد على الحد؛ فالقمرُ لا يبدأ في الزوال إلا بعد أن يصبح بدرًا.

- اسمع يا خالد، حيَّرتني معك وجعلت الخوف يتسرب إلى نفسي؛ فالخوف يعدي.

قال وكأنه على وشك الاعتراف بشيء خطير:

- فاتن.. أنا لا أستحق كل هذه السعادة، ويُخيَّل إليَّ أحيانًا أن مثل هذا الكلام الجميل الذي أسمعه منك، المقصود به خالد آخر غيري.

قالت فاتن بدهشة غاضبة:

- خالد.. ماذا جرى لعقلك؟ يجب أن تكون على يقين من أنني ما وهبت قلبي وحبي وإخلاصي لأحدٍ سواك، ولا أرى في كل هذه الدنيا سوى خالد واحد، ما هذا الكلام الغريب الذي تقوله؟

- لست أدري، عندما أسمع منك هذا الكلام أشعر برغبة في البكاء. قد يكون هذا من شدة حبي لكِ؛ فالحب الكبير يتعب.

- ولماذا لا يتعبني حبك؟ هل حبكَ لي أكبر من حبي لكَ؟

- انظري يا فاتن، هل ترين هذه النجوم؟ عندما شاهدتُك لأوَّل مرة خُيِّل إليَّ أنكِ بالنسبة لي أبعد منها، وما زلت غير مصدقٍ أنني جالس جنبك وأتحدث إليك.

قالت فاتن بدهشة تهز كيانها:

- أبَعْدَ هذه العِشرة الطويلة تقول لي الآن إنك غير مصدقٍ جلوسي جنبك؟! ومتى تصدق يا تُرى؟!

- هذه العِشرة الطويلة لم أشعر بها.. مرَّت بي وكأنها أسبوعان لا أكثر.

- وأنا أيضًا، مرت عليَّ الأيام منذ عرفتك وكأنها أسبوع واحد.

قال بدهشة:

- أنتِ أيضًا؟!

- الأيام الجميلة تمر سريعًا.

قال مغمغمًا وقد دفن رأسه بين يديه:

- حقيقة، الأيام الجميلة تمر سريعًا، ولكن أيام البؤس والعذاب تمر بطيئة كأنها دهور.

قالت فاتن وهي تملِّس على شعره:

- كفانا الله شرَّ البؤس والعذاب وجعل جميع أيامنا سعادة وراحة بال.

16

كان خالـد نائمًـا على ظهـره ناظرًا إلى سـقف الغرفـة غارقًا في تأملاتـه الحزينة. إنه يتعجب، كيف لـم يرَ فاتن في المنام طوال هذه المـدة مع أنها لا تفـارق خياله في اليقظة؟! هل أصبـح الحلم أيضًا بعيد المنال؟! قطع سلسلة أحزانه صوت منصور يناديه:

- خالد.

اكتفـى خالـد بلفتة خاطفـة رأى فيها وجه أخيه ثم أشـاح بوجهه عنه قائلًا:

- ماذا تريد منِّي يا منصور؟ أنا لا أريد أن أرى وجهك.

- أجيء للاطمئنان عليك.

قال خالد بسخرية:

- تطمئن عليَّ أم تطمئن على نفسك؟ تخشى أن أهرب.

فـي هـذه اللحظـة أقبـل مدبولي وعـزب ووقفـا عند عتبـة باب الغرفة.

- بل أجيء لأطمئن على راحتك.

والتفت نحو عزب ومدبولي قائلًا:

- ألا تكرمانه هنا؟

رد عزب قائلًا:

- منتهى الإكـرام، كيـف لا نكرمـه وهـو أخوك؟ هـل نجد أعز منه؟

قال خالد وما زال مشيحًا بوجهه عن منصور:

- لو أردتَ إكرامي حقيقةً يا منصور اقتلني وارحمني من العذاب الذي تجاوز طاقة احتمالي، أو اتركوني أقتل نفسي.

- كيـف أقتـل أخي؟ هل هذا معقول؟ سـتظلُّ معـزَّزًا مكرَّمًا هنا طَوال حياتك.

ظل خالد مترددًا فترة قصيرة قبل أن يقول:

- هل ترى فاتن؟

- نعم، أرى فاتن كلَّ يوم، وهي سعيدة جدًّا، فلا تحمل همَّها.

- هل تعلم شيئًا عمَّا جرى لي؟

- وكيـف تعرف مـا دامت معتقدة أنني خالـد؟ ولقد تأكدتُ من حبها الشديد لكَ.

نظر خالد إلى منصور نظرة طويلة هي الأولى منذ دخوله الغرفة في ذلك اليوم وقال:

- وكيف تأكدت؟

- الكلام العذب الذي أسمعه منها من المفروض أنه موجَّه إليك، فأنا في اعتقادها خالد. كلامها هذا أشعر به وكأنه ينخس قلبي كوخز الإبر حتى نعمة وجودي معها عجزْتُ عن الاستمتاع بها، أرى شبحك دائمًا واقفًا بيننا. إنك تعكِّر صفوي وتفسد حياتي وأنت راقد في هذه الغرفة النائية المعزولة عن الدنيا!

قال خالد بصوت مذبوح وهو ناظر إلى السقف:

- هل سأظل هنا طَوال حياتي يا منصور؟ عتاة المجرمين ينتظرون يوم الإفراج عنهم ويعرفون موعده، وأنا عذابي يبدو بلا نهاية، وأقسى عذاب هو ما لا نعرف موعدًا لنهايته.

شعر خالد بأن طاقته على الاستمرار في الحديث قد نفدت، فأغمض عينيه مستسلما وكف عن الحوار. أسرع منصور بالخروج من الغرفة وهو يمسح الدمعة التي طفرت من عينه.

17

كان اليوم مشمسًا دافئًا، وشعاع الشمس ينفذ من الشباك ويفترش السجادة بالقرب من قدمي سهير. كانت سهير مشغولة بضبط أوتار الكمان استعدادًا لعزف بعض أنغام موتسارت الذي تحب موسيقاه. وكان عصام ناظرًا إليها يلاحظها بإعجاب عندما قال:

- كنت أفكر في عمل اختبار لك، ولكن عندما سمعت القطعة الموسيقية التي عزفتِها على الكمان في حفل زواج فاتن أختك وجدت ألَّا داعي للامتحان. أنت ناجحة بامتياز.

قالت سهير وقد هزتها الفرحة كطفلة عثرت على لعبتها التي كانت مفقودة:

- أحقيقة يا أستاذ عصام؟

قال مبتسمًا:

- لا داعي لكلمة «أستاذ»؛ لأنها تضيف إلى سنِّي عشر سنوات.

ضحكت سهير وقالت:

- ليس من الضروري أن يكون الأستاذ عجوزًا.

- ولكنني أحب أن تناديني باسمي، عصام.

- لكن، هل أعجبك عزفي لهذه الدرجة أم تجاملني؟

- لستُ وحدي الذي أعجبني عزفك، لقد رأيتِ وسمعتِ الناس الذين قطَّعوا أيديهم من التصفيق. الحقيقة، أنا غِرْتُ منك.

ضحكت وقالت:

- هذا غير معقول، إنك تجاملني أكثر من اللازم.

- لا والله، إنني أعبِّر عن رأيي الحقيقي بمنتهى الأمانة.

قالت مبتسمة:

- على أية حال، إذا كانت التلميذة بارعة فلا بد أن أستاذها ممتاز.. على فكرة، بابا يشكرك كثيرًا على اهتمامك بإحضار فرقة موسيقية في فرح فاتن.

- لا شكر على واجب. يبدو أن فاتن وخالد سيعيشان معكما هنا.

- نعم، بابا مصمم على ذلك، لا يود أن تبتعد عنه فاتن.

- ألهذا السبب غيَّرتِ غرفتك؟

- نعم، أنا وبابا أخذنا الدور الأرضي وتركنا لفاتن وخالد الدور العلوي.

أطرقَتْ إلى الأرض فترة ثم رفعت رأسها ونظرت إلى عصام قائلة:

- كنت أحب غرفتي التي تركتُها.

وترقرقت الدموع في عينيها.

***

كانت سهير جالسة في غرفتها الجديدة تقرأ لحنًا في نوتة موسيقية وتعزفه على الكمان عندما سمعت طرقًا على الباب.. أذنت للطارق بالدخول، ودُهشت عندما دخل والدها الذي لم يسبق له دخول غرفتها إلا في ظروف قهرية نادرة، كحالة المرض أو استجابة لندائها عندما تكون خائفة. وضعت الكمان جنبها ونظرت لوالدها وفي عينيها شيء من الخوف.

ربت على ظهرها فعادت إليها بعض السكينة والاطمئنان، وجلس بالقرب منها قائلًا:

- كيف حال صحتك الآن يا سهير؟

- جيدة والحمد لله، بدأت أشعر بالسعادة.

نظر إليها مبتسمًا وقال:

- يبدو أنك تعلمت أشياء مفيدة كثيرة في الموسيقى، عصام مدرس قدير.

- نعم، تعلمت أشياء كثيرة.

أطرق إلى الأرض برهة ثم نظر إليها وقال:

- ألا ترين أن ما تعلمتِه حتى الآن يكفي، أم لك رأي آخر؟

ملأ الحزن قلبها الذي كانت السعادة قد بدأت تتسرب إليه وقالت وهي تغالب البكاء:

- الأمر أمرك.

ثم أردفت قائلة:

- ولكن لماذا فكرت في ذلك؟

- سَمِعَتْهُ فاتن أختك يكلمك كلامًا فارغا لا علاقة له بالموسيقى.

- مثل ماذا؟

- يثرثر ثرثرة لا داعي لها.

لم تستطِع سهير إخفاء نبرة الغضب البادية في صوتها، أو السيطرة على شحوب وجهها وإسراع دقات قلبها عندما قالت:

- على أية حال، يكفي ما تعلمته، ولكنني أحب أن تعرف أن عصامًا إنسان مهذب، ولو كان قد ساورني أقلّ شك في ذلك لما واصلت معه الدراسة، كنت أنا التي أنهيتها.

قال الأب متلعثمًا شاعرًا بقدر كبير من الحرج والخجل:

- طبعًا، طبعًا، إنني أعرفك حق المعرفة، ولكنني، لا سمح الله ولا قدَّر، لا أحب أن يتبادر إلى ذهن أحد أشياء لا وجود لها قد تسيء إليكِ؛ لذا طلبتُ من عصام عدم الحضور.

شعرَت سهير وكأن هذه الجملة التي خرجت من بين شفتي أبيها بكل بساطة ملاءة ضخمة أُلقيت على النهار فحجبت الشمس وجعلت النور ظلامًا، واختلطت في عينيها صور الأشياء فلم تعد ترى شيئًا، كما تختلط ببعضها ألوان الطيف فتتلاشى جميع الألوان؛ لذا لم ترَ والدها عندما غادر الغرفة.

لماذا يسبب لي أبي كل هذا الحزن؟ لماذا يؤلمني؟ لماذا يحرمني من لحظات السعادة التي بدأت أشعر بها؟ لماذا يطفئ الشمعة الصغيرة التي بدت في ظلمة حياتي؟

***

في مساء هذا اليوم، خرج الأب من غرفة المكتب فوجد فاتن جالسة في البهو تقاوم النعاس في انتظار منصور. نظر في ساعته فوجدها تقترب من منتصف الليل، فسألها:

- هل ذكر لك خالد أنه سيتأخر الليلة؟

- لم يذكر شيئًا، ولا أدري لماذا تأخر.

قال الأب ساخرًا:

- وما زال عريسًا جديدًا! كان من الواجب أن يتصل بالتليفون. على أية حال لا تقفلي الباب بالترباس، معه مفتاح، سأذهب لأنام، وأنتِ أيضًا نامي، لا تسهري أكثر من ذلك.

ذهب الأب إلى غرفة نومه وظلت فاتن جالسة بضع لحظات ثم قامت وهي تتثاءب ودخلت غرفتها وأوت إلى فراشها وحاولت انتزاع نفسها من الهواجس التي كانت تدور في رأسها، وأغمضت عينيها، وما لبثت أن استسلمت لنوم عميق.

كان الجوُّ صحوًا في هذه الليلة، والقمر الذي يوشك أن يكون بدرًا يضفي على الحديقة ضوءًا كضوء الحلم، والنجوم واضحة في السماء، والنوم هارب من سهير. قامت من فراشها وفتحت نافذة غرفتها المطلة على الحديقة فاستقبلت نسيمًا شعرت بلذة عندما لامس وجهها. بغتة، سمعت صوتًا في الحديقة يهمس قائلًا:

- منصور..

ورأت شبحًا يقترب من المنادي ويهمس بغضب قائلًا:

- من؟

رد الصوت قائلًا:

- لا تخف، أنا عليوة.

- ألم أحذرك من الاقتراب من هذا المكان؟

- وماذا أعمل؟ لا أعرف لك مكانًا غير هذا، ومن مدة طويلة لم تحضر في المكان إياه. أنا مختبئ هنا في الحديقة منذ أكثر من خمس ساعات في انتظار حضورك.

- وكيف تجرؤ على مناداتي باسمي؟ هل جُننتَ؟

- سامحني، لساني معتاد على كلمة منصور، اسم خالد جديد عليَّ. على أية حال لا تخف، كل البيت في سابع نومة.

- ماذا تريد منِّي الآن؟ ألم يصلك نصيبك؟

- عزب غاضب وخالد حالته سيئة بعد أن قُلتَ له إنك ستتزوج فاتن، إنه هائج ودائم الصراخ، إنما المهم أن عزب يفكر في تركه يهرب.

قال منصور بذهول:

- خالد يهرب؟

- نعم، ويبدو أن خالد وعده بشيء.

- وماذا حدث لعزب؟ هل جُنَّ؟ ألا يدرك أن خالد لو خرج ستكون نهايتنا جميعًا؟ وماذا يكون مصيري عندما تعلم الأسرة أنَّ الذي تزوج ابنتهم شخص آخر غير خالد؟

- من أجل هذا، اضطررتُ للمجيء هنا، ولا بد أن تكافئني على ذلك.

- سـأمر عليكم غدًا وأعطيك ما يرضيك، ولا تذكر شيئًا لعزب، سأسوِّي المسألة بيني وبينه. هذه طريقته عندما يكون في حاجة إلى قرشين.

- ألم يكن من الأسهل أن تُطيعني وندفن خالد؟

- لا أستطيع، إنه أخي. سأمرُّ عليكم غدًا.

- وهو كذلك، أستأذن، ونراك غدًا.

- تعالَ معي، سأفتح لك البوابة.

***

لم يكن يتصوَّر منصور أن سهير كانت منصتة بكل جوارحها إلى هـذا الحـوار الغريب. فكَّرت فـي إيقاظ كلِّ من فـي البيت ليحملوا معهـا عـبء الفزع واضطـراب الفكر والدهشـة التـي لا تقوى على احتمالها وحدها. لم تنَم حتى الصباح وهذا المشهد المرعب يعربد في ذهنها.

كان الأبُ أول مـن استيقظ. تركتـه سـهير حتـى تنـاول فطـوره وارتدى ملابسـه اسـتعدادًا للخـروج وانقضت عليه وهـو في غرفة المكتب يرتب أوراقه في حقيبته وبادرته قائلة:

- بابا!

أقلقته نبرة صوتها وخشي أن تكون صحتها قد أضيرت بسبب الصدمة التي تلقَّتها عندما أمر بعدم الاستمرار في دروس الموسيقى، فأسرع بالالتفات نحوها قائلًا:

- نعم يا سهير؟

أزعجه الإرهاق البادي عليها وملامح الفزع المرسومة على وجهها فأردف قائلًا بلهفة:

- ما بكِ يا سهير؟ هل تشعرين بتعب؟

- لم أنَم طوال الليل.

ازداد قلقه، فقام وسحبها برفق من ذراعها وأجلسها على الكنبة وجلس جنبها مطوقًا كتفها بذراعه شاعرًا بعطف شديد على هذه المخلوقة المعذبة وقال:

- ما بك يا حبيبتي؟

قالت وعيناها تدوران في أنحاء الغرفة لا تستقران على موضع معين:

- أكاد لا أصدق نفسي!

قال بلهفة:

- ماذا حدث يا بنتي؟

قصَّتْ عليه الحوار الذي تمكَّنت من التقاطه أذناها المرهفتان بجميع تفاصيله، وعندما انتهت من سرده قال بنبرة حزينة:

- لماذا حدث هذا؟ كنا نعتقد أنك شُفيت شفاءً تامًّا، هكذا أكد لي الطبيب، فلماذا عاودك المرض؟

- لم يعاودني المرض يا بابا، ما رأيتُه في هذه المرة حقيقة لا خيال. أنا أدرك الفرق بينهما.

قال وفي نبرة صوته مزيج من اليأس والسخرية:

- وكيف تدركين ذلك الفرق؟

- بالخبرة، أقسم لك يا بابا إن ما سمعته حقيقة، شيء فظيع جدًّا لا يتصوره العقل.

قال الأب بهدوء حزين:

- من أجل هذا لا أصدِّقه؛ فعقلي لا يصدِّق ولا يتصوَّر سوى الأشياء المعقولة. هل من المعقول أن خالد محبوس في مكان ما، والرجل الذي يعيش مع أختك فاتن شخص آخر غير خالد؟! أي

عقـل يـا بنتي يصدق ذلك؟ لا بد من إخطـار الدكتور. كان قد طلب منِّي أن أخطره على الفور لو ظهرت أعراض الهلاوس مرَّة أخرى.

- ألو، الدكتور منير.. أنا زكي راتب.. أهلًا بك.. سـهير يا دكتور رجعـت لهـا الهـلاوس.. أجل.. سَـمِعَتْ أشـخاصًا.. شـخصين.. يتكلمـان في الحديقة بالقـرب من نافذة غرفتهـا.. لا غرفتها الآن فـي الـدور الأرضي.. هـذه إرادة خالد زوج أختهـا.. وهو كذلك يا دكتور.. أشكرك يا دكتور وآسف على الإزعاج..

وضع السماعة والتفت إلى سهير قائلًا:

- الدكتور سيحضر لرؤيتك الآن قبل ذهابه إلى الكليَّة.

صاحت سهير قائلة:

- يـا بابـا ما سـمعتُه في هـذه المـرة صحيح وليس مـن أَعراض المرض، وأقسـم لك علـى ذلك، ولقد رأيت الشـخصين أيضًا، في الظلام.

ضمَّها الأبُ إلى صدره وربت على كتفها قائلًا:

- لا تقلقي يا سهير، سوف تشفين وتصبحين في أحسن صحة.

همَّت سـهير بالكلام، ولكن والدها أشـار إليهـا بالصمت عندما سـمع حديث منصور مع فاتن وهما يهبطان درجات السـلم. كانت سهير على وشك أن تقول شيئًا، فقالت:

- يا بابا...

في هذه اللحظة دخل التوأم غرفة المكتب قائلًا:

- صباح الخير يا عمي.

- صباح النور يا خالد.

- صباح الخير يا سهير.

غمغمت سهير بكلمات غير مفهومة وغادرت الغرفة دون أن تلتفت نحو التوأم. رأت فاتن تدخل المطبخ للاطمئنان على تنفيذ أنواع الطعام التي طلبها منصور وجلست سهير في البهو مضطربة الذهن مقهورة.

لاحظ منصور ظلال الحزن بادية على وجه الأب فقال:

- ما بك يا عمي؟ تبدو متكدِّرًا.

ركَن الأب حقيبته جنب المكتب وجلس على الكنبة، فجلس منصور على أحد الكراسي بالقرب منه ونظر إلى الأب منتظرًا الإجابة عن تساؤله، قال الأب:

- أجل يا خالد، أنا حزين، لقد عاد المرض لسهير.

قال منصور بلا اكتراث:

- كيف؟

- رجعت تسمع أصواتًا، ماذا تظنها سمعت في هذه المرَّة؟

- ماذا سمعت؟

- سمعتك تكلِّم شخصًا في الحديقة بعد منتصف الليل.

كاد ينخلع قلبه وهو يقول:

- أسمعتْني أنا أكلم شخصًا في الحديقة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، مسكينة، ألاَّ يريد أن يفارقها هذا المرض الملعون؟

لم يحسنْ تمثيل الدهشة ونبرة الصدق فبدت لهجة حديثهِ مفتعلة كاذبة، ولكن الأب لانغماسه في الأسى واضطراب تفكيره لم يلاحظ ذلك، وقال وفي صوته نبرة يأس:

- قال لي الطبيب: إن علاج مثل هذه الأمراض يحتاج لوقت طويل.

قال منصور مؤكدًا:

- أجل، يلزمها وقت طويل.

* * *

عندما خرجت فاتن من المطبخ اتجهت نحو غرفة مكتب والدها غير ملاحظة وجود سهير الجالسة في البهو. نادتها سهير وبادرتها قائلة:

- اسمعي يا فاتن، سأقصُّ عليكِ شيئًا رأيته وسمعته، ولكن أرجوك ألَّا تسيئي بي الظن وتعتبريني مجنونة.

نظرت فاتن إلى سهير وأطالت النظر وكأنها تريد الاطمئنان على سلامة قواها العقلية، ثم قالت:

- تعالَي هنا.

ذهبتا معًا إلى الصالون وجلستا في أحد أركانه. قالت فاتن:

- خيرًا؟

اختصرت سهير الطريق وقفزت مباشرة إلى لُب الموضوع قائلة:

- الرجل الذي تزوجتِه شخص آخر غير خالد!

ضحكت فاتن وقالت بسخرية:

- شخص آخر غير خالد؟! ومن يكون يا ترى؟! هل بدأتْ هلاوسك تشتغل على خالد؟

همَّتْ فاتن بالوقوف فجذبتْها سهير من ذراعها جذبة قوية ألقت بها على الكرسي قائلة:

- اجلسـي، صدِّقينـي يـا فاتـن، مـا سـمعتُه هـذه المـرة حقيقي لا هلاوس. سـمعته يتكلم مع شخص مسـاء أمس في نحو الواحدة بعد منتصف الليل في الحديقة.

- وكيف سمعتِه وبينه وبينك نافذة مغلقة؟

- كانـت نافـذة غرفتي مفتوحة علـى مصراعيهـا، وجميع نوافذ البيـت مظلمة بمـا يوحي بأن كل مـن في البيت نائمون، والسـكون تسمعين فيه صوت دقات القلب.

قالت فاتن:

- تأكدي يا سـهير أننـي حزينة من أجلك، أدعو اللـه ليلًا ونهارًا أن يشفيك.

انتفضت سهير واقفة وهي تقول:

- يا ناس حرام! ليسـت هذه هلاوس.. الشـخص الذي تعيشين معه يا فاتن ليس خالدا، بل شخص مجرم غريب، صدقيني..

قالت فاتن بهدوء:

- وإذا لـم يكـن هذا خالد فأين خالد؟ لا يحدث شـيء كهذا إلا إذا كان الشـخصان توأمين متشـابهين، فهل ذكر لك خالد أن له أخًا توأمًا؟

- من المفروض أن يخبرك أنتِ يا فاتن قبل أن يخبرني؛ فأنتِ أقرب إليه مني.

- لقد قال لي إنه لا أخوات له ولا إخوة، سوى أخ واحد توفي منذ عشر سنوات. لو كان له توأم لما أخفاه عنَّا؛ إذ لا يوجد ما يدعو لإخفائه، أليس كذلك؟

قالت سهير وهي شاردة الذهن حائرة الفكر:

- لست أدري.

استطردت فاتن قائلة:

- المصاب بمرضك يا سهير تختلط عليه الأمور، فلا يستطيع الحكم على ما يسمعه من أصوات ما إذا كانت حقيقية أم هلاوس.

قالت فاتن وقد بدأت تخشى أن تتعرض حياتها الزوجية للخطر إذا أصرَّت سهير على تكرار هذا الكلام:

- اعملي معروفا يا سهير، لا تُلْقي بخالد في دوامة تهيؤاتك، اتركينا في حالنا.

***

في مساء اليوم التالي، ذهب منصور إلى المكان الذي يؤوي خالدا فوجده مستغرقًا في نوم عميق، فخطرت له فكرة غريبة، تمنى

أن يعـرف مـا إذا كان أخوه يحلُم هنا أم لا يحلُم، وإذا كان يحلُم فما نوعيـة الأحلام التـي تطوف بخياله النائم؟ لم يشـأ أن يوقظه، فتركه وذهـب إلى عليوة الـذي كان ينتظره في المخزن الذي اعتاد الالتقاء فيـه مـع أصحابه بالقرب مـن غرفة خالـد. جلس القرفصـاء وأطال النظر لعليوة الذي كان يشـفط النارجيلة، سـحبها منه وشـفط بضعة أنفاس ثم قال:

- أنا رُحت في داهية!

قال عليوة بدهشة وفزع:

- أمصيبة؟

- أجل، مصيبة، وكله بسببك يا غبي.

- ماذا حدث؟

- أكان مـن الضـروري أن تقابلني بعد منتصـف الليل في البيت الذي أعيش فيه؟ ألم أحذِّرك من الاقتراب منه؟

- هل شعر أحد بوجودي معك؟

- سـهير أخت فاتن لم تكن نائمة كما تصوَّرنا، وسمِعَتْ الكلام الذي دار بيننا.

شعر عليوة برعب شديد ورعشة تشبه رعشة الحمى تسري في جسده الضخم وقال بصوتٍ ميِّت:

- وما العمل؟

- من حسن الحظ أن هذه البنت مريضة بالهلاوس.

قال عليوة وما زالت أحشاؤه مرتجفة:

- لم أسمع عن مرض بهذا الاسم.

- المصاب بهذا المرض يسمع أصواتًا لا وجود لها، وعندما حكت لهم ما سمعَتْه اعتقدوا أنها تهلوس، لم يصدقها أحد.

لم يستطِع عليوة التخلص من رجفة الخوف، ولكنه قال:

- ولماذا الخوف إذًا ما دامت من أصحاب السوابق؟

وحاول أن يضحك ولكن الضحكة وقفت في زوره فشرب جرعة ماء ليبتلعها، وسلَّم النارجيلة لمنصور قائلًا:

- خذ عَمَّر دماغك ولا يهمك، ربنا ساترها.

وأردف قائلًا:

- هل تعتقد أن عَزَب يجرؤ على ترك خالد يهرب؟

- كل شيء جائز، لكن ذلك بعيد الاحتمال.

- كيف؟

- عزب يحب الفلوس، سأعطيه مبلغًا، وأراقبه مراقبة شديدة ولن أتركه هنا وحده، وأوصيْتُ الولد زَعْتَر بمراقبة كل حركاته.. على أية حال أنا لا أعتقد أن عزب في استطاعته عمل شيء كهذا، فمصيره مربوط بمصيرنا، الأخطر من هذا البنت سهير.

- ألم تقُلْ: إنهم يأخذون كلامها على محمل الهلوسة؟

- بلى، ولكنني لست مطمئنًّا تمام الاطمئنان. إذا ظلَّت مواظبة على تأكيد ما سمعتْه منَّا فقد تجد من يصدقها، وتقع الكارثة.

شفط منصور عدة شفطات من النارجيلة وأطرق إلى الأرض، وبعد فترة صمت طالت عن المألوف قال دون أن يرفع رأسه:

- خطرت ببالي الآن فكرة.

قال عليوة متوقعًا بحاسته الإجرامية سماع شيء رهيب:

- وما هذه الفكرة؟

رفع منصور رأسه مثبتًا عينيه في عيني عليوة وقال:

- نستريح من البنت سهير، ونريحها هي أيضًا.

التزم عليوة الصمت مطرقًا إلى الأرض، وأردف منصور قائلًا:

- إنها بنت مهووسة، معذبة في حياتها؛ فإذا وجدوها واقعة من ثاني دور، أو مصدومة بسيارة سيتبادر إلى ذهنهم أنها انتحرت.

أخذ عليوة يعبث بشاربه الضخم، كعادته عندما يفكر بعمق، ثم قال:

- معقول.

استطرد منصور قائلًا:

- وبهذا نرتاح منها ومن نكدها، وأستريح أيضًا من ذلك الرجل الذي يقتحم البيت من آنٍ لآخر وكأنه بيت أبيه. عندما تلتقي عيناي عيني هذا الرجل أشعر بخوف لا أعرف سببه.

- أي رجل هذا؟

* * *

قال الدكتور منير وهو جالس مع سهير في غرفة مكتب أبيها في البيت:

- سبق أن ذكرتِ لي أنك سمعتِ أصوات ناس يتكلمون في الصالون واتضح أن هذه الأصوات لا وجود لها ولم يسمعها سواكِ، وتقولين اليوم أيضًا إنك سمعتِ مثل هذه الأصوات.

- لكـن يا دكتـور أنا متأكدة أن ما سـمعته في هـذه المرَّة صوت حقيقي وليس خيالًا ولا أوهامًا.

- وكيف تأكدتِ من ذلك؟

- إحساسـي بذلك لا يخطئ، الأصوات الحقيقية أسـمعها بنبرة أعرفهـا، أما الأصـوات التي لا وجود لها فأسـمعها بنبرة غريبة عني ولا تكون واضحة كل الوضوح.

- لا يمكننا اعتبار ذلك قاعدة عامة.

- أنـا أتكلـم عن تجربتي الخاصة، ونسـيت أن أقـول إنني لأول مرَّة لم يقتصر الأمر على سـماع الصوت، بل رأيت أيضًا الشخصين المتكلمين ولو أنني لم أسـتطِع تمييز ملامحهما لعدم وجود الضوء الكافي تحت الشجرة في الظلام.

- هـل تذكرين أي حـادث أو ذكريات ذات علاقة بالمكان الذي سمعتِ الصوت منبعثًا منه؟

ظلـت مطرقة إلـى الأرض تحاول اسـترجاع ذكرياتها ثم رفعت رأسها قائلة:

- لا أذكر شيئًا.

- لا يهـم؛ فالأشـياء التي ننسـاها أهم مـن التي نتذكرهـا؛ لأنها تسقط في بئر عميقة من آبار اللاوعي وقد تسبب أشياء خطيرة.

قالت سهير بإصرار:

- ولكنني يا دكتور متأكدة أن ما سمعته حقيقة وليس تهيؤات.

- من بين سمات هذا المرض عدم القدرة على التمييز بين الحقيقة والوهم، فما يبدو لنا حقيقة لا تقبل الشك قد يكون وهْمًا.

نكَّستْ رأسها شاعرة بيأس قاسٍ وقالت بصوت خافت حزين:

- إذا كان الأمرُ كذلك فلا بد أنني مريضة يا دكتور.

وطفرت الدموع من عينيها. قال الطبيب:

- متى أويتِ إلى فراشك في تلك الليلة؟

- لم أنَم.

- ألم تسمعي أي شيء آخر في سكون الليل؟

- سمعت صوت أطفال يلعبون ويتحدثون بكلمات غير مفهومة محدثين ضجة، ثم سمعت عزفًا على الكمان منبعثًا من المكان نفسه.

- هل كان ذلك قبل سماع حوار الرجلين أم بعده؟

- بعده بنحو نصف ساعة.

- وأين كان مصدر الصوت؟

- شـعرت بـه وكأنـه قادم مـن غرفتي التـي كنت فيها فـي الدور العلوي.

قال الطبيب بدهشة:

- ولماذا انتقلتِ من غرفتك؟

- زوج فاتن هو الذي طلب ذلك من أبي، ليشعر وكأنه في مسكن مستقل، كما قال، ولبَّى أبي طلبه على الفور.

- هل كنتِ تفضِّلين البقاء في غرفتك؟

قالت وفي عينيها توسُّل وانكسار:

- أجـل يا دكتور، كنت أحب غرفتي التـي قضيتُ فيها كل ما مرَّ من عمري.

- لا تحزني، سأطلب من والدك أن يعيدك إلى الغرفة التي كنتِ فيها.

قالت سهير غير مصدقة تحقيق هذا الأمل:

- ليتهم يفعلون ذلك.

قال الدكتور وهو يستعد للقيام:

- هل حدث شيء آخر عكَّر صفوك أمس؟

قالت بعد فترة تردد:

- نعم، تألمت وبكيت كثيرًا.

قال الطبيب بدهشة:

- لماذا؟

- من كلمة قالها بابا، جرحتني جرحًا عميقًا.

- ماذا قال؟

- طلب من عصام مدرس الموسيقى ألَّا يستمر في دروسه، قائلًا إن ما درسته يكفي.

قال الطبيب بفزع:

- ولماذا فعل ذلك؟ كان من الواجب أخذ رأيي في هذا الموضوع؛ فأنا الذي رشّحت له عصام، وأعرفه تمام المعرفة.

تهدَّج صوتها وهي تقول:

- لقد غضب من عصام لأنه...

لم تستطِع إتمام حديثها وانخرطت في البكاء. ظل الطبيب ملتزمًا الصمت حتى هدأت، فقال:

- لماذا غضب من عصام؟

- يتهمه بأنه يكلمني كلامًا لا علاقة له بالموسيقى.

- مثل ماذا؟

- لا شيء، إنه شاب مؤدب ومهذب وكان لطيفًا معي ومشجعًا لي. يبدو أن والدي لا يرضيه أن أسمع كلمة طيبة من أي إنسان.

واختنقت بالبكاء فتركها الطبيب تبكي، ثم ربت على ظهرها قائلًا:

- لا تحزني، سأتكلم مع بابا في هذه المسألة أيضًا.

قالت سهير بصوت متهدج:

- درس الموسيقى كان الشيء الوحيد في حياتي الذي كنت أسعد بانتظاره. هل كُتب عليَّ أن أظل طوال حياتي مسكينة هكذا؟

نفذت جملتها الأخيرة إلى قلب الطبيب وكأنها خنجر، فقال:

تأكدي أن الجميع يتمنون لك السعادة.. لا تحزني، لا تحزني.

***

كان الأب في الصالون ينتظر انتهاء الطبيب من جلسة العلاج مع سهير التي أسرعت بالذهاب إلى غرفتها عقب الانتهاء من الجلسة مباشرة. قال الطبيب للأب وهو يستعد للخروج:

- يا أستاذ راتب، لقد عاد المرض لسهير بسبب الصدمة التي سببتَها لها.

قال الأب بدهشة:

- صدمة؟! أية صدمة هذه يا دكتور؟

- دروس الموسيقى التي كانت العزاء الوحيد لسهير في الدنيا، ألم تطلب من عصام إنهاءها؟

أطرق الأب لحظة إلى الأرض ثم رفع رأسه وقال:

- يا دكتور أنت تعرف أن عصاما شاب، ويجلس مع سهير مدة طويلة، وفاتن سمعته يتحدث معها في أمور لا داعي لها، أنا الحقيقة خفتُ أن تتعلق بأمل كاذب وتطمع في أشياء لا تتحقق فتصاب بصدمة.

- أمل كاذب؟ يبدو يا أستاذ راتب أنك مصمم على حرمان سهير من أي أمل حتى لو كان أملًا كاذبًا كما تقول. إن كثيرًا من آمال وأحلام البشر آمال كاذبة، ولكنها تحفِّزهم على الاستمرار في حب الحياة. تقول إنك خفت عليها من الصدمة، فعجَّلْتَ أنتَ بهذه الصدمة! تأكد يا أستاذ راتب أن سهير لم تفكر في شيء من هذا، وكل ما في الأمر أنها شعرت بشيء من السعادة للالتقاء بإنسان يحدِّثها عن الموسيقى التي تحبها. حتى هذا القدْر من الراحة النفسية حَرَمْتَها

منه؟ لي عندك رجاء، إنني أرى، كطبيب، أن يستكمل عصام دروس الموسيقى التي بدأها معها. ولكي تطمئن غاية الاطمئنان لا مانع من أن تجلس معهما في أثناء الدرس بدرية أو البنت الأخرى..

- خواطر؟

- أجل، ولن تفكر سهير في شيء سوى الموسيقى.. هذا إذا كنت تريد لابنتك الشفاء.

قال الأب وعلى فمه ابتسامة:

- وهو كذلك يا دكتور، طلبك مجاب.

قال الطبيب بعد لحظة صمت قصيرة:

- وجود خالد في البيت بصفة مستمرة بعد زواجه من فاتن قد يكون ذا تأثير على أعصاب سهير.

قال بدهشة:

- وما العلاقة بين وجود خالد في البيت وأعصاب سهير؟

- توجد علاقة كبيرة، تُرى هل من الممكن أن تعثر على بيت لفاتن وخالد يعيشان فيه بعيدًا عن سهير؟

قال الأب بنبرة غاضبة حادة حاسمة لا تقبل الجدل:

- هـذا غير معقول يا دكتور، لا أقبـل أن تبتعد فاتن عنِّي أبدًا. أنا على استعداد لتلبية أي طلب ما عدا هذا.

قال الطبيب بهدوء:

- الأمـر أمرك يا أسـتاذ راتب ولن يجبرك أحد على شـيء. إنني أبحث عن جميع الوسـائل التي قد تساعد على شفاء سهير. على أية حال، لديَّ رجاء آخر، تُرى هل تسمح به؟

- تفضَّل.

- سهير متألمة لتركها غرفتها التي عاشت فيها طوال هذه المدة، هل من الممكن أن تعود إليها؟

- لا مانـع لـديَّ؛ نصعـد أنا وسـهير إلى الـدور العلـوي كما كنا وتهبـط فاتن وخالـد إلى الـدور الأرضي، ومسـتعد لتنفيذ ذلك من الغد، سيشـعران بأن الحديقـة وكل البيت ملك لهما، كانت فاتن قد لمَّحت لي بذلك.

18

نظـر الأب فـرأى الخادمة خواطر تصعد السـلم صعـودًا إيقاعيًّا وكأنهـا تلحِّن خطواتها، فظلَّ يتأملها خِلْسـة بضع لحظات ثم نادى بصوته المرعب:

- بنت يا خواطر.

دارت على قدمها مائة وثمانين درجة وكأنها فرجار يرسم نصف دائرة على السلَّم وصاحت قائلة:

- نَعَمين يا سيدي؟ أفندم؟

تعثرت وكادت تقع فتشبثت بالدرابزين ووقفت في انتظار أوامر سيدها، فصاح قائلًا:

- تعالَي هنا.

في سرعة الغزالة، قفزت ووقفت أمامه عند أسفل السلم. قال:

- هيا معي إلى الصالون.

سـبقته في الدخول شـاعرة بنشـوة لا تعرف كنهها ولا تدرك لها سببًا. أقفل الباب قائلًا:

- أنصتي لي جيدًا.

اقتربت منه خطوتين قائلة:

- أفندم يا سيدي؟

- مدرس الموسيقى سيعود لاستكمال الدروس لسهير. أريد منك يوم حضوره أن تظلي معهما في غرفة السفرة منذ لحظة دخوله حتى خروجه ولا تتركيهما وحدهما لحظة واحدة، أمفهوم؟

- مفهوم جدًّا يا سيدي.

- وإذا خرجْتِ من الغرفة لسبب مهم فلا تتركيهما وحدهما مدة طويلة.

- فاهمة يا سيدي.

- المهم أن تعملي ذلك دون أن يشعرا بأي شيء.

قالت بعد فترة تردد قصيرة:

- أمطلوب منِّي هذا يا سيدي في أول مرَّة فقط أم كل مرَّة؟

قال غاضبًا:

- كل مرَّة يا حمارة.

- حاضر يا سيدي.

- وأوصَيتُ بدرية أن تلاحظك وتتأكد من طاعتك لأوامري، وإذا علمْتُ أنك تهاونتِ في تنفيذها سيكون عقابك الطرد من البيت فورًا، أمفهوم؟

قالت وهي مطرقة إلى الأرض:

- نعم، مفهوم.

- وإياكِ أن تعْلَم سهير كلمة واحدة عن هذا الموضوع.

- مفهوم يا أفندم.

ولقد شاء الأب ألا «يزعج» ابنته سهير بنبأين سارَّين في جرعة واحدة؛ خوفا عليها من الآثار السلبية التي قد تسببها هذه الكمية الضخمة من سعادةٍ لم تعتَدها؛ فقد تضر بصحتها! ولذا أخبرها أولًا بعودتها إلى غرفتها التي كانت فيها، فانتقلت إليها، أما نبأ حضور عصام فلقد رأى تأجيله، فلا يُخطرها به إلا في صباح اليوم الذي سيحضر فيه.

***

في ذلك اليوم، وقفت سهير في انتظار عصام خلف زجاج نافذة غرفتها. كان الجو مكفهرًّا، المطر ينهمر بغزارة والرياح تعوي بصوت كصوت طفل يبكي، ولكن قلبها كان مفعمًا بفرح من نوع جديد أشبه بفرحتها عندما رأت قوس قزح في طفولتها لأول مرة.

رأت عصام قادمًا عدة مرات، رأته سـائرًا على قدميه واضعًا يديه فـي جيبي معطفه، ورأته يقود سـيارته، ثم رأته يُقْبِـل مهرولًا، ورأته يحمـل مظلَّة، ورأته يجـري، ولكن في كل مرة من هذه المرات كان عندما يقترب من البيت وتَبِين دقائق معالمه يتضح أنه شخص آخر، وأخيرًا وصل.

* * *

قال عصام لسهير المحتضنة للكمان:

- أخشى أن تكوني قد نسيتِ الموسيقى في هذه المدة.

قالت سهير مبتسمة:

- لا ينسى الإنسانُ شيئًا يحبه.

- اعزفي لي شيئًا، أي شيء؛ ليطمئن قلبي.

عزفَتْ نغمة من موسيقى روسيني في «حلاق إشبيلية».

- ألـم أقل لك إنك مدهشة، بل أكثر من مدهشة، رائعة؟!

بغتة ما ارتفع صوت خواطر مترنِّمة بأغنية «مال الهوا»، فشعرت سـهير بالخجـل لهـذا الاضطراب، وفوجـئ كل من سـهير وعصام بدخول خواطر بلا اسـتئذان وجلوسها في ركن الغرفة. قالت سهير بدهشة:

- ماذا تريدين يا خواطر؟!

قالت خواطر بلا اكتراث:

- لا شـيء يا سـيدتي، لا أريد سوى سـلامتك. سمعت نغماتك الحلوة فجذبتني إليكما، وحَضْرتك تعلمين أن روحي دائمًا منجذبة للأشياء الحلوة.

قالت سهير بهدوء:

- ألم تسمعي الأشياء الحلوة؟ هيا اخرجي من هنا.

- لا أستطيع الخروج يا سيدتي، انجذابي للموسيقى شديد جدًّا، فقد ألتقِطُ كلمتين أو نغمتين ينفعونني في مسـتقبلي. آه يانا يا غلبي. ما ترد عليَّ يا أستاذ.

قال عصام غاضبًا وقد بدأ يشعر بالضيق:

- وهل وجهتِ إليَّ سؤالًا؟ ماذا تريدين مني؟

فاجأته قائلة:

- هل تشتغل في السيما؟

قال بصبر نافد:

- لا أشتغل في السينما، أشتغل في الموسيقى.

قالت بحزن وخيبة أمل:

- يالقلة بختي وسوء حظي، يا ويلي وسواد ليلي.

التفت عصام إلى سهير وقال مستنجدًا:

- ما حكاية هذه البنت؟ ماذا تريد مني؟

- لا تُعِرْها أي اهتمام، إنها مجنونة بالسينما.

وأردفت قائلة لها وقد بلغ غضبها ذروته:

- امشي اخرجي من الغرفة.

قالت خواطر بهدوء:

- وحياة غلاوتك عندي يا سيدتي سهير ما أقدر أخرج من هذه الغرفة!

صاحت سهير قائلة وقد أوشكت أن تقذف بها خارج النافذة:

- عجيبة! هل أنتِ التي تتعلمين الموسيقى أم أنا؟

- نحن الاثنتان يا سيدتي.

ثم أردفت قائلة:

- والنبي غصب عنِّي يا اخواتي، آه يانا يا غلبي يانا.

وخطرت لها فكرة اعتقدت أن فيها الخلاص، فقالت:

- هل أبوح لكِ يا سيدتي بسرٍّ ولا تخبرين به أحدًا؟

قالت سهير بضيق قاتل:

- وما هذا السر؟

أطرقت خواطر إلى الأرض في صمت، فصاحت سهير قائلة:

- انطقي، ماذا تريدين؟

رفعت رأسها ونظرت لسهير قائلة بتوسُّل:

- عشرة قروش سلف حتى أول الشهر، أذهب للسينما وأريحك من خلقتي.

قررت سهير أن تشتري راحتها بهذه القروش فقالت:

- بكم التذكرة؟

- بستة قروش ونصف.

- ولماذا تطلبين عشرة قروش؟

- يُـهْ، ألا أشتري قرطاس لب، قرطاس سوداني، أشياء كهذه أتسلى بها؟ هل أجلس كالصنم ولا أحرك ضبَّتي؟

أخرجت سهير كيس نقودها وأعطتها عشرة قروش قائلة:

- خذي وروحي في ستين داهية.

أطبقت خواطر يدها على النقود بقوة وكأنها تخشى أن تخطفها طيور النورس، وما كادت تغادر الغرفة حتى وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام بدرية حاملة فنجان القهوة الثاني لعصام فوقفتا وقد بدت ملامح الدهشة على وجه بدرية التي بادرتها خواطر قائلة بنبرة متعالية وكأنها تكلم مرؤوسة لها:

- بدرية، بدرية.

- ماذا تريدين؟

- اجلسي مع الست سهير حتى أعود.

- ولماذا تركتِ الغرفة؟

- عندي مشوار مهم.

هزَّت بدرية كتفيها واتجهت نحو الغرفة حاملة فنجان القهوة قائلة:

- سيدي قال أنتِ المكلَّفة بهذه المسألة.

وقفت خواطر تكلِّم نفسها قائلة:

- نكدتِ عليَّ الله ينكد عليك. دائمًا تحرمينني من لذات الدنيا. أمري لله، آه يانا يا غلبي.

نظرت إليها سهير بدهشة وقالت:

- لماذا لم تذهبي إلى السينما؟

قالت خواطر وهي تجلس متربِّعة في الركن الذي كانت فيه:

- غيَّرت رأيي، سأذهب في حفلة «السواريه».

ثم التفتت خواطر إلى عصام وقالت:

- فاضل كثير يا أستاذ؟

صاحت سهير قائلة:

- ماذا جرى لعقلك يا بنت؟ هل جُننتِ؟ اغربي عن وجهي، هيا اخرجي من الغرفة حتى لا أضطر لخنقك.

لم تتحرك خواطر من مكانها وتمتمت قائلة:

- أين كانت مخبأة لي هذه الشغلة المهبّبة التي سقطت على دماغي في آخر الزمن؟

قالت سهير وقد تحوَّلت بغتة من حالة الانقباض إلى حالة الانبساط:

- ما الشغلة المهببة التي هبطت على دماغك؟

- لا شيء يا سيدتي، لا تهتمي بكلامي؛ فأنا يفلت منِّي كلام فارغ كثير لا معنى له، من دون مناسبة، أعاني هذا الداء الأغبر.

ثم التفتت إلى عصام قائلة:

- هيا يا أستاذ شد حيلك، قُل الدرس الذي تنوي تدريسه خلِّ اليوم يمر على خير، اللهم اجعله خيرًا.

قال عصام مكلمًا نفسه:

- لست أدري ما حكايتها هذه البنت! أين عثرتم عليها؟

قالت سهير شاعرة بمزيد من الخجل:

- ماذا دهاكِ اليوم؟ تكلمي.

- وهل رأيتِني يا سيدتي سكتُّ عن الكلام؟ أنا لم أتوقف عن الكلام لحظة واحدة.. آه يانا يا غلبي.

أردفت سهير قائلة لعصام:

- لا تُعِرْها أي اهتمام يا عصام، فلنستمر نحن في درسنا.

قال عصام محاولًا اختصار الدرس:

- وهو كذلك، خذي هذه النوتة الموسيقية اقرئيها واعزفيها على الكمان.

شدت سهير بعض الأوتار ثم وضعت النوتة أمامها وبدأت العزف.

***

قال عصام لسهير:

- عزفك جميل جدًّا ولكن تنقصه بعض التصحيحات البسيطة. تمرَّني على عزفها حتى أراك في الدرس المقبل، يكفي هذا اليوم.

شعرت خواطر براحة نفسية وكأنها كانت مربوطة بالحبال في كرسي ومحشور في فمها فوطة ثم حُلَّ وثاقها وأُفرج عنها، فانتصبت واقفة وقالت لعصام:

- كم درسًا يتبقى يا أستاذ؟!

قالت سهير وقد احتقن وجهها من الغيظ:

- شيء بارد، وما شأنك أنت؟ امشي من قدّامي.

قالت خواطر وهي تبتعد:

- أنا كان ما لي وما لهذه المصائب؟!

ولم تغلب منها المناسبة للغناء، فانطلقت تغني: «مال الهوا يا امّه مال، مال الهوا»..

* * *

وقفت سهير خلف فتحة ضيقة من باب البيت، الذي تركته مواربًا، ناظرة من خلالها إلى عصام وهو يستقل سيارته دون أن يلتفت نحو البيت، وظلت تتابع حركة السيارة حتى اختفت عن

ناظريها، ولما أقفلت الباب واستدارت لتذهب إلى غرفتها رأت خواطر متجهة نحو المطبخ فاستوقفتها قائلة:

- تعالَي يا بنت يا خواطر.

قالت خواطر بصوت خافت ونبرة حزينة:

- أفندم يا سيدتي.

- ما حكايتك بالضبط؟

- رغمًا عنِّي يا سيدتي.

- أتقتحمين الغرفة وقت الدرس بلا استئذان ولا حياء، ويصدر منك هذا الكلام الفارغ رغمًا عنكِ؟ لماذا فعلتِ ذلك؟ هل جُننتِ؟

أطرقت خواطر إلى الأرض وبدت ملامح وجهها جادَّة لأول مرَّة، ثم رفعت رأسها وقالت:

- هل أبوح لكِ بالسر يا سيدتي وتعدينني ألَّا تخبري أحدًا؟

قالت سهير بغضب:

- تكلمي، هل يوجد ما يمكن أن يبرر ذلك؟

- أجل يا سيدتي، يوجد ما هو أقوى منا نحن الاثنتين.

قالت سهير بسخرية:

- وما هو يا ترى؟

قالت خواطر وهي مطرقة إلى الأرض:

- إنها أوامر سيدي يا سيدتي.

شعرت سهير بمهانة جعلتها تخجل من خواطر، فقالت بصوت خافت مرتجف:

- ماذا قال؟

- أمرني ألَّا أترككما وحدكما أبدًا.

تمتمت سهير غير مصدقة:

- هل أمرك أن تجلسي معنا؟

- أجل يا سيدتي، قسمًا بحبي وإخلاصي لك اللذين لا يعرف مقدارهما إلا الله. هل من المعقول أن أعمل ذلك متطوعة؟!

طفرت الدموع غزيرة من عيني سهير، فانزعجت خواطر وقالت:

- يقطعني ويقطع لساني، ليتني ما فتحت فمي. ليتني مِتُّ.

واختطفت يد سهير وقبَّلتها قائلة:

- أبـوس يديـك ورجليـك يـا سـيدتي، لا تخبـري سـيدي أنني كشفت السر، ولا تحزني.

وتكـوَّرت فـي ركن البهـو ولأول مرَّة ترى سـهير خواطر تبكي. كانـت دموعها تبدو وكأنها تنسـاب من خـزان لا ينضب. ابتل كمها الـذي تمسـحها بـه وبـدا وكأنـه منقوع فـي الماء فلـم يعـد صالحًا لتجفيفها، فأخذت سـهير تجففها لها بمنديلها ونسيت دموعها هي، وانحنت تربت على كتفيها طالبة منها أن تهدأ، قالت لها:

- لم يحدث ما يستوجب كل هذا البكاء، لماذا تبكين؟

قالت خواطر وهي تحاول إيقاف طوفان دموعها:

- لسـت أدري يا سـيدتي. أشعر أحيانًا برغبة في البكاء لا أعرف لها سببًا. وأحيانًا أبكي لأمر قبل أن يحدث، من باب الاحتياط.

ضحكت سهير ضحكة لا إرادية وقالت برفق:

- كفى بكاء، قومي اغسلي وجهك، هيًا.

فنهضت خواطر قائلة بنبرة حزينة:

- آه يانا يا غلبي يانا.

واتجهت نحو المطبخ.

19

أصبح الخوف عنصرًا من عناصر جسد منصور لا يستطيع التخلص منه، كالكالسيوم والحديد والكربون وغيرها من العناصر التي تتكون منها أجسام بني آدم وغيرهم من الحيوانات. وخوفه هذا في ازدياد مطرد بسبب ما تؤكده سهير يومًا بعد يوم من أن الشخص الذي يعيش مع أختها فاتن شخص آخر غير خالد. إنهم حتى الآن لا يصدِّقون ما ترويه؛ فهي في نظر كل من يعرفها إنسانة مريضة بالهلاوس تسمع من الأصوات ما لا وجود له، وما تصر على ترديده مظهر من مظاهر المرض، ولكن الهواجس التي لا تكف عن الدوران في ذهن منصور تهمس قائلة: «من يدري؟ إن الإصرار على ترديدها لهذا الاتهام قد يؤدي إلى تصديقها في النهاية فتكون نهايتك يا منصور».

ولذا، فلقد شعر برجفة غير عادية عندما فتح باب البيت هذا الصباح ليستقل سيارته ويذهب إلى عمله فوجد نفسه وجهًا لوجه أمام الأب فاتحًا الغطاء الأمامي لسيارته المركونة جنب سيارة منصور. بادَرَهُ منصور قائلًا:

– ما بها السيارة؟

دون أن يلتفت نحو منصور، قال:

- لا شيء، مجرد كشف على الزيت والماء.

- وكيف وجدتهما؟

- على ما يرام.

ولم يجد ما يقوله فوجد نفسه يقول:

- كيف حال سهير الآن يا عمي؟

أقفل الأب غطاء السيارة بشيء من العنف قائلًا وفي صوته حزن:

- لست أدري يا خالد ماذا جرى لهذه البنت، كلما ظننتها شُفيت إذا بها ما تزال مريضة.

لماذا رفع رأسه ونظر إليّ عندما نطق كلمة خالد؟ ترى هل فهم شيئًا؟

- أدعو الله أن يريحها من هذا العذاب، يُخيَّل إليَّ أنها تتعذب.

قال الأب وهو يفتح زجاج السيارة ويضبط وضع المرآة:

- نعم، إنها تتعذب يا خالد بكل تأكيد، وبدأتُ أتعذب معها. وما يؤلمني يا خالد شعوري بأنني سبب عذابها. يبدو أنني قسوت عليها دون أن أشعر.

ليس من عادته أن يكرر كلمة «خالد» وهو يخاطبني، تُرى ما الحكاية؟ ولماذا قال: «بدأتُ» أتعذب، ولم يقل: «وأتعذب»؟ هل يقصد بهذا أن أشياء قد استجدَّت بدأت تعذبه لم تكن موجودة؟ إذ إن مرض سهير تعانيه منذ مدة طويلة ولم يستجدّ شيء!

- ألم تسمع أصواتًا بعد تلك التي سمعتها في الجنينة ليلًا؟

- لم أعد أسمع منها شيئًا عن هذا الموضوع، ربما تكون قد اقتنعت بأن ما سمعته ورأته في تلك الليلة لم يكن غير خيال من تهيؤاتها فيئستْ والتزمت الصمت، ولا أحب أن أذكِّرها به.

لماذا قال «يئستْ»؟ إن هذه الكلمة قد تعني أن ما سمعتْه حقيقة لا يريد أن يصدقها أحد وأن الأب يوافق على ذلك.

- أتفق معك يا عمي؛ فتذكيرُها من آنٍ لآخر بهذا الحديث الذي سمعتْه ليلًا يزيدُ مرضها اشتعالًا

استقلَّ الأب سيارته وانطلقت به، وجلس منصور خلف عجلة قيادة سيارته.

لماذا تركني دون كلمة أو إشارة من يده؟ لقد اعتاد في مثل هذه المواقف أن يحييني بكلمة أو إشارة. هل يدل هذا على تغيُّر مشاعره نحوي أو شكه في أمري؟

وتحركت السيارة ومثل هذه الأفكار ما زالت تعربد في ذهنه.

***

في هذه الليلة أوت فاتن إلى فراشها في العاشرة مساءً، وعندما دقت الساعة إحدى عشرة دقة كانت قد انتقلت إلى عالم الأطياف والأحلام، وظل منصور جالسًا في البهو حتى تسلل كل من في البيت إلى أماكن نومهم وران على المكان صمت مرعب.

كانت كل دقة من دقات الساعة العتيقة المعلقة في البهو تنفث في قلبه مزيدًا من الخوف وتُسرع بتنفيذ أخطر عمل أقدم عليه في حياته، خرج إلى الحديقة بمنتهى الحذر ونظر إلى نافذة غرفة سهير، فوجدها مفتوحة على مصراعيها.. حسنًا، لن أحمل همَّ فتحها.

ذهب إلى غرفته ليتأكد من أن فاتن ما زالت مستغرقة في النوم. كانت الغرفة مضاءة بأباجورة خافتة النور، على ضوئها الأخضر الشاحب رأى فاتن التي زادها ذلك الضوء جمالًا وبدت وهي نائمة كتمثال مايكل أنجلو. أطفأ نور البهو وجلس يسترجع خطوات السيناريو الموشك على تنفيذه. دقت الساعة دقة واحدة تدقها في منتصف كل ساعة فخُيِّل إليه أنها أيقظت كل من في البيت فجلس منكمشًا وكأنه في انتظار انفجار بركان.

أخذ يصعد السـلم على أطراف أصابعه متجهًا نحو غرفة سـهير. أدار الأُكرة ببطء شديد ثم فتح الباب. أذهلته مفاجأة عجيبة؛ إذ وجد النافذة مغلقة إغلاقًا تامًّا.

مَن أغلقها خلال هذه الفترة القصيرة؟ هل هذا معقول؟ تُرى هل أخطـأتُ ونظَرتُ إلى نافـذة أخرى في غرفة غير غرفة سـهير عندما كنـتُ فـي الحديقة؟ محتمـل. أم شَـعَرتْ ببرد فقامـت وأغلقتها ثم نامت؟ هذا جائز أيضًا. المهم الآن أنها مغلقة.

كانـت سـهير نائمـة علـى الجانب الأيمـن متجهـة بوجهها نحو الشباك وظهرها نحو باب الغرفة واضعة يدها اليسرى خارج الغطاء واليمنى تحت الوسادة.

لا بُدَّ الآن مـن تغيير السـيناريو؛ سـأفتح النافذة بهدوء وأسـرع بإلقائهـا وأنـا كاتم أنفاسـها بيـدي، وينتهي كل شـيء خـلال ثوانٍ، ويعتقد الجميع أنها انتحرت.

بغتةً، انقلبت على الجانب الأيسر مفتوحة العينين ورأت منصورا واقفًا جنب السـرير ناظرًا إليها، فصدرت منها شهقة خوف لا إرادية وأسرعت بالجلوس. حاولت الصراخ فخرجت الصرخة من حلقها كحشـرجة طائر جريـح. قالت وهي تلهث وكأنهـا كانت تعدو هربًا من ذئب قطع عليها الطريق:

- ماذا تعمل هنا؟ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

في سرعة النعامة، غادر منصور الغرفة وأقفل بابها وهبط السلم، وبعد ثوانٍ كان ممددًا جنب فاتن في سريرهما، دون أن يشعر أي فرد في البيت بأي شيء.

تمتمت سهير قائلة ودمها يغلي:

- لا أحد يريد أن يصدقني. هذا الرجل لا يمكن أن يكون خالدا.

أسرعت إلى غرفة أبيها وأخذت تطرق بابها في رعب، واقتحمت الغرفة صائحة:

- بابا.. بابا!

انتزع الصراخ وطرْق الباب الأبَ من أحلامه وكوابيسه ووجد نفسه واقفًا في منتصف الغرفة وسهير أمامه تلهث في رعب قاتل فاحتضنها وأخذ يربت على ظهرها قائلًا:

- ما بكِ؟ ما بكِ يا سهير؟ ما بكِ يا حبيبتي؟

قالت والدموع تغْسِل خديها:

- أنا خائفة يا بابا!

أجلسها على سريره وجلس جنبها مطوقًا كتفيها بذراعه وقال:

- ماذا حدث؟

نظرت إلى أبيها بعينين باكيتين وقالت:

- لا أحد يريد أن يصدقني.

- ما بكِ يا حبيبتي؟ هل سمعتِ شيئًا؟

- ورأيت أشياء..

- ماذا رأيتِ؟

- رأيت المسمَّى خالد، في غرفتي.

ربت على ظهرها قائلًا:

- لا بد أنه حُلم.

قالت بإصرار:

- لا، لم يكن حلمًا!

سحب الأب ذراعه من حول كتفي سهير برفق، شاعرًا بحزن يائس وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، سأتصل بالدكتور في الصباح.

قالت متوسِّلة:

- صدِّقني يا بابا، الرجل الذي معنا في البيت ليس خالد. هذا الرجل يريد أن يقتلني.

انفجرت تبكي قائلة:

- خالد لم يكن كذلك أبدًا.

اقتحمت الغرفة بدرية قائلة بفزع ولوعة صادقة ولهفة:

- ما بها يا سيدي؟ ما بها سهير؟ لماذا تبكي؟

نَهر الأبُ بدرية قائلًا:

- روحي نامي أنتِ يا بدرية، لا شأن لكِ بهذا.

قالت بدرية وهي متجهة نحو باب الغرفة:

- رب اشفِها وفك عنها، رب تُبْ عليها..

أخذت تردد هذه الكلمات، ثم تحولت إلى تمتمة غير واضحة الكلمات.. قال الأب:

- ماذا رأيتِ يا سهير بالضبط؟

قصَّتْ سهير على أبيها تفاصيل ما حدث، وختمت حديثها قائلة وهي تبكي:

- من المستحيل أن يكون هذا خالدا يا بابا، خالد كان... كان يعطف عليَّ. لا بُدَّ أن ما سمعته أيضًا في تلك الليلة في الحديقة لم يكن وهمًا، بل حقيقة! صدِّقوني.

قال الأب وهو يربت على ظهرها:

- لا تحزني يا حبيبتي، لكل شيء آخر، لكل شيء نهاية. لاحظْتُ أن مثل هذه الأوهام تهاجمك عندما تحزنين، فما الذي أحزنك يا ترى؟

- يا بابا صدقني، ما سمعته ورأيته فيما يتعلق بهذا الرجل حقيقة، لا يمكن أن يكون كل هذا وهمًا وخيالًا

بلغ بها اليأس والإحباط الذروة، فغمغَمتْ:

- لا أحـد يريـد أن يصدقنـي.. ألا يوجد إنسـان واحد أشـكو له همِّي ويصدقني؟

طفـرت من عينيها دموع غزيرة. في هذه اللحظة سَـمِعتْ صوت القطار يبدأ السير ثم يطلق صفارة.

قالت بدهشة:

- شيء عجيب، ما الذي جعلني أسمع الآن صوت القطار؟!

- لا تجزعي يا ابنتي، لن يطول المرض.

صاحت قائلة بغضب يائس:

- أنا لست مريضة يا بابا!

قال الأب بنبرة لا تخلو من سخرية:

- ألـم تقولي إن صـوت القطار قد عاد إلـى أذنيك؟ وهل توجد هنا قطارات؟

اختلطت في ذهنها الأمور، وبدت كمن أصيب بغتة بعمى الألوان ففقد القدرة على الرؤية الحقيقية للأشياء وغمغمت قائلة:

- أجـل، سـمعتُ صـوت القطار! لـم أسـمعه منذ مـدة طويلة، ولست أدري لماذا سمعته الآن!

وتهدَّج صوتُها عندما أردفت قائلة:

- يبدو أنني سأظل مريضة طَوال حياتي!

احتضنها الأب وأسند رأسها على كتفه وأخذ يملِّس على شعرها قائلًا:

- مـا عليـك، الدكتـور قال إن هـذا المـرض يحتـاج إلى بعض الوقت. اصبري يا ابنتي، اصبري.

قالت بصوت مجروح:

- ها أنَا ذي صابرة.

* * *

ظـل منصور مطروحًا فوق الفراش في غرفتـه بعد مغادرته غرفة سـهير ولـم ينَم حتى الصباح، تدور في رأسـه أفكار خائفة ومخيفة، ترقـد بجواره فاتن مسـتلقية على ظهرها مستسـلمة للنوم، لا تدري شـيئًا عمَّـا حدث، وقد انحسـر الغطاء عن صدرهـا وفخذها فتركها منصور بلا غطاء، شـاغلًا كل ذهنه بالتفكيـر في لحظة لقائه بالأب. لقد وصلتْ إلى مسـامعه بضع كلمات متناثرة من حديث سـهير مع أبيها.

تـرى هـل يصدقها؟ مـن المستحسـن أن أتلكأ فـي الخروج من الغرفة حتى يخرج إلى عمله وألملم نفسي لأتمكن من إقناعه بأن ما رأتـه لا بد أن يكون من أعـراض المرض.. ما العمل لو صدقها ولم يصدقني؟

أعتقد أنه سيصدقني أنا؛ فالظروف مهيَّأة لذلك.

***

نظر الأب إلى ساعته فأدركت سهير أن موعد ذهابه إلى عمله قد حان، فقامت وذهبت إلى غرفتها وقام الأب ليرتدي ملابس الخروج بعد أن طبع على جبين سهير قبلة وربت على ظهرها قائلًا:

- لا تفكري في هذا الموضوع، سأتصل بالدكتور ليراك اليوم.

هرول هابطًا السـلَّم. لم يجد أحدًا في البهو أو في غرفة المائدة، وكالعـادة وجـد الخـدم قد أعـدوا فطـوره بالمواصفـات المعروفة لديهم، ولمَّا شـعرت بدرية بوجوده أسـرعت بإحضار إبريق الشاي ووضعتـه أمامه؛ فهو يحـب أن تكون درجة حرارة الشـاي قريبة من درجة الغليان. كان قد انتهى من تناول الطعام دون أن يشعر بطعمه؛ فلقد ظل فكره مشغولًا بسهير التي لم تغِب عن باله. سمعت خواطر صوت جرس الباب فأسرعت بفتحه، وجدته اللبَّان. أخذت زجاجة اللبن وأغلقت الباب. عندما سـمع منصور صوت إغلاق الباب ظنَّ

أن الأب خرج، فتسلل من الغرفة وإذا بهِ وجهًا لوجه أمام الأب وهو يستعد للخروج.

- صباح الخير يا عمي.

رد الأب بصوت خافت حزين:

- صباح الخير يا خالد.

- كيف حال سهير؟ فاتن تقول إنها لم تكن على ما يرام ليلة أمس.

قال الأب وهو مطرق إلى الأرض مكتئب دون أن ينظر لمنصور:

- يبدو أن مرضها اشتدت وطأته يا خالد. لقد صحت من نومها ليلة أمس وطرقت باب غرفتي وقالت لي بفزع شديد إنها خائفة.

قال منصور وقد أسرعت دقات قلبه:

- لماذا؟ ماذا حدث في هذه المرَّة أيضًا؟

- عادت إليها الهلاوس، ولكنها في هذه المرة أشد من أية مرة سابقة؛ إذ لم تقتصر على سماع الصوت، بل رأت أيضًا أشياء.

قال منصور مستعدًّا هو أيضًا لسماع أشياء غير مريحة، متجنبًا الاستفسار عن الأشياء التي رأتها:

- شيء غريب، أبدأَتْ ترى أشياء لا وجود لها؟

- أجـل، كان الدكتـور قد ذكر لي منذ مـدة أن المرض قد يتطوَّر وتبدأ ترى أيضًا أشياء.

- وماذا رأت ليلة أمس يا ترى؟

- رأتك يا خالد.. لسـت أدري لماذا تركَّزت هلوستها عليك في الفترة الأخيرة. في المرة السابقة تقول إنها سمعتك، وفي هذه المرة رأتك.

ضحك الأب ضحكة حزينة وأردف قائلًا:

- لست أدري ماذا تقول في المرة المقبلة.

قـال منصور بنبرة حاول بـذل كل ما قد يكون لديه من قدرة على التمثيل لتبدو طبيعية:

- غريبة.. أرأتني أنا؟

وأردف كاذبًا:

- أنا لم أغادر حضن فاتن طَوال الليل.

أسرع الأب إلى سيارته فاستقلّها متجهًا نحو مقر عمله.

* * *

عندمـا عاد منصور إلى غرفته ليرتدي ملابسـه الرسـمية لم يجد فاتن، فلقد استدعتها سهير إلى غرفتها لتقصَّ عليها ما رأته.

* * *

قالت سهير وقد بدت مرهقة:

- صدِّقيني يا فاتن، رأيتُه في غرفتي ناظرًا إليَّ عابسًا مكفهرًّا كأنه ينوي قتلي.

قالت فاتن غاضبة:

- ألن ترحمينا من تهيؤاتك هذه يا سهير؟ مرَّة تقولين إنك سمعتِه يتحدث مع شخص غريب في الجنينة قائلًا: إن خالد محبوس في مكان ما، والذي تزوجته شخص آخر، والآن تقولين إنك رأيتِه في غرفتك بعد منتصف الليل.. أشياء غريبة مرعبة لا يصدقها العقل. ما حكايتك؟ هل تهدفين لتدمير حياتنا؟ لا بد أن تعلمي يا سهير أنك مريضة. الدكتور منير لا يحضر هنا ليتسلَّى، بل ليعالجك، وأرجوك من الآن فصاعدًا لو سمعْتِ أو رأيت شيئًا، لا تخبري أحدًا. لا أحب أن يسمع خالد كل آن وآخر مثل هذا الهذيان حتى لا يشعر أنه يعيش في مستشفى المجانين.

تمنَّت سهير لو تموت في هذه اللحظة، وأطرقت إلى الأرض قائلة بصوت واهن:

- لا تغضبي يا فاتن، لن أضايقكم مرة أخرى.

* * *

في مساء الليلة التالية، كان منصور مع عليوة ومدبولي في الغرفة التي اعتادوا الاجتماع فيها في المكان البعيد المحبوس فيه خالد. أخذ عليوة نَفَسًا طويلًا من الجوزة التي تدور عليهم وقال:

- لم تخبرنا يا منصور، ماذا تم في مشروع سهير؟

أخذ منصور الجوزة من عليوة وقال:

- الخطة لم تنجح في هذه المرّة، وجارٍ تعديلها.

قال مدبولي:

- هل رأتك؟

- أجل، رأتني، ولكن البرَكة في مرض الهلوسة، لا أحد يصدقها، يعتقدون أن كل ما تقوله هلوسة في هلوسة، إنها نعمة من الله وبَرَكة.

ضحك عليوة وقال:

- ربنا يديمها نعمة، ربك معدّلها.

قال مدبولي:

- نعم، ولكن إلى متى سيظل ربنا معدّلها؟

قال منصور:

- ربك يستر.

قال مدبولي:

- وماذا قال أبوها؟

قال منصور:

- سيُحضر لها الدكتور يعالجها.

وضحك الثلاثة معًا.

20

وصل الأستاذ راتب بصحبة سهير إلى عيادة الطبيب في السادسة مساء، وبعد انتظار نحو عشر دقائق في غرفة الصالون استدعى الطبيب سهير فدخلت غرفة الكشف وبقي الأب في الصالون، كالعادة. بعد نحو ساعة خرجت سهير وقالت للأب إن الطبيب يريد التحدث معه.

- يا أستاذ راتب، سهير يلزمها بعض العلاج بالكهرباء، وسأعطيها بنفسي بعض الحقن وأكتب لها بعض المقويات للأعصاب؛ فلقد لاحظت اليوم أنها شديدة الاضطراب، والأشياء التي تسمعها وتراها، وعلى الأخص ما يتعلق منها بخالد، بدأت تعتقد أنها حقيقية لا أوهام، وهذه نكسة سيئة.

قال الأب شاعرًا بيأس مرير:

- كنت أعتقد أن المرض في طريقه للزوال، فإذا به يزداد ضراوة.

- هذا صحيح بكل أسف. يُخيَّل إليَّ وجود عوامل محيطة بسهير تساعد على بقاء المرض وتعوق الشفاء.

- مـا يزعجني أنها بدأت ترى أشـياء لا وجـود لها، كخالد الذي رأته في غرفتها.

- ليست هذه أول مرة ترى أشياء وهمية.

- أجل، تذكرت، سبق أن رأت أشياء أخرى.

قال الطبيب بعد فترة تردد قصيرة:

- علـى أيـة حال، ما زلت معتقـدًا أن علاج سـهير من المحتمل أن يكون أسـهل بكثير لو ابتعدت بقدر الإمكان عن خالد. أنا مدرك أن هذا سـيؤلمك، ولكن أليس من الممكن القيام بهذه التضحية من أجل سهير؟

قال الأب وقد لمعت الدموع في عينيه:

- حاضر يا دكتور، أبحث عن فيلا أو شقة لفاتن وخالد وأبعدهما عن هنا إذا كان هذا يريح سهير ويشفيها.

- لو فعلْتَ ذلك، وبأسـرع ما يمكـن، تكون أعظم خدمة قدّمتها لسهير، في هذه الحالة قد يكون علاجها أسهل وأسرع.

***

بعـد أيام قلائل كان الأب في غرفة مكتبه وفاتن جالسـة في ركن من أركان البهو تطالع كتابًا لتخفيف حدَّة الملل الذي تشعر به عندما يطـول انتظارهـا لعودة منصور في المسـاء، وأخيرًا سـمعت صوت

حركـة المفتاح فـي ثقب الباب فوضعـت الكتاب جنبها واشـرأبَّتْ بِعُنُقِها نحو الباب فدخل منصور وأغلق الباب. بادرته قائلة:

- بابا منتظرك في المكتب منذ مدَّة طويلة.

شعر بقلق وهو متجه نحو الغرفة، وأصبحت رجلاه غير قادرتين علـى حملـه وحِفـظ توازنـه بسـهولة. فاجـأه الأب بما لـم يكن في حسبانه:

- الدكتور نصح بضرورة ابتعادكما عن سـهير، أنت وفاتن، فترة من الوقت.

لماذا يقول هذا الكلام؟ هل بدأ يصدق ما تقوله سهير؟ هل أدرك الطبيـبُ الحقيقـة، أو على الأقل بدأ يسـاوره الشـك؟ إذا كان الأمر كذلك فلقد اقتربت نهايتي!

- نبتعـد عن سـهير؟ لا أفهم معنـى لذلك، ماذا يَقصُـد بالابتعاد عنها؟

- يَقصُـد أن تتـركا هـذا البيت وتعيشـا معًا في مسـكن بعيد عن هنا.

هـذا الكلام فيه اتهام صريـح. إذا كان الأمر كذلك تكون كارثة! ترى هل بدأت أعيش في كابوس؟

- وما علاقة هذا بمرض سهير؟

- يبدو أن الطبيب لاحظ وجود علاقة بين مرضها ووجودكما معها هنا في البيت نفسه.

رُحت في داهية!

- هل قال الدكتور ذلك؟ وما هذه العلاقة؟

- أجل، نَصَح بذلك، يقول: إن علاج سهير يكون أسهل وأسرع لو بقيت وحدها معي.. ما رأيك في هذا الموضوع؟

قال منصور بصوت مرتجف:

- افعل ما تراه يا عمي، ولكن هل عرفْتَ رأي فاتن؟

- أنا أعرف رأي فاتن؛ فلقد سبق أن لمَّحتْ لي برغبتها في ذلك.

- ألا يجوز أن تكون قد غيَّرتْ رأيها؟

- لا أظن، على أية حال أسألها.

وصاح مناديًا فأقبلت فاتن مهرولة.

- ألديْكِ مانع يا فاتن من الإقامة أنتِ وخالد في مسكن مستقل بعيدٍ عن هنا؟

قالت فاتن على الفور:

- لا يا بابا، لا مانع لديَّ.

وحانت التفاتة نحو منصور ففوجئتْ بالكآبة التي تكسـو وجهه، فقالت:

- ولكن يبدو أن خالد غير مرحِّب بالفكرة.

قال منصور وملامح وجهه جامدة لا تدل على أي مشاعر:

- لا أرحِّب، ولكن لا مانع لديَّ، إذا كان في هذا شـفاء لسـهير. ولكـن المسـألة تحتاج لاسـتعداد. يلزمنا بعض الوقت لاسـتكمال الأثاث الذي يَفرش شقة جديدة بأكملها.

- لا تشـغل بالك بذلـك، رأيت اليوم فيلا جميلـة جدًّا على قمة عمارة في سـان سـتيفانو جمعـت بين مزايـا الفيـلات والعمارات، سأفرشها لكم وأزوِّدها بكل ما يلزم.

ظهـرت الفرحـة واضحة فـي وجه فاتـن، في حين قـال منصور بلا حماس:

- متشكرون يا عمِّي، هذا كرم عظيم منك.

- لا كـرم ولا غيره يا ابني، فسـتعود إليكم جميع أموالي في يوم من الأيام.

قال منصور والخوف ما زال مسيطرًا على تفكيره:

- لا أظـن أن فـي الإمـكان الانتقـال إلـى الفيـلا الجديـدة قبـل أسبوعين على الأقل.

قال الأب بلا اكتراث:

- يُخيَّل إليَّ ذلك.

قالت فاتن:

- تمنيتُ هذا منذ البداية.

قال الأب بنبرة عتاب:

- أهكذا يا فاتن كنتِ تتمنين البعد عني وأنا الذي لم أكن أحتمل فراقك؟ هيه، هكذا الدنيا، الأب يظل طوال حياته ملهوفًا على أولاده، وعندما يكبرون لا يفكرون إلا في أنفسهم.

تداركت فاتن زلَّة اللسان التي جرحت مشاعر والدها قائلة:

- لا يا بابا، ما هذا الكلام؟ الأولاد مهما ابتعدوا عن والديهم لا يمكن أن ينسوهما أو يخمد حبهما. من لا يفكر في أبويه شخص مجرم..

كان منصور في أثناء حديث فاتن قد بدأ يسرح شاردًا في متاهات رهيبة مروِّعة، ولكن آخر كلمة قالتها، وهي كلمة «مجرم»، لسعته كجمرة نار ازداد تأجُّجها عندما رأى سهير التي دخلت الغرفة متسلِّلة في صمت وجلست في ركن من أركانها. نظر إليها منصور وقال:

- أمـا زِلْتِ سـاهرة يا سـهير؟ ظننتُك نائمة. ما الـذي أنزلك من غرفتك الآن؟

قالت دون أن تنظر إليه وهي تحرك أصابعها حركات عصبية:

- أنا متضايقة.

أسرع الأب بسؤالها:

- ماذا يضايقك يا سهير؟

قالت وعيناها تدوران في أنحاء الغرفة ثم تستقران عند النافذة:

- لست أدري لماذا أخاف من الليل في هذه الأيام.

قال منصور:

- ولماذا تخافين من الليل؟ الليل جميل فيه هدوء وراحة.

نظر الأب إلى ساعته قائلًا:

- كم الساعة الآن؟

وردَّ على نفسه:

- يـا، الحاديـة عشـرة والنصف، هيا نـنـام جميعًـا، تعالَي معي يا سهير، تعالي معي يا حبيبتي. لا شيء يخيف في البيت.

***

أغلقت بدرية النافذة إغلاقًا محكمًا، كما أغلقت الباب المفتوح، ونظرت إلى سهير فوجدت وجهها وكأنه خلا من الدم، فانتابها قلق شديد عليها وسألتها بلهفة:

- ما بكِ يا سيدتي؟ أخائفة من شيء؟

- لست أدري. خوفي شديد في هذه الليلة يا بدرية، يُخيَّل إليَّ أن شيئًا سيحدث.

- لا تخافي من أي شيء يا سيدتي، نامي يا حبيبتي وسأظل معك في الغرفة طَوال الليل.

وضعت سهير رأسها على الوسادة وخشيت أن تغمض عينيها فأبقتهما مفتوحتين. ظلت هكذا حتى الواحدة صباحًا، وبغتة قالت وهي ترجف:

- بدرية، بدرية.

صحت بدرية مرعوبة وهي تقول:

- ما بكِ يا سيدتي؟ ما بكِ يا حبيبتي؟

- رأيت الآن شيئًا غريبًا..

- ماذا رأيتِ؟

- أُكرة الباب رأيتها تتحرك، شخص كان يحاول فتح الباب.

- قد يكون حلمًا.

- أنا لم أنَم لأحلُم.

قالت بدرية بحنان صادق:

- ولماذا لا تنامين يا بنتي؟ نامي واشبعي نومًا.

- لا بد أنه هو، كان يحاول دخول غرفتي الليلة أيضًا.

- من يجرؤ يا سيدتي على دخول غرفتك؟! ربّ اشفِها يا رب.

قالت سهير بصوت يائس:

- لا أحد يريد أن يصدقني. ألا تصدقينني أنتِ أيضًا يا بدرية؟

قالت بدرية وهي تربت على ظهر سهير:

- أصدقكِ، أصدقكِ يا حبيبتي. ربِّ تُب عليها من هذا المرض.

قالت سهير بصوت مرهَق:

- يا بدرية صدِّقيني، ليس كل ما أراه هلاوس. توجد أشياء حقيقية وأشياء وهمية، لكنني رأيته في غرفتي كما أراك الآن.

- من الذي رأيتِه يا سيدتي؟

- خالد. رأيته في الغرفة هنا يتقدم نحوي يريد أن يفتكَ بي، والليلة رأيت الأُكرة تتحرك، وسمعته قبل ذلك يتكلم مع شخص

غريـب في الجنينة، كان يقول كلامًا فظيعًـا مرعبًا، لماذا لا يصدقني أحد؟

- لـو كان شـيئًا معقـولًا لصدَّقـوه. نامي يـا حبيبتي، نامـي، إنها هلاوس، غدًا تشفين وتروق وتَحلُو. لا حول ولا قوة إلا بالله.

***

كان منصور يزداد طمأنينة كلما رأى إصرار أهل البيت على عدم تصديق سـهير حتى أوشـك أن ينسـى الخوف. لم يعد يتجنب رؤية الأب، كان عندمـا يراه هابطًا السلَّم يسـرع بالاختفـاء داخل غرفته، ولكنه في هذا اليوم عندما رأى الأب في الصباح نازلًا ببطء درجات السلَّم انتظره قائلًا:

- صباح الخير يا عمي.

- صباح الخير يا خالد.

- كيف حال سهير الآن؟ هل أخذت كفايتها من النوم؟

- لا يا خالد، بدرية أخبرتني أنها لم تنَم تقريبًا طَوال الليل.

- ولماذا؟ هل رأت ما أرعبها في هذه الليلة أيضًا؟

كان الأب قـد وصل إلى غرفة المائـدة فجلس في المكان المعد لـه وجلـس منصور جنبـه في هـذه المرَّة. قـال الأب وهو يرتشـف الشاي:

- أخبرتني بدرية أن سهير، على حد قولها، رأت أُكرة الباب تتحرك في محاولة لفتحه، بعد منتصف الليل.

قال منصور بسخرية:

- ومن هذا الذي يحرك أُكرة باب غرفتها بعد منتصف الليل؟

- الراسخ في ذهنها أنك أنت الذي كنت تحاول دخول غرفتها.

قال منصور بدهشة أتقن تمثيلها في هذه المرَّة:

- أأنا أدخل غرفتها؟ لا، لم يعد في استطاعتي احتمال كل هذه الإهانات.

قال الأب محاولًا الاعتذار:

- هل غضبت يا خالد؟

في هذه اللحظة دخلت فاتن واتخذت مكانها جنب منصور في صمت. سألَتْ منصور:

- غضبْتَ من ماذا؟

قال ردًّا على الأب:

- لا أبدًا، لم أغضب من شيء. أنا حزين من أجلها.

والتفت نحو فاتن وقال ردًّا على سؤالها بابتسامة كاذبة ونبرة ساخرة:

- سهير في هذه المرة تقول إنني حاولت دخول غرفتها.

التفتت فاتن نحو أبيها وقالت:

- كيف لا يغضب يا بابا؟ من الطبيعي أن يغضب. هل ركَّزَتْ الآن على خالد؟ ألا تصوِّب أوهامها نحو شخص آخر؟

قال الأب بشيء من العنف:

- يا فاتن أختك مريضة، وليس على المريض حرج.

قالت فاتن:

- على أية حال بعد أيام سنترك البيت ونرى من ستهلوس فيه بعد ذلك.

***

كان لقاء منصور وعليوة في اليوم التالي في فندق فاخر يطل على البحر بدعوة على العشاء من منصور، أما عزب فكان يراقب خالد، والصبي زعتر يراقب عزب دون أن يشعر. في أثناء تناول الطعام قال عليوة:

- لم تقُل لنا يا منصور، ما آخر أخبار مشروع سهير؟ أَسبع أم ضبْع؟

قال منصور وهو يحشو فمه بقطعة لحم:

- لا والله، ضبع يا أبو عِلْوَة.

- ولماذا؟

- صعدت إليها بعد منتصف الليل وأَدرْت أُكرة الباب وحاولْت الدخول ولكن الباب كان مقفولًا بالمفتاح. جربت سبعة مفاتيح أخرى فلم تنفع.

وضحك ولكن لم يضحك غيره. فأردف قائلًا:

- على أية حال لا يهم؛ فلقد أعددت لها خطة أخرى لا تخطر على بال الشيطان.

ساد الصمت فترة طويلة انشغلا في أثنائها بالطعام، قَطَعَه عليوة عندما قال:

- ألم ترَ خالدا من مدة طويلة؟

قال منصور:

- نراه معًا هذه الليلة.

* * *

كان خالد نائمًا نومًا عميقًا، يبدو وجهه شـاحبًا، تحيط بكل عين من عينيه هالة زرقاء تدل على طول السـهر والإرهاق الشـديد. كان فمه مفتوحًا فتحة ضيقة، وعلى شفته العليا وقفت ذبابة لا يعلم أحد كيـف اقتحمـت الغرفـة محكمة الإغلاق، هشَّـها منصـور فطارت. وقف عزب، المتولي الآن أمر حراسـة خالد وتغذيته وتلبية طلباته، منتظرًا تعليمات منصور. قال منصور:

- منذ متى نام خالد؟

قال عزب ناظرًا إلى الأرض:

- منذ الأمس.

قال منصور بفزع:

- أخشى أن يكون قد توفي.

قال عزب:

- لا، لم يمُت، ها هو ذا ما زال يتنفس.

- ولماذا طال نومه هكذا؟

قال عزب:

- من التعب.

قال عليوة بسخرية:

- وما الذي يتعبه؟ أكل ومرعى وقلّة صنعة.

قال عزب:

- تعب من الفكر، لا شيء يتعب مثل الفكر. إنه يفكر كثيرًا ويبكي كثيرًا. أمس ظل يبكي ويشد السلسلة محاولًا كسرها.

قال منصور بعنف غاضب:

- أية سلسلة هذه؟

قال عليوة:

- السلسلة التي ربطناه فيها.

قال منصور بدهشة ثائرة:

- ومن طلب منكم ربطه في سلسلة؟

قال عزب:

- ألم تُحمِّلنا مسئولية هربه؟ على أية حال سوف يعتاد على ذلك.

قال منصور بانفعال:

- أين هذه السلسلة؟

كشف عزب الغطاء فظهرت السلسلة في إحدى ساقي خالد

ومغلقة بقفل، والطرف الآخر مثبت في حلقة بأسفل الجدار.

صاح منصور قائلًا:

- ارفعوا هذه السلسلة فورًا، نحن لم نحضره هنا لنعذبه كل هذا العذاب.

أخذ عزب يفك السلسلة ثم كوَّمها في أحد أركان الغرفة. في هذه الأثناء صحا خالد. نظر إلى عزب وهمَّ بالكلام ولكنه عدل عن ذلك وانهمرت دموعه، ثم غمغم قائلًا:

- آه، آه يا رب، تُب عليَّ يا رب من هذا العذاب.

لم يكن خالد حتى الآن قد رأى منصورا الذي كان متواريًا في مكان يقع خارج دائرة الرؤية عند خالد، وبغتة، وجده واقفًا أمامه فشعر برجفة فزع استنفدت قدرًا كبيرًا من طاقته العصبية وقال:

- من؟ منصور؟ أما آن الأوان للإفراج عنِّي؟ أعتقني يا منصور أبوس رجلك.

قال منصور غاضبًا:

- أستغفر الله العظيم، قلت لك: إنني لا أطيق سماع هذه الألفاظ. كيف تبوس رجلي وأنت أخي؟

- وهل يحبس الأخ أخاه بلا ذنب؟

- هذه مسألة أخرى سبق أن شرحت لك وجهة نظري فيها.

- هل ترى فاتن كثيرًا يا منصور؟

- هذا شيء طبيعي، أليست زوجتي؟

وخزته هذه الكلمات حتى أدمت قلبه، فثار قائلًا:

- أنت مجرم، مجرم حقير، لا يمكن أن تكون أخي.

قال منصور بهدوء:

- كيف لا أكون أخًا لك وأنا نصفك؟

فتح خالد فمه وهمَّ أن يقول شيئًا، ولكنه اختنق بالبكاء وانهمرت دموعه.

صاح عليوة قائلًا:

- كفى بكاءً وكن رجلًا، الرجال لا يبكون كالأطفال.

- أتذْكُر يا منصور عندما كنا صغيرين، كنت أبكي عندما تمرض وأدعو الله أن يشفيك، فهل يهون عليك أن تعذبني؟

- هذه هي العدالة يا خالد، فلا تغضب منِّي، ما تحتمله أنت الآن تحملت أنا أضعاف أضعافه قبلك.

تمتم خالد قائلًا:

- ألا يكتشف أحد أنك لستَ أنا؟ ألا ينقذني أحد؟

- سهير تعلم ذلك، ولكنها لن تستطيع إنقاذك.

قال خالد بدهشة:

- أعرفَتْ سهير؟ هذه طاقة نور..

قال منصور:

- ولكنها مُغْلَقَة.

قال خالد بصوت منهار:

- كيف؟

قال عليوة:

- لن يصدقها أحد، فما تقوله شيء لا يصدقه العقل. من يصدقها يكن في رأيهم مجنونًا.

21

كانت ســهير مشغولة بتلقي درس الموسيقى من عصام في غرفة الطعام التي اعتادت تلقِّي دروسها فيها، وأُعفيت خواطر من ملازمة سهير طوال فترة الدرس، فسنحت الفرصة لخواطر لتنظيف وترتيب غرفة سهير التي نادرًا ما تغادرها في هذه الأيام.

صعـدت خواطر الســلَّم متجهة نحو الغرفة تدنـدن كعادتها؛ لذا أطلقت ســهير على ذلك السلَّم اسم «الســلَّم الموسيقي»، وكان لها في كل يوم أغنية تعيدها طوال اليوم ولا تغيِّرها إلا إذا حدثت مناسبة تسـتدعي ذلك. كانت أغنية هذا اليوم هـي «قالوا البياض أحلى ولَّا الســمار أحلـى، قلـت اللي شـاريني جـوا العيـون يحلَـى»... إلخ. وكعادتهـا كانت في أثناء الغناء يهتز نصفها الســفلي اهتزازًا لا إراديًّا وكأنها ترقص. وكان منصور عندما تسْـنح له الفرصة يتســلل ويقف عند أسـفل الســلَّم في أثناء صعود خواطر يتابعهـا بنظره حتى تصل إلى قمة السلم وتختفي عن بصره.

***

دخلت خواطر غرفة سهير وبدأت عملية الترتيب بتغيير ملاءات السرير وانتهت بتنظيف التراب المتراكم خلف الصور التي تزين بها

سهير غرفتها. وعندما رَفَعتْ صورة الموناليزا فوجئت بوجود كيس من البلاستيك معلَّق خلف الصورة من المسمار نفسه المعلَّقة منه الصورة. أعادت وضع الصورة في مكانها وفتحت الكيس وإذا به كتاب ضخم ظنتْهُ المصحف الشريف، فتحته فوجدته مليئًا بالكتابة، صفحات مكتوبة بالحبر وأخرى بالرصاص أو القلم الجاف. ذكَّرتْها الكتابة بالسنوات الثلاث التي قضتها في المدرسة قبل كارثة وفاة أبيها وأختها عندما انفجر فيهما وابور الجاز.

ألا تكون هذه هي المذكرات التي فُقدت من سيدتي فاتن وحزنت لضياعها حزنًا شديدًا؟ سأذهب الآن وأريها لسيدتي سهير لتفرح لو كانت هي المذكرات الضائعة. ولكن لو دخلْت عليها الآن في أثناء الدرس فقد تظن أنني حضرت لمراقبتها. أنتظرها حتى ينتهي الدرس. ولكن لا صبر لديَّ للانتظار، هكذا أنا طوال عمري، صبري سريع النفاد. أم ترى أنزل أبشِّرها الآن لأفرحها؟ فهي مسكينة مثلي لم تفرح في حياتها كثيرًا.

في أثناء هذه الحيرة فُتح باب البيت ودخلت فاتن تحمل بعض المشتريات وسمعت خواطر صوت الباب عندما أغلق فهَرِعت لترى القادم، ولما رأت فاتن أدركت أنها هي التي تفرح بالعثور على المذكرات فهي مذكراتها لا مذكرات سهير. وبينما تهبط خواطر السلَّم وجدت أمامها بدرية التي خرجت من المطبخ لترى

القادم، فقفزت خواطر وحاولت أخذ المشتريات من فاتن لتوصيلها إلـى غرفتهـا، ولكن فاتـن أعطتها لبدريـة، واسـترعى انتباهها كيس المذكـرات الـذي في يـد خواطر فاختطفتـه من يدهـا وفتحته بلهفة فوجـدت مذكراتها التـي كانت قد اختفت. ظلـت بدرية واقفة تتابع المشهد. قالت فاتن لخواطر بدهشة تكسوها الفرحة:

- أين وجدتِ هذا؟

- تحت صورة في غرفة سيدتي سهير.

ولمست خواطر بإصبعها الخيط قائلة:

- كانت معلقة بهذا الخيط.

- إنها مذكراتي التي سُرقت. أنا قلت إن سهير هي التي أخذتها، قلبي كان شاعرًا بذلك. لي معها كلام بعد خروج مدرس الموسيقى وأرى خلقتها، سأخسف بها الأرض، إنها...

قاطعتها بدرية قائلة بحسم عنيف:

- لا، لا يـا سـيدتي، إنهـا بُنَيَّة مسـكينة وحزينـة ومريضة. خذي الدفتـر عندك ولا تذكري لسـهير أي شـيء عنه، مـا عندها من حزن يكفيها، حرام عليكم.

قالت فاتن بسخرية:

- حاضـر يا سـت بدرية. سـأنصاع لأوامـرك ونرى مـاذا تكون النتيجـة. على أية حال، سـنترك لها البيت بما فيه ونسـتريح من هذا النكد.

قالت بدرية:

- ستوحشـوننا أنـتِ وسـي خالـد. كنتما تنيـران البيـت، ليتكما تأخذانني معكما.

- وهل تستطيع خواطر القيام بشغل البيت وحدها؟

كانـت خواطـر صامتة ومطرقـة إلى الأرض طوال هـذا الحوار، التفتت نحوها فاتن وسألتها:

- ما رأيك يا خواطر؟ هل في استطاعتك البقاء بمفردك لو أخذنا بدرية؟

قالت خواطر متوسِّلة:

- أبـوس يديك ورجليك، خذيها معـك وأريحيني منها، أما من جهة الشـغل فأنا قادرة على القيام به وزيـادة، أطبخ وأنظف وأكنس وكل شـيء. وهل تعمل هي شيئًا الآن؟ لا تعمل سوى العراك معي، أنا القائمة بالشغل كله.

قالت بدرية بوجه عبوس يخفي تحته طيبة:

- بل أنا التي سأرتاح من رؤية وجهك.

قفـزت خواطر ووقفت جنـب بدرية في مواجهة المـرآة الكبيرة التي في البهو وقالت:

- انظـري واحكمـي يا سـيدتي، أي الوجهين أحلـى: وجهي أم وجهها؟

نظـرت فاتن إلى وجهيهمـا بحركة لا إرادية فـرأت وجه خواطر ناصـع البياض وعينيهـا الخضراوين، وجه يصلـح لأن يكون لأحد كواكـب السـينما، ووجـه بدرية الـذي اغتاله مرور الزمـن ولكنه لم يستطِع السطو على بريق الحنان الذي يشع من عينيها، ثم قالت:

- كفى كلامًا فارغًا أنتِ وهي.

ثم أردفت قائلة، وكان كلامها قرارًا حاسمًا لا يقبل الطعن فيه:

- سنأخذ معنا بدرية لنريح كلًّا منكما من الأخرى.

ثم قالت بعد فترة صمت قصيرة:

- سأذهب لأضع المذكرات في صِواني وأقفله بالمفتاح، وأرجو من الله ألَّا تسرق مرَّة أخرى.

* * *

انتهى درس الموسـيقى وغادر عصام البيت وصعدت سهير إلى غرفتهـا. انبطحت على ظهرها فوق السـرير لتريـح العمود الفقري، وما كادت تفعل ذلك حتى سمعت فاتن تصرخ قائلة:

- يا بدرية، يا خواطر، تعاليا بسرعة!

أسرعتا إلى فاتن التي بدت عابسة شاحبة الوجه، وخرجت سهير من غرفتها تستطلع الأمر ووقفت عند قمة السلَّم في وضع يسمح لها برؤيتهن في البهو.

قالت بدرية بلهفة:

- ماذا حدث يا سيدتي؟

التزمت خواطر الصمت وخشيت أن يكون حديث فاتن عن المذكرات، ولكنها لم تتحدث عن المذكرات، بل قالت:

- كارثة، هيا معي.

دخلن غرفة نوم فاتن وكان الصوان ما زال مفتوحًا. أشارت فاتن نحو أحد الرفوف قائلة وعيناها تتبادلان النظر إلى خواطر وبدرية:

- كانت هنا علبة صفيح فتشتُ فلم أجدها.. أين ذهبتْ؟

نظرت كل منهما إلى الأخرى بدهشة، وقالت بدرية وهي ناظرة إلى خواطر:

- لم أرَ علبًا، أنا لا أفتح أي صوان.

قالت خواطر:

- ولا أنا.. أعدم نظري وعافيتي لو كنت رأيت شيئًا كهذا.

شـعرتْ سهير أن شـيئًا خطيرًا قد حدث، فهبطت السلَّم وأطلَّتْ من باب غرفة فاتن. قالت فاتن:

- تعالي يا سهير، ادخلي.

دخلت سـهير، وطلبت فاتن من بدرية وخواطر أن تغادرا الغرفة فخرجتا.

قالت سهير بدهشة:

- ماذا حدث؟

فاجأتها فاتن بقولها:

- ألم تري العلبة الصفيح الصفراء التي كانت هنا؟

قالت سهير بسخرية:

- علبة صفيح؟! ولماذا توجهين إليَّ هذا السؤال؟

- لأنني لم أجدها.

- وما علاقتي أنا بالموضوع؟

- أحاول معرفة الذي أخذها.

- وماذا أفعل بعلبة صفيح؟

- فـي هـذه العلبـة ألفان مـن الجنيهات، هديـة من بابا بمناسـبة زواجي.

قالت سهير بدهشة:

- ألفا جنيه؟!

- من تظنينه أخذها؟

- وكيف أعرف؟

- أمتأكدة يا سهير أنك لا تعرفين؟

قالت سهير وقد شعرت بضغط الدم في رأسها:

- لا أعتقد أنك تسمحين لنفسك بتوجيه هذا الاتهام إليَّ. هل تتهمينني بذلك؟

- لست أدري. من أخذها أدرى بنفسه. على فكرة، مذكراتي التي كانت مختفية عثرنا عليها.

قالت سهير بلهفة:

- أين وجدتِها؟

- في غرْفتك يا سهير.

قالت غير مصدقة:

- أفي غرفتي أنا؟ غير معقول.

- في هذا الزمن، الأشياء غير المعقولة أصبحت معقولة.

- إنني حتى هذه اللحظة لم أرَ هذه المذكرات.

- أحقيقة؟ ومن إذًا الذي وضعها في الكيس وعلَّقها خلف صورة الموناليزا؟ على أية حال أحمد ربنا إذ عثرنا عليها.

- ومن الذي دخل غرفتي وأخرجها من خلف الصورة؟

- خواطر، في أثناء تنظيف الغرفة.

حاولت سهير بأقصى طاقتها أن تبدو هادئة، قالت وقد احتقن وجهها بالدم:

- وحياة رأس بابا ورحمة ماما، التي لم يقدَّر لي أن أراها، ما رأيت مذكراتك هذه ولا أعرف من الذي أخذها، ولا أتصور أنها تهم أي شخص سواك، ولك أن تصدقيني أو لا تصدقيني.

واستدارت لتصعد السلَّم مطرقة إلى الأرض وقد طفرت دموعها من عينيها. شعرت بدوار خفيف فأمسكت بالدرابزين وواصلت الصعود، ثم دخلت غرفتها وأغلقتها واستلقت على الفراش وأخذت تجفف دموعها.

جلست فاتن في البهو في انتظار منصور للذهاب معًا إلى السينما وبدأت تشعر بشيء من القلق؛ فلقد اقترب موعد العرض وهي لا تحب دخول السينما في الظلام بل تحرص على رؤية البرنامج كاملًا، ابتداء من العرض القادم ومرورًا بالصور المتحركة حتى نهاية الفيلم، ولو أنها في هذه الليلة بالذات لن تشعر بأية لذة؛

وذلـك لضياع الألفي جنيـه، ويخفف من وطأة القلق شـعاع خافت مـن الأمل يومـض أحيانًا فـي ذهنها عندمـا تتصور أنهـا كما عثرت على المذكرات قد تعثر على الصندوق الأصفر بما فيه، ولكن ظلام اليأس يتكاثف مرة أخرى عندما تدرك أن ظهور النقود بعد اختفائها أصعـب من رجوع المذكرات؛ فالمذكرات في العادة لا تهم سـوى صاحبها، أما النقود، فيكاد يعبدها جميع البشر.

دق جـرس الباب فهَرِعـتْ فاتن لفتحه، ودخـل منصور معتذرًا، كالعادة، عن تأخيره ولم يذكر سـبب التأخير، وفاتن تعشـق الأخبار المثيرة، المفرح منها والمفزع على السواء؛ لذا فلقد فاجأت منصور فور دخوله قبل جلوسهما قائلة:

- تعالَ يا خالد، اسمع العجائب والغرائب.

قال منصور وهو يجلس على أحد كراسي البهو:

- خيرًا، ماذا حدث؟

جلستْ على الكرسي المقابل له قائلة:

- أولًا: الألفا جنيه هدية زواجي سُرقت.

قال منصور:

- غير معقول.

ثم أردف قائلًا:

- على أية حال، لا تحزني، البَرَكة في بابا.

ثم نظر إليها مبتسمًا وقال:

- هذه أولى العجائب، فما العجيبة الثانية؟

- مذكراتي التي كانت مفقودة، وجدناها.

- مبـروك! هذه المذكرات في رأيي أثمن مـن آلاف الجنيهات، وأين وجدتِها؟

- وجدتْها خواطر في غرفة سهير في أثناء تنظيفها.

قال بدهشة مفتعلة:

- أفي غرفة سهير؟!

ثم أردف قائلًا بسخرية:

- ومن الذي ألقى بها في غرفة سهير؟ أليس هذا شيئًا غريبًا؟

- ألـم أقُـل لك إنها غرائب وعجائـب؟ الأعجب من كل هذا أن النقود رأيتُها أمس في مكانها قبل نومي.

قال منصور وقد بدا شارد الذهن:

- شيء يحيِّر.

كانت سـهير واقفة منذ لحظات عند قمة السلَّم في وضع يمكِّنها من سـماعهما ولا يسمح لهما برؤيتها، وسـمعت الجزء الأخير من الحوار فقالت:

- ولمـاذا لا نتـرك الأمـر للبوليـس، فربمـا يكون أقـدر منّا على معرفة السارق؟

انخلـع قلب منصور عند سـماعه اقتـراح سـهير والتفت نحوها قائلًا:

- أأنتِ هنا يا سهير؟ مساء الخير.

تجاهلت تحيته وسارت نحو غرفتها، في حين قال منصور لفاتن متهكّمًا:

- هل ألغيْتِ الذهاب إلى السينما الليلة حدادًا على ضياع الألفي جنيه؟

انتفضت فاتن واقفة وقالت:

- هيا بنا لنرى البرنامج من أوله.

وانطلقت بهما السيارة إلى دار السينما.

* * *

في مسـاء اليـوم التالي وفي ركـن منعزل مـن أركان كازينو على شاطئ البحر، قال عليوة لمنصور:

- أنت جبار، أهكذا وبكل بساطة «تلطش» الأَلْفَي جنيه؟

- أسـرعتُ بذلك يا أبو عِلْـوَة قبل انتقالنا إلى المسـكن الجديد لتكون سـهير معنا؛ فمن السـهل الآن اتهامها بسـرقة الفلوس، ولقد

مهّدت لذلك بوضع مفكرة فاتن خلف الصورة التي في غرفة سهير، أولًا: لتثبت عليها تهمة سرقتها، ومن يسرق المفكرة يسرق الفلوس، وثانيًا: سئمتُ قراءة المفكرة في السر، أستطيع الآن مذاكرة ما فيها علنًا.

حدَّق عليوة في عيني منصور لحظة ثم قال:

- أنت شيطان يا منصور، الإنسان يخاف منك، بل قد يخاف منك الشيطان نفسه.

ضحك منصور وقال:

- سأثبت لك الآن أنني ملاك.

قال عليوة بسخرية:

- كيف؟

- الفلوس ستوزَّع علينا نحن الأربعة بالتساوي، خمسمائة جنيه لكل واحد، ما رأيك؟ أما زلتُ شيطانًا؟

- هكذا تعجبني.

وضحك ضحكة عالية تليها عدة ضحكات متدرجة الانخفاض كتوابع الزلزال، ثم قال:

- أتقول إنك وفاتن ستتركان لهم البيت؟ متى؟

- قريبًا، بعد أيام. سنسكن وحدنا في فيلا فوق عمارة في سان ستيفانو.

- حلال عليك يا عم، إذًا فلقد أفلتَتْ منك سهير ونجت بعمرها.

- لا، لا تخَف، أنا لها بالمرصاد حتى أخلص منها؛ فهي الخطر الذي يهددني. حقيقة لم يصدقها أحد حتى الآن، ولكن من يدري؟ هذا شيء غير مضمون. على أية حال لقد دبَّرتُ لها خطة جهنمية. سأجعلها تنهي هي حياتها بنفسها دون أن يبدو لي أي دخل في الموضوع.

***

كانت فاتن لا تنوي إخطار والدها بسرقة النقود حتى لا تكدِّره؛ فهي تدرك جيدًا أن حزنه على أي مبلغ يَفقِده أضخم بكثير من حجم المال المفقود، فضلًا عن ذلك، فهذه النقود هدية بمناسبة زواج ابنته، وقد يتشاءم من فقدها، فالأب على الرغم من ثقافته الواسعة المتنوعة سريع التطيُّر، صوت بومة يسمعه ليلًا قد يثنيه عن سفر ينويه في الصباح مهما كانت أهمية ذلك السفر، على الرغم من أن البومة لا تؤذي أي إنسان ومن أجمل الطيور منظرًا.

***

كان الأب جالسًا إلى مكتبه بالمنزل مشغولًا بحوار تليفوني مع أحد أصحاب القضايا وفاتن جالسة على الكنبة بالقرب منه. انتهت المكالمة ووضع السماعة وبدأ يكتب مسودة مذكرة.

ولكن عدم إحاطة علم والدي بسرقة مبلغ كهذا لا يليق، فَرَبُّ البيت ينبغي أن يكون على علم بكل ما يدور في البيت وما يحدث لأي فرد من أفراده. أنا حيرى، لست أدري هل أخبره أم ألزم الصمت! وإذا صمتُّ أنا فهل أضمن أن تصمت سهير؟

***

قال الأب لفاتن شاعرًا بحزن ثقيل:

- كيف تضيع النقود بهذا الشكل داخل البيت؟ من تتهمين؟

ظلت فاتن مطرقة إلى الأرض فترة ثم رفعت رأسها قائلة:

- لست أدري.

- ما رأيك في خواطر؟

قالت فاتن بحسم:

- خواطر لا يمكن أن تفعل ذلك.

دخلت سهير قائلة:

- أتعرف من الذي سرقها يا بابا؟

قال الأب بلهفة:

- من يا سهير؟

- يُخيَّل إليّ أنه اللص نفسه الذي سرق بدلة خالد في الليلة التي أمضاها عندنا عندما كنتَ مسافرًا.

قال الأب بعد لحظة تفكير:

- لا أستبعد ذلك.

ثم نظر إلى فاتن وقال:

- على أية حال لا تحزني يا فاتن.

قالت فاتن وقد بدت ملامحها حزينة وفي عينيها دموع:

- كيف لا أحزن على مبلغ كبير كهذا؟

قال الأب مبتسمًا:

- سأرده لكِ كاملًا.

مدَّ يده وأخرج من الجيب الداخلي لسترته مبلغ ألفي جنيه سلمه لفاتن قائلًا:

- احرصي على نقودك في هذه المرَّة.

قامت فاتن وقبَّلت والدها قائلة:

- أشكرك يا بابا، أطال الله عمرك.

وغـادرت الغرفة، ولما حاولت سـهير الخروج متسـللة دون أن يشعر بها أحد سألها والدها:

- إلى أين يا سهير؟

- إلى غرفتي.

- تعالي، انتظري.

فتح أحد أدراج المكتب وأخرج ألفي جنيه سلمها لسهير قائلًا:

- وأنتِ يا سـهير، خذي هذا المبلغ هدية منِّي كما أعطيت فاتن، وحافظي عليه.

بكت سهير وهي تمد يدها لتأخذه.

22

تم انتقال فاتن ومنصور إلى المسكن الجديد، وهو فيلا رائعة من طابقين يوصلهما ببعضهما سلَّم داخلي أنيق من الخشب الثمين، ويتكون البيت من خمس غرف: ثلاث في الدور السفلي وغرفتان في الدور العلوي تمتد منهما شرفة واسعة، ويقع على قمة عشرة أدوار لعمارة فاخرة.

جلست فاتن مع منصور في شرفة البيت لأول مرَّة ينظران إلى مياه البحر الممتدة إلى نهاية البصر، على كرسيين متقابلين بينهما منضدة. كانت فاتن تتأمل ذلك المنظر غير المألوف لها، في حين انغمس منصور في قراءة مذكرات فاتن التي سألته:

- أمسرور يا خالد من البيت الجديد؟

قال دون أن يرفع بصره عن أوراق المفكِّرة:

- مسرور جدًّا، لم أكن أحلُم بمثله.

قالت فاتن وهي تمسح صفحة البحر بنظراتها:

- ما يعجبني أكثر من أي شيء هو أننا أصبحنا بمفردنا بعيدًا عن وجع الدماغ، بدأْتُ أشعر بالسعادة.

- وأنـا أيضًا، يكفـي أنني أصبحتُ وحدي مع أجمل إنسـانة في الدنيا.

- أما أنا، فمعي ألطف وأظرف إنسان.

•

ثم أردفت قائلة:

- أحسنَّا صُنْعًا عندما أحضرنا معنا بدرية، أشعر وكأنني ابنتها، ما زلت أذكر عندما كانت تحملني على كتفها.

- أنا مرتاح لها جدًّا؛ فهي مؤدبة ولا تتدخل فيما لا يعنيها.

- هكذا كانت دائمًا، فرْقٌ شاسع بينها وبين خواطر.

- خواطر مهووسة، لكن بيني وبينك دمها خفيف.

- بل عقلها هو الخفيف، تتوافق مع سهير.

بغتة، صاحت فاتن قائلة:

- يا بدرية.

ردت بدريـة، التي كانت جالسـة بالقرب منهمـا وكأنها تتوجَّس خيفة من هذا المكان الذي لم تألفه، قائلة:

- نعم يا سيدتي؟

وفـي سـرعة البطَّـة كانت واقفـة أمامهما فـي الشـرفة، قالـت لها فاتن:

- اعملي لنا شايًا وأحضريه هنا.

- حاضر يا سيدتي.

وانطلقت تمد الخطى بأقصى طاقتها نحو المطبخ. قالت فاتن لمنصور بدلال:

- ماذا جرى يا خالد؟ منذ جلوسنا هنا وأنت لم تتوقف عن قراءة مذكراتي، هل من الضروري أن تعرف جميع أسراري؟ ألا تترك لي شيئًا؟

ضحك منصور دون أن يرفع رأسه عن الأوراق وقال:

- لم تعد أسرارك وحدك، إنها الآن أسرارنا نحن الاثنين. لا يمكنك تصور السعادة التي أشعر بها عند قراءتها.

- كنت أشعر بلذَّة عند كتابتها.

- إنها حافلة بذكريات هادئة، ولكنها حلوة. ويعجبني أنك تكتبينها بإسهاب وتفصيل دقيق.

- عندما أقرؤها أشعر وكأنني أحيا مرة أخرى.

- وأنا أيضًا.

قالت بدهشة:

- أتشعر أنت أيضًا عند قراءتها وكأنك تحيا حياة أخرى؟!

- أقصد أنني أعيش حياة جديدة لم أكن أتصورها.

ثم أردف قائلًا دون أن يجرؤ على النظر إليها:

- الشيء الغريب الذي لا أفهمه، لماذا سرقتْها سهير؟

ظلت فاتن تفكر فترة قصيرة ثم قالت:

- لست أدري، اسألها.

قال بدهشة:

- أسألها؟! وهل من المعقول أن أسألها؟

- إنني أمزح طبعًا.

- على أية حال، إنها مسكينة مريضة، اتركيها في حالها.

- ها أنا ذي تاركة إياها في حالها، وأدعو لها بالشفاء.

رفع منصور كفيه نحو السماء قائلًا:

- ربّ أرِحْها من هذا العذاب.

* * *

كان الأستاذ راتب جالسًا إلى مكتبه في منزله بعد نحو أسبوع من هجرة فاتن ومنصور إلى المسكن الجديد مشغولًا بمراجعة بعض الأوراق عندما دق جرس التليفون.

- أهلًا وسهلًا يا دكتور.

- أنــا متأســف يا أســتاذ راتب، لم أســتطع الاتصــال بكم خلال الأسبوع الماضي للاطمئنان على سهير بسبب سفر مفاجئ لحضور أحد المؤتمرات.

- لا عليــك يــا دكتــور، على أية حــال يُخيَّل إلــيَّ أن حالتها الآن أحسن.

- أما زالت فاتن معها في البيت هي وخالد؟

- لا، انتقلا إلى منزلهما الخاص.

- كنت متوقعًا تحسُّن حالتها عندما تعيش في مسكن مستقل.

قال الأب وقد انخفضت طبقة صوته إلى مستوى الهمس:

- ولكــن منذ أيام قلائل، قبل أن تذهب فاتن إلى البيت الجديد، حدثت بعض الأشياء الغريبة يا أخي.

قال الطبيب باهتمام:

- ماذا حدث؟

روى الأستاذ زكي راتب ما حدث فيما يتعلق باختفاء المذكرات ثم العثور عليها وسَرِقة النقود، وعندما انتهى السرد سأله الطبيب:

- هل سهير على استعداد لأزورها الآن؟

- تفضل يا دكتور، أهلًا وسهلًا.

* * *

قالت سهير وقد احتقن بالدم وجهها الشاحب ناصع البياض ونفرت عروق رقبتها من الغضب اليائس:

- يا دكتور صدِّقني. أريد أن يصدقني ولو إنسانًا واحدًا. الشخص الذي تزوجَتْه فاتن يشبه خالد تمام الشبه، ولكنه ليس هو.

ثم أردفت قائلة وهي مطرقة إلى الأرض وبدت كما لو أنها تكلم نفسها:

- عندما كان خالد ينظر إليَّ كنت أرى في عينيه حنانًا، ولكن هذا الرجل في عينيه قَسْوة.

ثم قالت وقد عادت طبقة صوتها إلى ما كانت عليه:

- هذا علاوة على سماعي الحديث الرهيب الذي دار بينه وبين الرجل الذي كان معه في حديقة البيت بعد منتصف الليل، الذي سمعته كما أسمع كلام حضرتك الآن.

ثم قالت بتوسل شاعرة بإرهاق شديد وكأنها على وشك الإغماء:

- صدِّقني يا دكتور.

قال الطبيب بنبرة حاسمة:

- أنصتي لي جيدًا يا سهير، سأسألك سؤالًا، وما أطلبه منك الآن أن تجيبي عنه بكل الصدق والصراحة. علاجك، وربما

حياتك أيضًا، متوقفان على هذه الإجابة، إذا أجبتِ بصدق سيكون علاجك سهلًا، ولكن إذا لم تكوني صادقة فسيصبح علاجك في منتهى الصعوبة.

- أعدك وعدًا أكيدًا أن أكون صادقة. ما السؤال؟

- مذكرات فاتن التي عثروا عليها في غرفتك، هل أنت التي كنتِ أخذتها، ربما بدافع حب الاستطلاع أو لأي سبب آخر؟

- أقسم لك يا دكتور بكل ما هو عزيز لديَّ إنني لم أرَ هذه المذكرات إلا بعد أن عثرتْ عليها خواطر خلف الصورة، ولا كنت أعرف أن فاتن تكتب مذكرات. هل تصدقني يا دكتور؟

وانخرطت في بكاء عنيف جعل جسدها يرتجف. انتظر الطبيب حتى هدأت وربت على ظهرها قائلًا:

- بدأتُ أصدِّقك، ولكن تعوزني الأدلة والبراهين، فلا قيمة لأن يصدق الإنسان شيئًا لا يستطيع الآخرون تصديقه. وما زلت في حاجة لبعض المعلومات.

- مثل ماذا؟

- مثلًا، ما إذا كان لخالد أخ توأم؛ إذ إن هذا الاستبدال غير الملحوظ إدراكه إطلاقًا لا يمكن أن يحدث إلا بين أخوين توأمين متشابهين.

- يقول إنه لا إخوة له ولا أَخَوات.

- قد يكون كاذبًا، ومن السهل معرفة ذلك. وعلى أية حال، خطرت لي منذ يومين فكرة قد تُظهر الحقيقة فيما يتعلق بشخصية خالد، لو سنَحت الفرصة. في هذه الحالة سيقتنع الجميع بأن ما ظللْتِ ترددينه طوال هذه المدة بإصرار منقطع النظير لم يكن خيالًا، بل حقيقة رهيبة، وهكذا يُحسم الموضوع.

فتح حقيبته وأخرج منها جهاز تسجيل يعمل بالبطارية والتيار الكهربائي، شرح لها طريقة استعماله وطلب منها إجراء تجربة، ثم صعد معها إلى غرفتها وأرشدها إلى أفضل مكان يوضع فيه الجهاز، وبعد التيقُّن من استيعابها لجميع خطوات التسجيل، وقف استعدادًا لإنهاء الزيارة قائلًا:

- نسيت إخطارك بأن كل ما قلته فيما يختص بهذا الجهاز سرٌّ بيننا، أنتِ وأنا، ولا أحد سوانا.

- ولا بابا؟

- ولا بابا، سأخبره أنا في الوقت المناسب، وحذارِ من الخادمة، لو عرفت شيئًا سيصبح على كل لسان.

غادر الطبيب البيت وبقيت سهير في غرفتها تفكِّر.

كم أكون سعيدة لو اتضح لهم أنني كنت على حق، ولكنني في الوقت نفسه خائفة، فظهور الحقيقة يضطرني إلى خوض تجربة

خطيرة ومريرة، أشبه بصراع مع كلب سَعْران، قد أدفع حياتي ثمنًا لها. أليس من المحتمل أن يكتشف وجود جهاز التسجيل فيستولي عليه ويلقي به من النافذة؟

***

في مساء ذلك اليوم بَدَتْ خواطر مضطربة وفي عينيها دموع. سألتها سهير عن سبب اكتئابها فقالت بحزن صادق:

- أوحشتني بدرية.

قالت سهير بدهشة:

- شيء عجيب! كيف تقولين ذلك وكنتِ دائمة الشجار معها؟!

قالت خواطر وهي مطرقة إلى الأرض بوجه يكسوه الشَّجَن وكأنها تسترجع ذكريات عزيزة:

- النقار والشجار اللذان كانا يحدثان بيننا كانا يعطيان الحياة طعمًا، كالملح في الطعام. أصبحتُ الآن مسكينة كطفل انتزعوا منه لعبته الوحيدة. حياتي راكدة كمياه البِرْكَة.

وأخذت تجفف دموعها.

***

مَسح الليلُ دموعَ خواطر؛ فلقد رأت نفسها في المنام كوكبًا سينمائيًّا، واقفة على قمة السلم الأمامي لإحدى دور السينما والجماهير المحتشدة تحييها وتصفق لها؛ لذا استيقظت في الصباح بوجهها البشوش على الرغم من تذكرها أنها كانت تحيي الجماهير في المنام مرتدية ملابس المطبخ. دَخَلتْ غرفة سهير ووقفت أمامها ويداها خلف ظهرها. قالت سهير:

- ما بالك واقفة هكذا؟ ألك طلبات كالعادة؟

- لا يا سيدتي، ليست لي طلبات، بل معي خطابات.

لم تفهم سهير شيئًا، فقالت:

- ما معنى هذا؟

قدمت خواطر الخطاب لسهير فوق صينية من الفضة وانحنت وهي تقدمه متأثرة بما رأته في بعض أفلام السينما، قائلة:

- ظننته لسيدي ولكنني اكتشفت أنه لسموِّك.

كان هذا أول خطاب يرسَل إلى سهير. اختطفته وأسرعت بالتأكد من أنه مرسَل إليها. فتحت المظروف بلهفة ويد مرتجفة وأخذت تقرأ. أثار هذا رغبة خواطر في معرفة محتويات الخطاب العجيب فقالت بصبر نافد:

- ماذا في الخطاب يا سيدتي؟ طمئنيني.

قالت سهير بصوت تلوِّنه الفرحة وتبلّله الدموع:

- لأول مرَّة في حياتي أبكي من الفرحة، فطالما بكيت من الحزن.

قالت خواطر وقد قفزت إليها الفرحة:

- أتبكين من الفرحة؟ يا ألْف نهار أبيض!

وفرقعت زغرودة خشيت سهير أن يكون صداها قد جاوز الحدود ونفذت إلى خارج البيت، وأردفت خواطر قائلة بلهفة:

- ماذا في الخطاب يا سيدتي؟

قالت سهير وقد احمرّ وجهها:

- الخطاب من شخص يقول إنه يحبني.

- أحبته العافية يا سيدتي، من هو؟

- لم يذكر اسمه.

- ولماذا لم يذكر اسمه؟ سيجعلني أواصل التفكير فيه طَوال الليل والنهار حتى يوجع لي مخي الموجوع خلقة.

ضحكت سهير وقالت:

- ولماذا تفكرين أنتِ؟ هل الخطاب مرسل إليك أم مرسل إليَّ؟

- مرسل إلينا نحن الاثنتين، فإنني أفكر من أجلك، آه يانا يا غلبي، أرى الخطاب طويلًا، به كلام كثير.

قالت سهير وكأنها تكلِّم نفسها:

- ترى من أرسله؟ ربما من شخص يريد أن يسخر مني.

قالت خواطر بدهشة:

- هذا غير معقول، ولماذا يسخر منك؟ اقرئي لي يا سيدتي كلمتين لأعرف كيف تُكتب خطابات الحب والهيام.

قالت سهير بعد فترة تردد قصيرة:

- سأقرأ لك جزءًا منه، إنه يقول: «عرفتك روحًا تنطلق في آفاق الجمال عندما قرأت قصتك الجميلة (وداعًا أيها الربيع)، وسمعت أنغامك العذبة تنساب مع نسيم الليل العليل، ثم رأيتك، فرأيت الرقة والطهر والجمال والوداعة. إنني أبعث إليك بحبي، وأقدم لك قلبي مَسْكنًا يحتويكِ لم يسكنه من قبلك إنسان»..

لاحظت سهير أن خواطر شبه نائمة فسألتها:

- ما بك يا خواطر؟

انتبهت خواطر بغتة قائلة:

- نعم يا سيدتي؟ أنا كنت سرحت دقيقتين، لكن قولي لي يا سيدتي، ألا يصلح الكلام عن الحب إلا بالنحوي؟ أنا لم أفهم شيئًا، ألم يكن من الأحسن أن يكتبه بالعربي؟ أيظننا خواجات؟

ضحكت سهير وقالت:

- هذا هو العربي الفصيح يا عبيطة.

- ولماذا لم أفهمه إذًا؟!

***

بعد ثلاثة أيام، في نحو الخامسة مساءً، دقَّ جرس الباب، فهرولت خواطر وفتحته، وإذا به عصام، مدرس الموسيقى. رحبت به خواطر، وسألت سهير عبر السلَّم:

- مَن يا خواطر؟

- المزيكا يا سيدتي.

قالت سهير شاعرة بنشوة غامضة:

- آه، عصام؟ سأحضر فورًا.

قال عصام:

- أنا متأسف لعدم استطاعتي المجيء طوال هذه المدة. كنت مريضًا.

- سلامتك.

- الله يسلمك.

قالت سهير وهي متجهة مع عصام نحو غرفة المائدة التي تتلقى فيها دروس الموسيقى:

- أكنتَ مريضًا حقيقة أم غاضبًا؟

قال عصام بدهشة:

- ولماذا أغضب؟! لم يحدث ما يغضبني.

- أقصد المشهد السخيف الذي عرضته خواطر في أثناء الدرس من قبل.

جلس عصام في المكان الذي اعتاد الجلوس فيه قائلًا:

- أنا لا يغضبني شيء تافه كهذا، هل أغضب من خواطر؟

التقط رادار أذنَي خواطر بحساسيتها الخُفَّاشيَّة كلمة خواطر فاندفعت داخل الغرفة قائلة:

- أفندم؟ هل ناداني أحد؟

قالت سهير بانفعال:

- لم ينادِك أحد، ولن يناديك أحد طوال الدرس. هل تنوين إعادة عرض المهزلة المخجلة التي صدرت منك مرة من قبل؟

انسحبت خواطر بهدوء منكِّسة الرأس، وقال عصام:

- اتركيها وشأنها، فلنبدأ درس اليوم. هل أحسنتِ التمرين على القطعة الموسيقية التي أعطيتك نوتتها الموسيقية؟

- نعم، هل تسمعها؟

- تفضلي.

عندما انتهت من العزف سألته:

- ما رأيك في عزفي؟

قال وهو مطرق إلى الأرض:

- رائع، هل تعلمين يا سهير أنك عندما تعزفين لحنًا تضفين عليه روحًا جميلة؟ أعني، لو عزف هذه القطعة نفسها شخص غيرك لما كانت في مثل جمال عزفك. يُخيَّل إليَّ أن كل ما يمتُّ لك بأية صلة جميل. لقد أصبحتِ موسيقية عظيمة، وأعتقد أنك لم تعودي في حاجة لدروس أخرى.

ثم أردف قائلًا:

- لقد ملكتِ الآن ناصية الموسيقى ولا داعي لمزيد من الدروس.

ثم نظر إليها نظرة خاطفة وقال:

- سيكون درس اليوم آخر درس؛ لذا أحضرتُ هذه الهدية، فقد تذكِّركِ بي.

كانت الهدية كتابًا ملفوفًا بورقة أنيقة قدمه إليها قائلًا:

- إنه كتاب في الموسيقى، كتبتُ لك عليه الإهداء.

اغرورقت الدموع في عيني سهير وقالت بصوت متهدج:

- أشكرك جزيل الشكر على شعورك الجميل، لن أنساه مدى حياتي.

قال وهو مطرق إلى الأرض متحاشيًا التقاء عينيه بعينيها:

- لست أدري ما إذا كنتُ أراك بعد ذلك أم لا كانت اللحظات التي أقضيها معكِ أسعد لحظات حياتي. الوداع يا سهير.

أوصلته حتى باب البيت، وفتحت الباب، وظلت ناظرة إليه حتى توارى عن بصرها، وعندما أقفلت الباب شعرت بأن ومضة في حياتها لمعت واختفت كالبرق، وأن فرحتها بالحياة كانت دائمًا قصيرة وقليلة، فانفجرت تبكي بدموع مُرَّة. عادت إلى غرفة المائدة وجلست في المكان الذي كانت جالسة فيه موحية لنفسها إيحاءً لا شعوريًّا بأن هذه الفترة من حياتها ما زالت ممتدة ولو لبضع لحظات.

اقتربت خواطر من الغرفة بحذر شديد؛ إذ لم تكن تعلم ما إذا كان عصام في البيت أم غادره، خوفًا من أن يظن أحد منهما أنها

تتجسس عليهما، ولما تأكدت من عدم وجوده دخلتْ الغرفة. كان مجيئُها لتقترض عشرة قروش من سهير تشتري بها بعض الحلوى التي تحبها. فوجئت ببكاء سهير، فسرى إليها الحزن قبل أن تعرف السبب. انزعجت لبكاء سهير ونسيت الحلوى وسألتها بلهفة:

- لماذا تبكين يا سيدتي؟ كفَى الله الشر.

قالت سهير بصوت متهدج:

- لست أدري.

وأردفت قائلة:

- حدث شيء أثَّر في نفسي.

- ما هو؟

- لاحظت لمَّا صافحني عصام اليوم عند انصرافه أن عينيه دمعتا.

وبعد فترة صمت قصيرة قالت وهي مطرقة إلى الأرض حزينة:

- هذا آخر درس، لا بد أن بابا هو الذي طلب منه ذلك. لقد أهداني هذا الكتاب بمناسبة انتهاء الدروس.

- ربما يا سيدتي...

ثم توقفت عن الكلام وضحكت ضحكة قصيرة وأكملت حديثها قائلة:

- هل أقول ولا تغضبين؟

قالت سهير وهي تعبث بصفحات الكتاب:

- قولي ما تريدين قوله.

قالت خواطر بعد فترة تردد:

- قد تكون المسألة فيها حب.

- لا أظن ذلك، إنه مجرّد عطف.

في أثناء تقليب صفحات الكتاب عثرتْ على خطاب، ما كادت تقرأ بعض سطوره حتى شعرت وكأن زلزالًا قويًا هزَّها هزّة عنيفة. حاولت السيطرة على مشاعرها لتبدو في حالة طبيعية، قالت:

- شيء غريب! هل تعلمين من الذي أرسل إليَّ الخطاب؟

قالت خواطر بلهفة:

- من يا سيدتي؟

- إنه هو، عصام.

- كيف عرفتِ؟ ألم تقولي إنه لم يذكر اسمه؟

- هذا الخطاب الذي وجدته بين صفحات الكتاب الآن نسخة من الخطاب الذي وصلني بالبريد!

23

وضع الطبيب خطة تبدأ بزيارة لفاتن وزوجها بحجة تهنئتهما بالمسكن الجديد، وشَرَح للأستاذ راتب الغرض من هذه الزيارة وحدد لها موعدًا. وفي يوم الزيارة اقترح الطبيب أن يمر على سهير في غرفتها قبل الذهاب إلى بيت فاتن للتأكد من استيعابها لطريقة استخدام جهاز التسجيل وتذكُّرها لجميع التعليمات التي طلب منها الحرص على اتباعها، وعندما اطمأن لذلك وطمأن سهير ونصحها بأن تكون هادئة وألا تخاف؛ إذ إنه في هذه الأثناء سيكون بالقرب منها، هبط إلى الصالون، حيث كان الأب في انتظاره. دخل عليه الطبيب قائلًا:

- هيا بنا يا أستاذ راتب؛ فلقد تأخرنا عليهما وأخشى أن يملَّا الانتظار.

ترك الطبيب سيارته بالقرب من بوابة البيت وركب مع الأستاذ راتب وانطلقت بهما السيارة إلى منزل فاتن. في الطريق قال الطبيب:

- لي رجاء يا أستاذ راتب.

- تفضل يا دكتور.

- في صباي وفجر شـبابي كنت مغرمًا بلعبة يطلقون عليها اسـم «قَفْل المربعات»، ترى هل تعرفها؟

بذل الأستاذ راتب جهدًا ذهنيًا عنيفًا في رحلة رجوع بذاكرته إلى الماضي مرددًا كلمتَيْ «قفل المربعات، قفل المربعات»..

خف الدكتور لمساعدته قائلًا:

- كل مـا يلـزم لهذه اللعبـة ورقة على المنضدة وقلـم في يد كل لاعـب، ويُـرصُّ بالقلم علـى الورقة عـددٌ من النقط على مسـافات متسـاوية وفي سـطور متوازية أفقيًا وعموديًا، ويبـدأ اللاعب الأول بعمل خط يوصل بين أية نقطتين متجاورتين رأسيًا أو أفقيًا، ويتوالى اللاعبـون واحـدًا بعد الآخر حتـى يصبح ما على الورقـة في النهاية مربعـات بدلًا مـن النقط، واللاعـب الذي يعمل الخـط الذي يقفل المربـع يكتب الحرف الأول من اسـمه داخل هـذا المربع، وعندما تكتمـل المربعـات يحصـى عـدد الحـروف المكتوبـة داخلها لكل لاعب، وصاحب أكبر عدد هو الفائز.

قال الأب:

- نعم نعم، تذكرتها. لكن ما علاقتها بالزيارة؟

قال الطبيب مبتسمًا:

- سـتعرف كل شـيء فيما بعد، ورجائي، بعـد وصولنا إلى بيت فاتـن بنحو نصف سـاعة، أن تقتـرح أن نجلس نحـن الأربعة ونظل نلعب هذه اللعبة أطول مدة ممكنة.

ضحك الأستاذ راتب وقال:

- وهو كذلك يا دكتور، هل تعرف أنني لم أمارس هذه اللعبة منذ كانت سني ثماني عشرة سنة؟

قال الطبيب بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه:

- نلعبها الليلة، ربما تنفع.

قال الأب بدهشة:

- تنفع في ماذا؟!

ابتسم الطبيب والتزم الصمت.

* * *

كان كل من منصور وفاتن في هذه الأثناء في انتظار قدوم الأب والطبيب، وقد تأخر وصولهما نحو ساعة. كانت فاتن سعيدة بقدوم الضيوف، في حين بدا منصور متذمّرًا عصبيًّا، غير مرحِّب بقدوم الطبيب ولا يرى لزيارته أي معنى، وينتقد عدم التزامهما بالمواعيد التي اتفقوا عليها، وفاتن تحاول تهدئته ولكنه لم يهدأ.

- حضور والدِك على العين والرأس، ولكن لماذا حَشَر الدكتور نفسه في الموضوع؟ فلا هو صديقي ولا تشرفت بمعرفته، كان الأصوب أن يزور سهير التي عجز عن علاجها وترك حالتها تسوء يومًا بعد يوم حتى أوصلها إلى حافة الجنون.

قالت فاتن غاضبة:

- لا داعـي لمثـل هذا الـكلام، من المفـروض أن تشـكره على مجيئه لتهنئتنا بالشـقة الجديدة. إنه يبذل أقصى جهد. وسهير ليست مجنونة، إنها أعقل منِّي وأذكى ولكنها سيئة الحظ.

قال ثائرًا:

- أنـا لـن أظل فـي انتظارهما حتـى الصباح، إن لـم يحضرا بعد عشر دقائق سأخرج وأترك لكِ شرف استقبالهما.

في هذه اللحظة، دق جرس الباب، فأسرعت فاتن بفتحه مبتسمة ومرحِّبة، وانتابها شيء من القلق والخجل خوفًا من أن يكون الطبيب أو والدها قد وصل إلى مسـامعهما شيء من الكلمات الكريهة التي كان يقذفهـا منصـور من فمه. قال محاولًا ارتـداء قناع كاذب يخفي ملامح وجهه العابس المتوتِّر:

- أتفضِّلان الجلوس في الشرفة؟ إنها تطل على منظر رائع.

قال الطبيب:

- يُخيَّل إليَّ أن الجو في الشرفة قد يكون باردًا.

قال منصور:

- تفضلا هنا في الصالون.

بعـد نحو سـاعة استُهلكَتْ في الحديـث عن أمـور متباينة دون تخطيط أو توجيه، سـأل الطبيب سؤالًا وهو على علم بالإجابة عنه، قال:

- ألا نجد عندكم كوتشينة أو طاولة؟

قال منصور ولم يستطِع إخفاء نبرة حادة تسللت إلى صوته:

- لا والله يا دكتور، نحن لا نلعب مثل هذه الأشياء.

قال الدكتور:

- خَسَارة، كنت أحب أن نستريح قليلًا من الكلام.

قال الأب تبعًا للخطة المرسومة:

- عندي فكرة، نلعب لعبة قَفْل المربعات.

قالت فاتن:

- فكرة هائلة، كثيرًا ما كنت ألعبها مع سهير، ما رأيك يا خالد؟

قال منصور:

- أعرف اللعبة وأعلم أنها مسلية، ولكن بكل أسف لا توجد عندنا أي أقلام.

قال الأب:

- لديَّ قلمان: قلم حبر وآخر جاف.

وقال الطبيب الذي كان مستعدًّا لذلك:

- عندي كل ما يلزم من الأقلام، ولو أن من الممكن أن نستخدم قلمًا واحدًا لنا جميعًا.

قامت فاتن قائلة:

- سأحضر الأوراق.

أحضرت فاتن «بلوك نوت» خطابات وضعته على المنضدة التي التفوا حولها.

* * *

بعد انغماس تام في اللعبة قال الأب:

- هذه اللعبة لا تجعل الإنسان يشعر بمرور الوقت. هل يتصور أحد أننا لم نتوقف عن اللعب على مدى ساعتين وعشر دقائق؟!

نظرت فاتن إلى الورق المكدَّس على المنضدة، الذي أقفلوا مربعاته، قائلة بدهشة:

- هل أقفلنا المربعات في كل هذا الورق؟!

قال الطبيب بصوت خافت وعلى فمه ابتسامة:

- لعبة مسلية للغاية.

بعد انصراف الأب والطبيب بنحو ربع ساعة، تهيَّأ منصور للخروج. قالت فاتن:

- إلى أين أنت ذاهب الآن يا خالد؟

- سأخرج قليلًا لأستريح من هذه الزيارة.

- أين تذهب؟ أنا لم أعد أراك في البيت، ولا أجد فرصة للتحدث معك، ألا تشعر برغبة في الحديث معي ولم يمضِ على زواجنا سوى شهر؟ ترى ماذا سيكون الحال بعد عشر سنوات؟!

قال منصور وهو مطرق إلى الأرض وقد فُرشت على ذهنه غمامة:

- من يدري أين أكون بعد هذه السنوات العشر؟

- ما هذا الكلام الغريب الذي أسمعه منك؟

- كلامي لا غرابة فيه، الغريب حقًّا زيارة الدكتور لنا.

- وما الغريب فيها؟ لقد فرحتُ بزيارته، أحب أن يكثُرَ أصدقاؤك.

- وهل من الممكن أن يصبح هذا صديقًا لي؟

- ها هو ذا قد أصبح صديقك. الإنسان من آنٍ لآخر ينبغي أن يوسِّعَ دائرة معارفه وأصحابه.

بغتة تجهَّم وجه منصور وقال:

- أين الأوراق التي استعملناها في هذه اللعبة السخيفة؟

- اللعبة لم تكن سخيفة، بل مسلّية، وأعتقد أنك أنت أيضًا استمتعت بها، أما الأوراق التي تسأل عنها فلقد جمعها كلها الدكتور ووضعها في جيوبه.

قال بدهشة وغضب وخوف:

- ولماذا يضعها في جيوبه؟! لو رأيتُه وهو يأخذها لما وافقت على ذلك. أين كنتُ عندما دسَّها في جيوبه؟

- كنتَ خرجت من الصالون لاستدعاء المصعد بناء على رغبة بابا.

- وكيف رأيتِه وهو يضعها في جيوبه ولم تسأليه عن السبب؟

- لم أرَه وهو يضعها، رأيت الورق يطل من جيوبه. ولكن قُل لي: ماذا يضيرك لو أخذ الأوراق أو لم يأخذها؟

وأردفت قائلة بسخرية:

- هل فيها أسرار تخشى افتضاحها؟ لماذا أنت خائف من أشياء لا تدعو للخوف؟ لو رأيته وهو يأخذها لشكرته؛ إنها مجرد نفايات.

قال وقد ازداد خوفه الغامض:

- من قال إنني خائف؟ لست خائفًا.

- بل ما زلْتَ خائفًا من شيء لا أعرفه. هل عدتَ للخوف القديم والتصرفات الغريبة؟ هل تذكر عندما أسرعتَ بالخروج من الكازينو قبل أن يُحضر لنا «الجرسون» الطلبات في اليوم الوحيد

الذي خرجَتْ فيه سهير معنا، وجررْتنا معك عائدين إلى البيت؟

- لا، لا أذكر شيئًا. أنا خارج.

- أما زلت مصرًّا على الخروج؟

قال بحسْم:

- أجل.

واتجه نحو الباب، فاستوقفته آمرة:

- انتظر يا خالد.

فتوقف عن السير قائلًا بصوت ناعم:

- أفندم.

- ماذا جرى لك؟ هذه أول مرة منذ زواجنا تنسى أن تقبِّلني عند خروجك.

لمس خدها بقبلة خاطفة خالية من العاطفة، فقالت فاتن بنبرة حادَّة:

- اجلس يا خالد، أريد أن أتحدث معك.

انصاع لأمرها وجلس دون مقاومة شاعرًا برجفة خوف تبدأ بقشعريرة في رأسه تنتابه كثيرًا في هذه الأيام، وقال:

- ها أنا ذا جلست.

بادرتـه بكلمات ذكَّرته بحلـم رآه منذ يومين؛ حيـث رأى هيكلًا عظميًّا يتقدم نحوه وفي يده سيف ضخم، قالت فاتن:

- ألاحـظ تغييـرًا كبيرًا طرأ عليك، لسـت خالد الـذي كنت أراه فيما مضى، شعورك نحوي تغيَّر، يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنك شخص آخر تعيش معي رغمًا عنك.

- هـذه أفـكار غريبـة، مـا الذي أوحـى إليـكِ بهـذه التصورات والأوهام؟

- لسـت أدري. يشعر الإنسان أحيانًا بمشـاعر لا يدرك أسبابها، إنهـا نـوع من الأحاسـيس الغامضة، كالحـدْس أو الإلهـام، التي قد تكون عند المرأة أقوى منها عند الرجل.

شـعر بخطر يكاد يحدق به فانبرى يدافع عن نفسـه محاولًا تغيير نبرة صوته، كما تُغيِّر الحرباء لونها لتقاوم عوامل الفناء، قائلًا:

- تأكـدي يـا فاتن أن شـعوري نحوك الآن أقوى ممـا كان؛ فلقد أصبحنـا كيانًا واحدًا، وكلما تمـر الأيام يزداد حبي لك وكأنني أراكِ من جديد. أنت أملي وحياتي وكل شيء لي في الوجود.

- هـذا كلام جميل، ولكن إحساسـي يقول عكـس ذلك. بعض كلمـات كنـتُ أسـمعها منـك فيمـا مضـى لا أسـمعها الآن، وكنتَ

وعدتني وعودًا، أنا متأكدة أنها سقطت من ذاكرتك. ويخيَّل إليَّ أحيانًا أنك فقدت الذاكرة. أشياء قد تعتبرها صغيرة ولكنها ذات دلائل خطيرة تؤثر في نفسي تأثيرًا عميقًا.

- مثل ماذا؟

- على سبيل المثال، أول عيد ميلاد بعد خطوبتنا احتفلت به احتفالًا رائعًا وقلت لي إن العيد التالي سيكون أروع وإنكَ أعددت لي فيه مفاجأة.

واختنقتْ بالبكاء فتوقفتْ عن الكلام فترة قصيرة جفَّفت فيها دموعها ثم أكملت حديثها قائلة بصوت متهدج:

- ولكن يبدو أنك نسيت كل شيء.

قال شاعرًا بخجل شديد:

- تخونني ذاكرتي أحيانًا، فكريني، متى هذا العيد؟

قالت بمرارة:

- كان بالأمس.

شعر وكأنه تلقَّى لطمة أطاحت به في الفضاء، فقال وهو مطرق إلى الأرض:

- حبيبتي.. أنا في منتهى الأسف والخجل.

قالت ودموعها في عينيها:

- عندما عَرَفْتَ موعده لأول مرة قلتَ لي إنك لن تنساه مدى الحياة لأنه هو نفسه تاريخ تعيينك في الخدمة، وكنت متفائلًا بذلك.

ثم أردفت قائلة بصوت متهدج:

- لا أتصور كيف نسيته!

- سامحيني يا فاتن؛ فمسألة النسيان مسألة لا إرادية لا سيطرة للإنسان عليها. أرجو أن تقبلي اعتذاري، ولا بد من الاحتفال بعيد ميلادك غدًا.

- ليس المهم عندي الاحتفال أو عدم الاحتفال، كان المهم أن تتذكَّره.

قال بنبرة استعطاف:

- بكل أسف لا وقت عندي الآن للمصالحة؛ فأنا مضطر للخروج، وعند عودتي سأثبت بالبرهان أن حبي لك أكبر من حبك لي، وأنك أعز إنسان لديَّ في كل الدنيا.

وفي المصعد، في أثناء هبوطه، قفزت في ذهنه صورة الحلم الذي تذكره عند سماع حديث فاتن، الهيكل العظمي الذي يخطو نحوه ممسكًا بالسيف الضخم، ولكنه عجز عن تفسيره.

24

في البيت المنعزل الهادئ المحبوس فيه خالد، اجتمع الأصدقاء الأربعة، منصور وعليوة ومدبولي وعزب، يدخنون الجوزة وينفث كلٌّ منهم الدخان في وجه الآخرين. لاحظ عليوة أن منصور في هذه الليلة عابس الوجه متوتر الأعصاب، سأله:

- ما بك يا منصور؟ من المفروض أن تكون الآن أسعد السعداء، فأنت «تتمرّغ» في نعمة لم تكن تحلم بها، ولم يعد ينقصك شيء.

بعد بضع شفطات من غابة النارجيلة، سلَّمها منصور لعزب الجالس جنبه وقال:

- تنقصني راحة البال يا عليوة. أهم شيء في الدنيا راحة البال.

قال عزب:

- احترنا معك، إذا وجدت المال لا تجد راحة البال، إذا وجدت راحة البال لا تجد المال.

قال منصور مثبتًا نظره في عيني عزب:

- هل تسمع عن البراكين، النار التي تخرج من تحت الأرض؟

- أسمع عنها، كفانا الله شرها.

قال منصور:

- أنا بيتي مبني فوق بركان ما زال يغلي تحت الأرض، من المنتظر أن ينفجر في أية لحظة ويقذف اللهب المحبوس في جوفه ويصبح بيتي في غمضة عين كأن لم يكن.

قال عليوة وقد استشعر خطرًا يحوم حول منصور:

- لماذا تقول هذا الكلام؟ فهمت منك أن الأمور تسير على ما يرام، والبَرَكة في مرض سهير.

قال منصور وهو مطرق إلى الأرض وقد اتجهت نحوه أنظار جميع الجالسين الذين يربطهم معه مصير واحد:

- الأمور ليست على ما يرام يا عليوة. أنا خائف. المسألة تتحرك نحو الخطر.

قال مدبولي:

- كيف؟ أقلقتني.

قال منصور بعد فترة تفكير قصيرة:

- هذا الدكتور الذي يعالج البنت سهير، ألم أقُل لكم إنني عندما رأيته خفت منه؟ لقد بدأ يحوم حولي كما تحوم الغربان حول الجيفَة. بدأ ينهش في جثتي، أنا خائف منه.

تركوا الجوزة جانبًا وأخذوا يوجهون كل انتباههم وإنصاتهم نحو منصور.

قال مدبولي:

- ادخل في الموضوع.. ماذا رأيت منه؟

قال منصور بصوت خافت يائس:

- بغتة، بدأ يهتم بي. هل تتصورون أنه زارنا في بيتنا الذي انتقلنا إليه أنا وفاتن؟! أخشى أن يكون هذا الرجل قد بدأ يُصدِّق كلام سهير.

قال عليوة:

- هذا غير معقول، فما تقوله سهير شيء لا يمكن أن يصدقه أحد.

قال منصور:

- على أية حال، أنا مصمم على شيء لا بد من تنفيذه الأسبوع المقبل، ويا قاتل يا مقتول.

قال عليوة بسخرية:

- ناوي تخْلص من سهير، أليس كذلك؟ سمعنا منك هذا الكلام مرارًا.

- الظروف كانت في كل مرة تعاكسني، ولكن في هذه المرَّة لا بد من الانتهاء من هذا المشروع.

قال عليوة:

- ألا تلزمك مساعدة؟

- لا تلزمني أية مساعدة.

قال عليوة ساخرًا:

- وهو كذلك، شد حيلك.

وأردف قائلًا:

- أنا متعجب لعدم قدرتك حتى الآن على إزاحة هذه الحصاة عن طريقك، ولكن، لماذا تقول بعد أسبوع؟ لماذا لا يكون غدًا أو بعد غد؟

قال منصور ناظرًا إلى عليوة كل الوقت:

- هكذا رسمْتُ خطتي، سيسافر أبوها بعد أسبوع إلى القاهرة للمرافعة في قضايا، وأوصانا أنا وفاتن أن نبيت مع سهير لأنها لا تستطيع قضاء الليل وليس معها في البيت سوى الشغالة.

قال عليوة:

- ولماذا لا تذهب هي لتبيت عندكما؟

- لو فَعَلَتْ هذا لكانت المأمورية أسهل، قد اقترحْتُ ذلك ولكنها رفضت اقتراحي رفضًا باتًّا.

قال عليوة:

- والسبب؟

قال منصور بسخرية:

- تقول إنها لن تشعر بالأمان إلا في بيت العائلة. إنها فرصة لن تفلت منِّي هذه المرَّة بأية حال.

***

كان الأب جالسًا في غرفة الطعام لتناول فطوره منتظرًا قدوم سهير التي تأخرت هذا الصباح عن موعدها المعتاد. أرسل خواطر لتستدعيها، فجاءت على عجل؛ فالأب عادة لم يكن حريصًا على ضرورة وجودها معه ساعة الفطور كل يوم لعدم إزعاجها إذا امتد بها النوم.

- صباح الخير يا بابا.

قال الأب وعلى فمه ابتسامة عريضة لم تألف سهير وجودها دون مبرر قوي:

- صباح النور يا سهير، اجلسي، توجد مسألة أود أخذ رأيك فيها.

خفق قلبها نوعًا من الخفقان يصعب تصنيفه، فلا هو خفقان فرح ولا خفقان خوف، ولكنها استشعرت سماع شيء غير عادي، قالت:

- تُرى ما هذه المسألة؟

قفز قلبها قفزةَ فرْحةٍ مشوبة بالحذر، كان من الممكن أن تتوقع خبرًا سيئًا، ولكن ابتسامة أبيها فتحت مجالًا للأمل، قال الأب:

- عصام، الشاب الذي كان يعلمك الموسيقى.

قالت بلهفة لم تستطِع إخفاءها:

- ما به؟

- وصلني منه خطاب رقيق للغاية، إنه يطلب يدك.

قالت بعفوية من لم يكن ينتظر شروق الشمس في منتصف الليل:

- أيخطبني أنا؟

قال الأب مبتسمًا:

- أجل، يخطبك أنتِ، وهل يخطبني أنا؟

وضحك ضحكته العالية المتقطعة، وأردف قائلًا:

- منذ الأمس وأنا دائم التفكير في هذه المسألة، ما رأيك؟ ألديك مانع؟

قالت شاعرة بأول فرحة حقيقية في حياتها:

- ما تراه يا بابا.

- أرى أنه شاب ممتاز رقيق المشاعر، الدكتور منير يعرفه ومدح فيه كثيرًا.

وأردف قائلًا وقد دمعت عيناه:

- مبروك يا سهير، مبروك يا حبيبتي، تَعالَي أبوسك.

قبَّلها في جبهتها وقال:

- أنت أهل لكل خير يا سهير، طيّبة القلب، صبور، تحملْتِ الكثير من العناء.

ثم أردف قائلًا بتأثر شديد:

- كان أملي أن أراك فرحانة في يوم من الأيام، قبل رحيلي.

قالت بعاطفة صادقة:

- حماك الله يا بابا وأطال عمرك.

***

ما كاد الأب يغادر عتبة البيت حتى اندفعت سهير تقفز درجات السلم، شعرت أن النبأ أضخم من أن يظل في صدرها وحدها وتمنت لو تستطيع نشره في جميع أنحاء الدنيا. صاحت قائلة:

- يا خواطر، يا خواطر..

- يا نعمين يا سيدتي.

كانت خواطر منهمكة في تنظيف وترتيب غرفة الأب فأسرعت إلى سهير قائلة:

- أنا خُطبت يا خواطر، خُطبت.. عصام خطبني.

أطلقت خواطـر زغرودة مدوِّية وهجمت على سـهير احتضنتها وقبّلتها قائلة:

- يـا ألـف نهـار أبيـض يـا سـيدتي، هـذا هو اليـوم الـذي كنت أنتظره!

ثم وجدت نفسها تبكي. قالت لها سهير بدهشة:

- لماذا تبكين؟

- أبكـي لأنني لم أفرح في حياتي كما فرحتُ اليوم، وكل شـيء لـو زاد على حدّه انقلب إلى ضده. كنت أغنِّي طَوال النهار ولم أكن أفعل ذلك إلا لأدخل البهجة إلى قلبك. كان قلبي يبكي من أجلك؛ فالمساكين مثلي هم أيضًا لهم قلوب. كنتِ تعتقدين أنك غير محبوبة من أحد، ولكنني ما أحببت في حياتي أحدًا كما أحببتك.

***

اتفق الأب مع عصام على أن تتم إجراءات الخطوبة بعد أسبوع، واقتـرح عصـام أن يكون عقد القـران مع الخطوبة فـي حفل واحد، ووافق الأب.

همست سهير في أذن عصام وهما جالسان في «الكوشة» قائلة:

- أنا في قمة السعادة.

قال عصام والفرحة تكسو وجهه:

- لم يبقَ سوى شهر ويجمعنا بيت واحد. ستكونين أنت زهرة البيت ونوّارته. ستكون حياتنا أزهارًا وموسيقى، موسيقى عذبة مثل عزفك، صافية مثل نفسك.

قالت سهير مبتسمة:

- وستكمل لي الدروس، يُخيَّل إليَّ أنها لم تكن بلغت نهايتها.

- الدروس انتهت، ولكننا سنبدأ شيئًا آخر، حياة جديدة سعيدة بمشيئة الله.

* * *

قال منصور لفاتن وهما جالسان في الحفل:

- ما رأيك في عريس سهير؟

- يبدو شابًّا ممتازًا وسيمًا.

- أحقيقة ستتم الدخلة بعد شهر؟

- أجل، إن شاء الله.

- أبهذه السرعة؟

- إنها رغبة العريس.

- لم أكن أتصوَّر أن أحدًا من الممكن أن يحب سهير.

قالت فاتن بدهشة وغضب:

- لماذا؟! إنها جميلة كما ترى، ولكن كما قلت لي بنفسك منذ فترة: إن عدم عنايتها بنفسها والحزن البادي على وجهها في معظم الأحيان كانا يطمسان معالم هذا الجمال الذي نراه الآن. ها هي ذي متألقة في الكوشة كملكة جمال.

- تُرى هل شُفيتْ من الهلاوس؟

- أجل.

أردفت قائلة وهي مبتسمة وكأنها تحكي نكتة:

- ولكن العجيب أنها ما زالت معتقدة أنك أنت شخص آخر غير خالد، هذه هي المسألة التي ما زالت في حاجة لعلاج.

قال منصور وعلى فمه ابتسامة وكأنه يكمل النكتة:

- سأعالجها أنا.

قالت فاتن بضحكة قصيرة ساخرة:

- ماذا قلت؟ أتعالجها أنت؟ وهل أنت دكتور؟

- ألا يعالج سوى الدكاترة؟ مرض كمرض سهير يلزمه علاج من نوع خاص. إنها تعتقد أنني مجرم، أليس كذلك؟

- بلى، بكل أسف.

- يُخيَّل إليَّ أنني بالمعاملة الرقيقة، كما رأيتِ هذه الأيام، من الممكن أن أمحوَ من ذهنها هذه الفكرة، ولكنها مسألة تحتاج لوقت. متى سيسافر والدك إلى القاهرة؟

- يوم الأربعاء المقبل.

- ظننت أنه أجَّل السفر.

- لا يستطيع تأجيل السفر؛ فالقضايا ذات مواعيد محددة، وبابا من المحامين الذين لا يحبون تأجيل القضايا.

- أما زلتم مصممين على المبيت هناك مع سهير؟

- هذا طلب سهير ورغبة بابا، لقد أكد عليَّ ألا أترك سهير وحدها تحت أي ظرف من الظروف.

***

انتهى الحفل، وهنَّأ المدعوون العروس والعريس، وانفضَّ الجمع ولم يبقَ في المكان سوى الأطباق الفارغة والأزهار الذابلة.

***

في صباح الأربعاء، صحا الأب مبكرًا وتناول فطوره وأخذ حقيبته وقال لخواطر إنه سيسافر، ولما سألته عن موعد عودته قال إنه سيبيت ليلة واحدة.

***

في مساء ذلك اليوم، ظلّوا يتسامرون حتى شعرت سهير برغبة في النوم فتسللت وصعدت لتنام في غرفتها شاعرة بخوف من احتمال مواجهتها للتجربة الخطيرة التي يحتمل أن تُضطر لخوضها في هذه الليلة.

دخلت غرفتها وارتدت ملابس النوم وفي جسدها رعشة. بعد أن اتجهت نحو السرير تذكَّرت أنها بحكم العادة أقفلت الباب بالمفتاح، ولكنها تذكرت تعليمات الطبيب فعادت وتركت الباب مردودًا دون أن تقفله بالمفتاح. بعد أن اطمأنت على وضع جهاز التسجيل، استلقت على الفراش فشعرت بقلبها يدق دقات سريعة قوية وكأنه خارج القفص الصدري. تذكرت كلمات الطبيب الذي طلب منها أن تكون هادئة وذكر لها أنه سيكون قريبًا منها، فشعرت ببعض الطمأنينة التي ما لبثتْ أن تلاشت، فعقدت العزم على البقاء مستيقظة، ولكن بعد فترة لا تدرك مداها غلبها النوم فنامت. كان منصور في أواخر الفترة التي عاشها في هذا البيت قد استخرج نُسخًا من مفاتيح البيت وباب غرفة سهير وبعض الغرف الأخرى، ولكنه في هذه الليلة لم يجد نفسه محتاجًا لأي مفتاح.

ظنَّته كابوسًا في بادئ الأمر؛ إذ ما تراه الآن لا يمكن أن يكون إلا في الكوابيس، ولكن عندما انقشع ضباب النوم قالت بصوت مخنوق:

- من هذا؟

حاولت أن تصرخ ولكنه أسرع بكتم أنفاسها ولم يمكِّنها من النطق، وأخذ ينفِّس عن كراهيته بهذه الألفاظ التي كان ملتذًّا بترديدها:

- اخرسي، هل أتركك تصرخين؟ لن تهنئي بالزواج. سأقذف بك من هذه النافذة، سيعتقد الناس أن المرض عاد إليك! هذه آخر ليلة في عمرك. مهما صرختِ لن يسمعك أحد، لقد وضعت لهم جميعًا المخدر في الشاي ولن يفيقوا قبل طلوع النهار. سيجدونك...

في هذه اللحظة دخل الطبيب ووقف وسط الغرفة صائحًا:

- ولكنك لم تخدِّرني أنا، لم يخطر على بالك أنني كنت في انتظارك هنا. ماذا تعمل في غرفة سهير يا جناب المحترم؟

قال منصور وهو مطرق إلى الأرض:

- سمعتها تستغيث فجئتُ لأعرف ما بها فوجدتك هنا، المفروض أن أسألك أنا عن سبب وجودك في هذه الغرفة.

تجاهل الدكتور منير هذه الكلمات الساذجة وقال لسهير:

- هل سجَّلتِ شيئًا؟

قالت سهير بصوت خافت مرتجف:

- لست أدري يا دكتور، لقد ضغطتُ على الزر.

أخرج الطبيب الجهاز من الدرج نصف المفتوح، أَرجَع الشريط إلى بدايته وقال لمنصور:

- فلنستمع إلى التسجيل لنعرف الحقيقة.

كان التسـجيل واضحًا، اسـتمعوا إليه من البداية وأوقفه الطبيب عند نهاية حديث منصور مع سهير.

بدا منصور منهارًا زائغ النظرات. نظر إليه الطبيب قائلًا:

- ما رأيك؟ ما اسـمك الحقيقي؟ لا أظن أن اسـمك خالد. على أيـة حال لقد عرفت حتى الآن أن اسـمك يبدأ بحـرف «الميم»، من الممكـن أن يكـون مـراد أو مبـروك أو منير مثل اسـمي، فقل لنا من أنت؟

قال بصوت خافت وهو منكّس الرأس منهار:

- منصور.

- ومـا حكايتـك؟ مـا أمكنني فهمه هـو أنك لا بـد أن تكون أخًا توأمًا لخالد، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولكن المهم الآن، أين خالد؟ ماذا فعلتَ به؟

شـعر منصور بيأس تام أكسـبه بعض الشـجاعة، فقال وقد ارتفع صوته:

- لن أسـمح لأحد أن يعرف مكانه. سيظل طَوال حياته محبوسًا في المكان الذي هو فيه!

- لمجرد العلم بالشيء، أخبرك أن خالد أمضى ليلته في بيتي بصحبة الأستاذ راتب.

دبَّت في جسد سهير حيوية مفاجئة جعلتها تقفز صائحة بفرحة:

- هل خرج خالد؟

قال الطبيب مبتسمًا:

- أجل، والأستاذ راتب لم يسافر إلى القاهرة كما قال لكم، ولكنه كان في ضيافتي بناء على التخطيط الذي رسمناه، ولقد اقتفى بعض الأشخاص أثر منصور في جميع تحركاته عدة أيام دون أن يشعر بهم وعرفوا المكان، وقبضوا على عزب ومدبولي وعليوة.

توقف الطبيب عن الحديث لحظة ثم صاح قائلًا:

- يا صالح.

- أقبل صالح، التمورجي، مهرولًا

قال له الطبيب:

- اذهب إلى الصالون في الدور الأرضي وقل لحضرة الضابط إننا في الانتظار.

* * *

كانت القوة مكونة من الضابط وأربعة جنود، وما إن رأى منصور أحد الجنود ومعه «الكلبشات» حتى انتابته حالة هِسْتيرية عنيفة.

أخذ يجري كفأر في مصيدة، متصادمًا بالأثاث والجدران، وكأنه يحاول أن يهرب من نفسه، صائحًا بأعلى صوته:

- لا يمكن، لا يمكن أبدًا.. لن أمكِّن أحدًا من الزج بي في السجن مرَّة أخرى.. مستحيل! الموت أرحم من السجن!

كان الشباك الذي فتحه ليلقي بسهير منه ما زال مفتوحًا، وبغتة، في مثل رَمْشَة، ألقى بنفسه من النافذة. صرخت سهير من هول المشهد التراجيدي العنيف الذي وَجَدت نفسها في بؤرته وانفجرت تبكي. هَـرِعَ الطبيب والضابط والجنود الأربعة إلى مكان الحادث وفحص الطبيب منصور فوجده قد أصبح جثة، ثم أسرع بالصعود ليكون مع سهير التي كانت مستمرة في البكاء. قال لها الطبيب:

- لا تبكي يا سهير، لماذا تبكين؟ منصور ألقى بنفسه من الشباك الذي أراد أن يلقي بكِ منه، ومات بدلًا منك.

***

اجتاحت سهير مشاعر متباينة، فلم تستطِع إدراك ما إذا كانت حزينة أم مبتهجة، وأصبحت شبيهة بحاسب إلكتروني عبث به اضطراب تيار كهربائي فأفقده القدرة على استخراج المعلومات الصحيحة. قالت للطبيب:

- كنت أتعذب وأصرخ قائلة: إن هذا الرجل شخص آخر غير خالد، ولا أحد يصدقني.

ظل الطبيب ناظرًا إليها بملامح جادَّة نحو خمس ثوانٍ، ثم قال:

- لا تحزني، هكذا فعلوا مع «جاليليو».

دلَّت نظراتُها على أنها لم تفهم ما يقوله، فقال:

- لا تفكري كثيرًا في هذا الموضوع؛ فلقد انزاح الكابوس.

ثم أردف قائلًا:

- هل تعلمين متى بدأتُ أصدقك؟

- متى؟

- يوم قلتِ لي إن نظرات هذا الرجل خالية من العطف الذي كنتِ ترينه في عيني خالد؛ فللنساء إحساس صادق في هذه الأمور يشبه الإلهام. وعلى ضوء ملاحظتك هذه كوَّنْتُ نظريّتي عن احتمال كونه توأمًا، فرتَّبْتُ مع الوالد مسألة الاجتماع في بيت فاتن لنلعب لعبة «قَفْل المربعات». أتعرفين هذه اللعبة؟

- أجل، كنت ألعبها مع فاتن.

- إذًا تعلمين أن من يكمل الضلع الرابع يكتب أول حرف من اسمه داخله، وصاحب أكبر عدد من الحروف هو الفائز.

- أعرف ذلك.

- وفي علم النفس يقولون: إن البهلوان السائر على الحبل لو شعر بالخوف يقع. والشخص الذي يمسك فنجان شاي ويكون

شديد الخوف من اندلاقه، فإن شدَّة حرصه على الفنجان تجعله أكثر عرضة للاندلاق؛ فمنصور هذا لشدة خوفه من أن يسهو ويكتب «م» بدلًا من «خ» وقع في هذا الخطأ أربع مرات، فأخذتُ معي الأوراق لتكون شاهد إثبات على ذلك.

في هذه اللحظة دخلت خواطر تتثاءب نصف نائمة، قالت لسهير:

- صباح الخير يا سيدتي.

ثم فوجئت برؤية الطبيب، فقالت:

- صباح الخير يا دكتور، لا تؤاخذني، لم أرَك عندما دخلت.

قالت سهير:

- متى صحوتِ من النوم؟

- صحوتُ الآن وجئت هنا مباشرة. لست أدري لماذا أشعر بثقل في رأسي ورغبة في النوم!

- هل صَحَتْ بدرية؟

- أجل، لكزتها فأيقظتها.

قال الطبيب:

- وفاتن، أما زالت نائمة؟

- عندما تركتها كانت قد بدأت «تبَرْبشْ».

قال الطبيب موجهًا حديثه لسهير:

- هيَّا لنراها.

همست سهير للطبيب وهما يهبطان درجات السلم:

- هل نخبر فاتن عن كل شيء؟

- لا بد أن تعرف طبعًا، ولكن ليس الآن.

***

كانت فاتن قد انتهت من تسريح شعرها على عجل لارتداء ملابسها، وكان باب غرفتها مفتوحًا فحيَّاها الطبيب قائلًا:

- صباح الخير يا فاتن.

هرولت نحو الطبيب وصافحته قائلة:

- أنا متأسفة لبقائي نائمة حتى الآن، مع أنني من عادتي الاستيقاظ في الفجر، وتعجبت من عدم شعوري بخالد عندما خرج.

أطرق الطبيب إلى الأرض شاعرًا بحيرة شديدة. ماذا أقول لها؟ وكيف أنقل إليها الخبر المؤلم الذي سينقضُّ عليها كسقوط ناطحة سحاب على رأسها؟

قال الطبيب:

- هيا بنا إلى غرفة الصالون.

ذهب الطبيب وفاتن وسهير إلى الصالون، وبعد جلوسهم فترة قصيرة دخل الطبيب في الموضوع قائلًا:

- يبدو يا فاتن أن بعض الأصوات التي كانت تنفرد بسماعها سهير والأشياء التي لا يراها سواها لم تكن تهيؤات، بعضها كان حقيقيًّا وبعضها كان هلاوس.

قالت فاتن وقد استشعرت شيئًا رهيبًا خلف هذه المقدمة:

- كيف؟ لم أفهم ما تقصده حضرتك.

قال الطبيب وهو مطرق إلى الأرض:

- تقول سهير إنها في ليلة من الليالي سمعَتْ صوت خالد يتحدث مع شخص غريب في حديقة البيت بالقرب من غرفتها، وفهمَتْ من كلامهما أن الشخص الذي تعيشين معه شخص آخر غير خالد.

شعرت فاتن بقشعريرة سَرَتْ في جسدها، وطفرت الدموع من عيني سهير، ثم قالت فاتن:

- ولكن من غير المعقول طبعًا أن يكون هذا صحيحًا.

قال الطبيب:

- في هذه المرَّة لم تكن سهير تهلوس. خالد الحقيقي كان محبوسًا فعلًا في مكان مجهول بعيدًا عن العيون، ولقد عُقد عقدك على أخيه التوأم.

شعرت فاتن بدوار حاولت مقاومته، وقالت:

- هذا غير صحيح؛ فخالد لا إخوة له.. كان له أخ واحد ومات.

سألها الطبيب:

- ما اسم أخيه هذا الذي مات؟

- كان اسمه «منصور»، توفي منذ عشر سنوات.

قال الطبيب:

- حقًّا، كان له أخ يُدعى منصور ولكنه لم يمُت منذ عشر سنوات، بل مات ليلة أمس.

شعرت فاتن بارتباك ذهني وقالت:

- أنا لا أفهم شيئًا، أخشى أن تكون قد أصابتني عدوى الهلوسة، كيف تقول إنه مات بالأمس وقد كان معي في الغرفة حتى غلبنا النوم ونمنا؟ هل يعني هذا أن الشخص الذي عشتُ معه هذه المدة لم يكن خالد؟ عقلي يرفض أن يصدق هذا الكلام!

قال الطبيب بحسم يوحي بأن الموضوع قد تجاوز مرحلة الشك وأصبح يقينًا:

- أجل، ليس هذا خالد، بل توأمه منصور. ضبطناه ليلة أمس في غرفة أختك سهير يحاول قتلها بإلقائها من النافذة.

قالت فاتن بذهول:

- ولماذا؟ لماذا يقتلها؟

- ليتخلَّص منها؛ فهي الوحيدة التي كشفت سره وتقول لكل الناس إنه شخص آخر غير خالد. لم يصدِّقها أحد، ولكنني صدقتُها وحاولت الوصول للحقيقة.

قالت فاتن بصوت متهدج شاعرة بأنها ما زالت ترزح تحت وطأة حلم مرعب ترى نفسها فيه تائهة في مدينة مهجورة وسط صحراء بلا حدود:

- وأين خالد الحقيقي؟

- موجود. إنه مع والدك في بيتي تبعًا لخطة موضوعة، سأتصل الآن تليفونيًّا ليحضرا.

انخرطت فاتن في بكاء عنيف، وبعد نحو نصف ساعة حضر الأب بصحبة خالد الذي بكى عندما رأى فاتن. كان بادي الهزال شاحب الوجه. قال الأب:

- لماذا تبكي يا خالد؟ من المفروض أن تفرح، أحزين أنت على أخيك المجرم؟

- أجل، حزين.. مهما كان ومهما أساء إليَّ فهو أخي، من لحمي ودمي، وكان مسكينًا.

التفت الأب إلى فاتن قائلًا:

- هذا هو خالد الحقيقي يا فاتن.

قال خالد بصوت متهدج:

- فاتن.. أنا خالد يا فاتن! أوحشتني يا فاتن، أوحشتني يا حبيبتي.

قال الأب مواسيًا:

- قريبًا إن شاء الله ستذهبان معًا إلى بيتكما.

انتفضت فاتن قائلة وقد عصف بها الانفعال والغضب:

- مستحيل! لا يمكن أبدًا أن أعيش معه بعد أن عشت مع أخيه هذه الفترة!

وهَرِعَتْ باكية إلى الغرفة التي كانت فيها قبل انتقالها إلى المسكن الجديد.

***

كان الطبيب دائم السؤال عنها وكانت ترفض الحديث في أي موضوع ذي علاقة بزواجها، وبعد نحو خمسة شهور قَلِقَ الأب فاستشار الطبيب:

- فاتـن ما زالت مصممة على عدم الزواج من خالد، بل رفضت مجـرد رؤيـة البيت الذي كانـت تعيش فيه مع منصـور، وتُغلق على نفسـها باب غرفتها طَوال اليوم، لست أدري ماذا سيكون مصيرها يا دكتور، وأنا في منتهى الحزن والقلق.

قال الطبيب بهدوء:

- لا تقلـق يا أسـتاذ راتب؛ فلقـد كانت الصدمة شـديدة العنف، خارج دائرة الاحتمال، والإنسـان عندما تسحقه صدمة بهذه القسوة والبشـاعة يعتقـد أنها دمَّرتـه ولن يحتمـل الحياة بعدهـا وأنها نهاية الدنيـا، ولكن مـرور الزمـن يزوِّدنا بقـدرة هائلة كامنة فـي أعماقنا، تمكِّنُنا من احتمال أشـياء لم نكن نتصور أننا قادرون على احتمالها. شـيئًا فشـيئًا سـتعود الأمور إلـى ما كانت عليـه يا أسـتاذ راتب، إنها غريزة حب البقـاء ومقاومة عوامل الفناء التي أودعها الله في جميع مخلوقاته بلا استثناء.

***

بعد أسـبوع، كانت سـهير في المطبـخ تعمل لنفسـها فنجانًا من الينسـون، سـمعت خواطـر تهبـط السـلَّم مترنمـة بأغنيـة «برهومـة حاكينـي».. ثـم دخلـت المطبـخ تبحـث عن أشـياء وتلملـم بعض الملابس، فسألتها سهير:

- ماذا تعملين يا خواطر؟

قالت خواطر ووجهها مشرق بالبهجة:

- أجمع ملابسي وحاجياتي يا سيدتي.

قالت سهير بدهشة:

- لماذا؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

- برهومة المكوجي سيتزوجني.

وعلى الرغم من مرحها البادي، كانت تخفي في أعماقها حزنًا ويأسًا، واستمرت تقول:

- سألني عن بابا، قلت له: إن مقابلته أصبحت صعبة جدًّا ومستحيلة. حمْلق في وجهي وقال: «لماذا؟». قلت له: «لأنه توفي، الله يرحمه». فذهب إلى «ماما» وخطبني منها أمس، وظللت الليل بطوله أفكر وأقول: يا بنت أتتزوجينه أم تشتغلين في السيما؟ وقرب طلوع الفجر عقلي قال لي: «زوج في اليد أضمن من سيما ما زالت في الغيب»!

وأطلَقَتْ ضحكة رنانة ومسحت دموعًا طفرت من عينيها لا تدرك لها سببًا وقالت:

- الوداع يا سيدتي، الوداع قبل أن يرجع في كلامه.

ما كادت خواطر تخرج حاملة أمتعتها القليلة حتى دق جرس الباب، ففتحت بدرية ثم قالت:

- سي عصام؟ تفضل.

***

بعد أن تناولا الشاي في الصالون، اقترحت سهير أن يذهبا للنزهة في حديقة المنتزه، فخرجا معًا.

كانـت فاتن وبدرية في هـذه اللحظة واقفتين في الشـرفة المطلة علـى بوابة البيت. ظلت فاتن ناظرة إليهمـا وهما يجتازان الحديقة، ثم قالت لبدرية بصوت خافت وكأنها تناجي نفسها:

- فـي يـوم من الأيام، كنت سـائرة مع خالد في هـذا المكان في طريقنـا إلى بوابة الحديقة وكانت سـهير واقفة فـي مكاني هذا تطل علينـا، فتضايقْتُ مـن نظراتها.. يالقسـوتي! الآن فقط... عرفت كم كانت تتعذب...

قالت بدرية التي لم تفهم شيئًا مِمَّا قالتْه فاتن:

- هل أعمل لك فنجان ينسون يا سيدتي؟

تمت

المؤلف في سطور

تعد «عواصف» من الروايات السيكولوجية، ويعتبر د. يوسف عز الدين عيسى (1914 - 1999) رائدًا في هذا المجال. تتناول الرواية تحليلًا عميقًا للنفس البشرية بكل آلامها وأفراحها. ورواية «عواصف» من الأعمال المبكرة؛ فقد كتبها مؤلفها عام 1957، وهو أول من جعل من المحلل النفسي أو الطبيب النفسي بطلًا في رواياته.

والدكتور يوسف عز الدين عيسى مارس كل أنواع الأدب، من: الرواية، القصة القصيرة، المسرحية، الشعر، المقال الأدبي، الدراما الإذاعية والتليفزيونية، والأغاني.. وجمع بين العلم والأدب في أعلى درجاتهما، فكان أستاذًا جامعيًّا بكلية العلوم، حصل على الدكتوراه من جامعة شيفيلد بإنجلترا وعمل أستاذًا زائرًا (فولبرايت) في جامعتي بركلي وإلينوي في الولايات المتحدة. هو أيضًا الأديب الحاصل على أعلى الأوسمة في هذا المجال، واستمر يجمع بين العلم والأدب حتى آخر يوم في حياته.

أعمال الدكتور يوسف عز الدين عيسى متنوعة لتنوُّع ثقافته. تأثر كثيرًا بروح العصر بكل ما فيه من علم وأدب وفلسفة وفن وموسيقى وكل مظاهر الحداثة. كان دائمًا يتحدث عن الإنسان ويغوص في النفس البشرية ليصل إلى أغوار البشر وحقيقة الوجود. وتتميز أعماله في فترة حياته المتقدمة باستعمال الرمز لإظهار الفكرة التي يريد أن تؤثر في القارئ وتدخل في سياق الأدب الفكري، فهو له مضمون ورسالة يبغي أن يصلا إلى المتلقي؛ ولذلك فهي فريدة في الأدب العربي عامة.

لقد كتب دكتور يوسف عز الدين عيسى تسع روايات: «الواجهة» و«العسل المر» و«الرجل الذي باع رأسه» و«لا تلوموا الخريف» و«التمثال» و«عين الصقر» و«ثلاث وردات وشمعة» و«الأب»، وله مجلدان في القصة القصيرة: «ليلة العاصفة وقصص أخرى»، و«البيت وقصص أخرى»، ومجلد «نريد الحياة ومسرحيات أخرى»، وله عدد كبير من الأشعار والأغاني، إلى جانب كتاباته للدراما الإذاعية التي تصل إلى حوالي أربعمائة عمل.

إلى جانب الكتابات الأدبية، كتب الدكتور يوسف عز الدين عيسى ما يفوق المائة مقال وعمود أسبوعي في الصحف والمجلات في مصر والعالم العربي. وقد كتب أيضًا مقالات تحليلية قدم فيها أدباء عالميين إلى العالم العربي، كما شارك في مئات الندوات الثقافية، وكان أيضًا رئيسًا لنادي القصة وعضوًا بالمجلس الأعلى

للثقافة والفنون ورئيس تحرير مجلة «أمواج» ومدير التحرير الثقافي لجريدة «الأيام».

في عام 1987، مُنح جائزة الدولة التقديرية في الأدب، وهو أول أديب مصري يُمنح هذا التكريم وهو يعيش خارج العاصمة (كان يعيش في الإسكندرية) وحسب حيثيات اللجنة، فإنه «أسس مدرسة جديدة في الكتابة الأدبية تأثر بها الكثير من الأدباء». وكان الدكتور يوسف عز الدين عيسى قد حصل على جائزة أخرى من الدولة أيضًا عام 1978 لأعماله الإذاعية، وقد ذكرت اللجنة أن من ضمن حيثيات حصوله على الجائزة أن «تحولت الدراما الإذاعية على يديه إلى نوع رفيعٍ من الأدب».

ومن الأوسمة الأخرى التي حصل عليها الدكتور يوسف عز الدين عيسى: وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى مرتين عام 1979 ومرة أخرى عام 1988، ووسام الجمهورية عام 1981 واليوبيل الفضي واليوبيل الذهبي للإذاعة والتليفزيون. وقد مُنح الدكتور يوسف عز الدين عيسى وسام «فارس الأدب» في عام 1999 وكان ذلك قبل وفاته بأشهر قليلة، وقد مُنح هذا الوسام لـ«دوره الرائد في إثراء الحركة الأدبية».

وقد اختير الدكتور يوسف عز الدين عيسى كأفضل شخصية أدبية في مصر لعامي 1998 و1999.

في عام 2001، سُـميت قاعـة المحاضرات في قصر ثقافة الحرية (الآن مركـز الإبـداع) قاعـة «الصالـون الثقافي ليوسـف عـز الدين عيسى»، ليكون اسمه رمزًا للعطاء الفكري.

الموقع الرسمي للدكتور يوسف عز الدين عيسى:

www:eassa1914.com

... لقد كانت الصدمة شديدة العنف، خارج دائرة الاحتمال، والإنسان عندما تسحقه صدمة بهذه القسوة والبشاعة يعتقد أنها دمرته ولن يحتمل الحياة بعدها وأنها نهاية الدنيا، ولكن مرور الزمن يزودنا بقدرة هائلة كامنة في أعماقنا، تمكّننا من احتمال أشياء لم نكن نتصور أننا قادرون على احتمالها...

هي رواية إنسانية سيكولوجية تبحر في داخل النفوس وتحللها تحليلًا دقيقًا، تعبّر عن المشاعر التي تجيش بنفس الإنسان وتظهر عواصف الصراعات التي تنشأ بين أقرب الناس وبعضهم، ويبقى دور الدكتور منير الذي يحل كل هذه الألغاز.

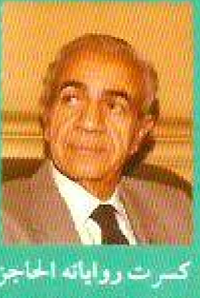

د. يوسف عز الدين عيسى، جمع بين الأدب و العلم في أعلى مستوياتهما، فهو أديب له عالمه الخاص، حصل على جائزة الدولة التقديرية في الأدب وغيرها من الأوسمة الرفيعة. تأثر أدبه بروح العصر فعبر عن الإنسان وحلل النفس البشرية بكل نوازعها وأحلامها وصراعاتها بأسلوب يتأرجح بين الحلم والواقع؛ الخيال والحقيقة.

كسرت رواياته الحاجز التقليدي للرواية العربية فتعدى حدود الزمان و المكان وكان من أوائل رواد الواقعية السحرية.

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

9 789774 279140

الدار المصرية اللبنانية